روايات الهلال

أنتوني بيرجيس

البرتقالة الآلية



ترجمت هذه الرواية كاملة عن النص الادبي
CLOCK WORK ORANGE
by : ANTHINY BURGESS

مقدمة

الابن الشرعي لعصر العنف والتمرد

يسمونه الالة الكاتبة المتنقلة — يكتب فى كل مكان — ويمارس اكثر من نوع من الكتابة . من الرواية الى القصيدة والسيناريو والمسرحية . والتمثيلية التليفزيونية . انه الان انشط واهم الادباء فى انجلترا ..

أعماله تتوالى الواحد تلو الاخر . والنجاحات تتواصل . يسافر كثيرا هنا وهناك ولا يكف عن الحركة . انه انتونى بيرجيس .

وبالرغم من انه لا يعيش جزءا طويلا من السنة داخل بلاده . ويتحدث ويكتب بطلاقة ست لغات فهو انجليزى من راسه الى اخمص قدميه . واذا كانت اللغة الانجليزية حسب رايه « صعبة جدا فى كتابتها » فهى وسيلته الاولى فى التعبير خاصة بالنسبة لرواياته التى يعدها افضل الوان الكتابة حتى الان ..

ولد انتونى بيرجيس عام ١٩١٧ فى شمال انجلترا بمانشستر فى اسرة كاثوليكية . كان ابوه عازفا على آلة البيانو . اما والدته فكانت تعمل فى الصالات الموسيقية . وقد ماتت وهو لا يزال طفلا . وكان من اسباب انغلاق الطفل وجود ام اخرى غير امه تتسم بالتعصب الدينى الشديد . استطاع ان يتعلم من خلال ابيه الرقص والغناء والعزف على البيانو . التحق بجامعة مانشستر بعد ان ترك المدرسة الكاثوليكية وكان يتمنى فى اول الامر ان يصبح عازفا الا انه قرر ان يهجر عالم الموسيقى كى يصبح اديبا . وقد ساعدته موهبته الادبية ان يقوم بالقاء المحاضرات والندوات الادبية فى الجيش ابان تجنيده . وقد ترك بلاده لاول مرة عام ١٩٤٢ متجها الى جبل طارق ثم أوربا . وهناك اختلط لاول مرة بعالم يختلف عن بلاده . وراى بشرا آخرين لا يتكلمون الانجليزية . وفى عام ١٩٥٤ سافر الى ماليزيا حيث التحق باحدى الوظائف التى وفرت له الوقت كى يمارس الكتابة . وقد أصيب عام ١٩٥٩ بمرض اضطره الى العودة الى وطنه . وقال الاطباء انه لن يعيش اكثر من عام . ولذا عزم انتونى ان يترك لامراته ثروة فكتب فى اقل من عام خمس روايات . لكن القدر لم يوافه منيته .

وانما جاء على امراته . فتزوج من امراة ايطالية هاجر معها الى مالطا ثم ظل يتنقل ـ فيما بعد ـ بين البلاد حتى استقر اخيرا فى مونت كارلو واختارها لنفسه كمنفى « يعد المنفى شرطا اساسيا للكاتب . وانا سعيد دوما حين اجد نفسى هناك حيث لا اسمع الكثيرين من الناس يتحدثون بالانجليزية التى افتقدتها . فبدوت كأننى قد بترت لسانى فى الوقت الذى اجد انه لزاما على ان اكتب بلغة وطنى »

والمنفى يشكل بالنسبة للكتابات وحياة الكاتب علاقة خاصة . ففى روايته « حق الرد » نرى المدرس الذى يعمل فى مدرسة خاصة ولا يرضى بالاوضاع التى تنتهجها ادارة المدرسة فيقرر ان يهجر البلاد الى اوروبا .

وقد جلبت روايته « البرتقالة الالية او برتقالة بقلب الساعة » الشهرة الواسعة خاصة بعد نجاحها كفيلم سينمائى اخرجه ستانلى كيوبريك ١٩٧٢ . وقد اتبع فيها اسلوبا اقرب الى ما كان يفعله مواطنه الدوس هكسلى فى رواياته . فهو يدخل فقرات طويلة لها علاقة حميمة بالعمل الاساسى بعدة لغات اخرى خاصة اللغة الروسية، وتنتمى هذه الرواية الى ادب الخيال السياسى الذى يميل بيرجيس الى الكتابة فيه . حيث ينقل تجربة اغتصاب حدثت لزوجته من رجال اشرار . فمن المعتاد ان نشاهد صورة الضحايا فى الصحف بعد ان يتم ارتكاب الجرائم . لكننا لم نر ابدا صورا تبين لنا الجريمة اثناء وقوعها . ففى الجزء الاول نرى مجموعة احداث العنف التى يمارسها البكس وعصابته .

والعنف هو حصيلة اشياء ناتجة عن استعمال الاليات لدخائلنا. فقد تحول عالمنا الى كتلة من العنف والدماء . حيث نرى فى النصف الثانى من الرواية عملية غسيل مخ لاليكس فى احدى المصحات يتحول على اثرها المجرم المتوحش الى انسان ذليل خنوع مطيع . اذا ضربه انسان انحنى ليقبل حذاءه وعندما اختبروا قابليته للجنس فقدموا له فتاة عارية ساحرة تقيا !

وبالرغم ان بيرجيس يؤكد على العنف فى رواياته كما سنرى ، الا انه لا علاج لمجتمعنا المعاصر سوى بالعودة الى التعاليم التى جاءت فى الكتب السماوية . وهو يكن اعجابا خاصا للسيد المسيح عليه السلام . فيكتب حوله رواية « رجل الناصرة » ويرى ان حياة المسيح تشكل صدى لمأساة . ودرسا للتحمل . ومعاناة نفسية للتلاميذ . فلكل انسان كلماته وسماته . وهو يرى ان المسيح رجل

مثلنا . ينبثق من محيط كمحيطنا . رجل كانت له معجزاته الصغيرة التى لا تتوقف كثيرا كاحياء الموتى وشفاء المرضى . ولكن كانت له معجزة كبيرة واحدة هى التى جعلت منه رسولا ، وجعلتنا نؤمن له . هى انه استطاع ان يكون منا . واكبر منا . استطاع ان يكون المسيح الذى نعرفه جميعا . وقد تحولت هذه الرواية الى مسلسل تليفزيونى اخرجه فرانكوزيفيرللى عام ١٩٧٧ .

ونتيجة لمعيشة انتونى بيرجيس فى مونت كارلو حيث التأثر الواضح بفرنسا وتاريخها ، يختار اهم شخصية فى تاريخ البلاد ليقدمها فى روايته « سيمفونية نابوليون » التى نشرها عام ١٩٧٦ . ويتناول علاقات نابليون العاطفية ومغامراته فى البلاد التى غزاها مثل مصر وايطاليا وروسيا . وهو يتبع القائد الفرنسى الى هذه البلاد كانه اب يراقب ابنه فى مسيرته . ويحاول تعديل مساره والتعاطف معه والتغاضى عن اخطائه مهما فعل . فنابليون هو ابن الثورة الذى يريد ان ينشىء امبراطورية عظيمة فوق اطلال اوربا الاقطاعية المهدمة التى عانت من الطغاة والجياع . لكن الثورة كانت اول من حطم قائدها . واتت عليه بعد ان حقق لها الكثير . فقد مات نابليون كى يبقى الى الابد حلم شعوب اوربا .

ويقول الناقد جيل لابوج فى مجلة « كانزان » الادبية — ١٥ ابريل ١٩٧٧ — كى تقرأ هذا الكتاب مثلما كتب . فيجب ان تكون عينك على الكتاب والاخرى تسمع بها السيمفونية الثالثة لبيتهوفن . وان تدور داخلك الحركة الرابعة فى السيمفونية .

وفى عام ١٩٧٨ نشر بيرجيس ثلاثة كتب مرة واحدة . الاول عن ارنست هيمنجواى بعنوان « هذا اللعين هيمنجواى » وفيه يتحدث عن الاحترام الذى يكنه للاديب الامريكى العظيم .. ويتحدث عن لقائه به خلال عام ١٩٤٤ ابان الحرب العالمية حينما زار فرنسا . ذلك اللقاء الذى جمعه بمالرو « بالخسارة انه لم يكن لهذه المجموعات اية افكار واضحة وهى تجتمع فى باريس » .

اما الكتاب الثانى فهو رواية بعنوان « روما تحت المطر » وفيها يتعرض لحياة « رولان بيرار » احد كتاب السيناريو الذين يعيشون فى اوربا بعيدا عن بلادهم . لقد اصبح ارملا بعد زواج دام سنة

وعشرين عاما . وبعد ان ماتت زوجته يشعر انه قد استرد حريته التى اغتصبت منه . فيشيع زوجته الى مثواها الاخير دون ان يشعر بالاسف على ذلك . ويقرر ان يرحل الى روما كى يستقر فيها .. وهناك يتعرف على امراة تعمل مصورة فوتوغرافية ما تلبث ان تتركه لترحل الى الشرق الاوسط لتصور احداث حرب الخامس من يونيه . بينما يبقى بيرار وحده فى غرفة المراة يكتب سيناريو فيلم تموله هوليود وتقوم ببطولته اخته . وفى هذا السيناريو يمزج بيرجيس بين تجربته الخاصة واحاسيسه الذاتية وبين ابطاله الذين يصنعهم بنفسه ..

اما الرواية الثالثة التى صدرت فى نفس العام « ١٩٨٥ » وفيها يعود الى ادب الخيال السياسى مرة اخرى وقد قارن النقاد بين هذه الرواية وبين رواية بنفس العنوان للكاتب جورج اورويل . لكن الشخصيات هنا تختلف . فنحن امام ديكتاتور عصرى يدعى بيف . ربما هو صورة جديدة من بيفان . وهو يعيش فى عصر ملك يدعى شارل الثالث وهناك مملكة تسمى بمملكة العمال يتزعمها بيف العامل الذى يود ان يستولى على الحكم كى يصنع لنفسه كل القوانين التى تسود المملكة ، الفوضى والاغتصابات فى شوارعها . ويفقدبيف امرانه بعد ان اصيبت فى حريق فى احدى المستشفيات . كان عمال المطافى فى اجازة حين احترقت زوجته . وهذه التجربة تدفع الشاب ان ينضم الى مجموعة من الشباب المتشردين الذين يعيشون على هامش المجتمع العبثى ويمارسون الاغتصابات والقتل ويسيلون الدماء ويقضون اوقات فراغهم فى تعلم اللغة اليونانية ويتزعم بيف هذه العصابة . وهذه الرواية هى اولى روايات الكاتب التى ترجمت منذ اشهر الى اللغة العربية تحت عنوان « المسلمون قادمون » .

وفى منتصف عام ١٩٨١ ينشر روايته الثالثة حول العنف الذى يجتاح العالم والذى تنبا به فى رواية « البرتقالة الالية » . وقد اطلق على هذه الرواية « قوى الظلام » التى سميت بـ « كتاب القرن العشرين » حيث يتناول بيرجيس ستين عاما كاملة من القرن العشرين مؤكدا على مظاهر العنف داخله . وقد نشرت مجلة الاكسبريس الفرنسية حديثا طويلا مع بيرجيس فى العدد الصادر فى ٢٥ سبتمبر عام ١٩٨١ سنورد منه بعض المقاطع لالقاء الاضواء على فكر بيرجيس حول العنف والارهاب الدولى ، فهو يقول « حاولت فى اول الامر ان

اعطى صورة حول العالم الذى اعرفه .. منذ سنوات ميلادى عام ١٩١٧ وحتى الان . افكر جديا ان هذا الكتاب قد بيع جيــــدا فى الولايات المتحدة لانه طويل جدا . فالامريكيون لا يحبون أن يشتروا كتابا يمكنهم قراءته فى جلسة واحدة . مثل اعمال فرانسواز ساجان . انهم يشعرون بالغلبة اذا ما اشتروا شيئا ليس على مزاجهم . ففى مساكنهم تجد دائما الكتاب السميك الثقيل الذى تضعه على دولابك ويمكنك أن تحتفظ به كى تقراه يوميا . هذا الامر يضمن نجاح الكتاب بينما انا لا اعلق اية اهمية على هذا الموضوع .

ويقول ان هذه الرواية قد استقبلت جيدا فى المملكة المتحــدة لكن بشىء من الحذر . لانه يتصور ان القارىء الانجليزى له مفهوم خاص حول العمل . وهذا الامر يختلف عنه فى ايرلندا او فرنسا او اى بلد آخر . وعن بطل روايته تومى يقول « انه شاذ جنســـيا وكاثوليكى » وهذا الموقف الدينى المتشدد داخله يتضارب مع سلوكه الجنسى . فالكنيسة ترفض الشذوذ الجنسى . وعليه فانه يلزم وجود الهين وقوتين . احدهما للجنس والاخر للكنيسة . الذى يطلب منه ان يتخلص من كل شروره . فهو اب اسرة كما انه مجرم ؛ ليست له وظيفة سوى ان يؤلف روايات شعبية . ويشعر تومى بالتمزق تجاه هاتين القوتين فيرفض أن يختلط باعماله مع هذا العالم . يشرك معه البابا كارلو فى حل مشكلته . يقول له اننى احس اننى انسان غير موجود . فانا لم أصبح شاذا باختيارى وتومى يؤمن بحرية الاختيار. وعندما نختار فاننا نفضل الاحسن . فيجب أن يظل الشر خارجا .. يقول له البابا « الانسان حر فيما يفعل لانه كائن طيب »

يلتقى تومى بالبابا كارلو ثانية عام ١٩١٨ الذى يخبره ان الحرب قد انتهت . لكن الحرب ليست سوى وسيلة للتعبير عن صـــفات رائعة داخل الانسان . مثل الشجاعة وروح التضحية والاتحاد وحب الزملاء . وتطرح هذا السؤال « هل يجب اختيار الشر مثل ذلك الذى نقع تحت طائلته كي يمكن تحقيق نتائج مرضية » هل يجب أن نتمنى قيام حرب جديدة . وتكون الاجابة البديهية هى الرفض . فكارلو يرى ان ضرر الحرب اكثر من خيراتها .

ويقول بيرجيس ان كارلو كومبانانى هو نفسه البابا يوحنــا الثامن « هذا الرجل بالنسبة لى هو اكثر الرجال خطورة فى القرن العشرين . وبالطبع فقد كانت هناك النية فى تنصيبه قديســـا .

وعندما كنت أقيم بروما كتبت مقالا عددت فيه مجموعة من الوقائع ضده وقد اعتبر الفاتيكان أن هذه المقالات يجب أن توضع فى ملف الشـيطان » .

وانتونى بيرجيس يهتم جدا باللغة التى يكتب بها . فهو يرى ان اللغة بمثابة موسيقى العمل الروائى باكمله . ويرى ان البنـاء الروائى هو عماد العمل نفسه . وعالمه ينقسم الى قسمين هما العالم الطبيعى الذى نعيش فيه والعالم التحتانى الذى يعيشه كل انسان منا خاصا بنفسه لا يعرفه الاخرون ولا يجيد أحد التعبير عنه « يجب ان يكون هناك معبر طويل بين العالمين ، فنحن نتعلق بعالمنا التحتانى دون أن نعرف أننا مسلوبون اليه فنحن لسنا الذين نبحث عن الله او الشيطان . من الخير والشر . نحن متعلقون بهم بصـــورة أو باخرى . فربما يكون هذا « تحتانى » وربما هذا أفضل وربما يكون الامر جسيما »

والعنف الذى يجتاح العـــالم الان وتنبأ به « بيرجيس » فى الستينيات هو العنف الابله الشرير ، وهذا العنف مرفوض تماما . فاذا كان الكاتب يكره الطمانينة العقيمة مثل كراهيته للحرب المدمرة، فان الكاتب يوجه فى أعماله المتعددة التى تحلل العنف وظواهره نداء الى ان تنبض القلوب من جديد . تنبض بالحب والانسانية . وان يتجه العالم الى الوحدة والخير والطمانينة ابان السلام اكثر من وقت الحرب .

القســـــم الأول

الـفـصــــــل الأول

ماذا سيكون ، يا ترى ؟

امامكم شخصي الضعيف ، راوي هـذه القصة : اليكس ، ورفاقي الثلاثة : بيتر ، وجورجي ، وديم ... ان ديم هو ما يدل عليه اسمه في لغتنا : الغبي ، ولقد جلسنا في مشرب اللبن المعروف باسم (كوروفا) نقدح زناد افكارنا فيما سنفعله هذه الليلة الحالكة الظلام القارسة البرد في هذا الشتاء اللعين ، وان كانت مع ذلك غير ممطرة ... ان مشرب كوروفا هذا - يا اخواني - كان من المشارب التي يقدم فيها اللبن المخلوط ، وربما نسيتم حقيقة هذه المشارب ، لسرعة ما تغيرت طبيعتها هذه الايام ، وكثرة ماينساه الناس ، وقلة ما يقرأون من الصحف .. حسن اذن .. كان ما يقدم فيها هو اللبن مضافا اليه شيء او اشياء أخرى .. لم يكن مرخصا لاصحابها بتقديم المشروبات الروحية ، لكن لم يكن وقتها ثمة قانون يمنع اضافة المواد التي اعتادوا أن يضيفوها الى اللبن العتيد ، والتي كانت كفيلة بان تسلبك الرشد وتطير عقلك في اجواز الفضاء ، او كانك كنت تشرب لبنا امتزجت به حدة النار الحامية ووخز السكاكين المشحوذة ، كما كنا نقول ، والنتيجة هي الهاب حواسك واعدادك للاقدام على كل القبائح التي يجترىء عليها المراهقون المنحرفون !.. وذلك هو ما شربناه في ليلتنا هذه التي ابدأ بها سرد قصتي ..

كانت جيوبنا عامرة بالنقود ، وهكذا لم تكن بنا حاجة ماسة - من وجهة نظر توفير المزيد منها - الى مهاجمة احد المسنين العجائز في احدى الحواري الجانبية ورؤيته وهو يسبح في دمائه بينما نتقاسم حصيلة الغنيمة بين أربعتنا ، ولا الى الاغارة على واحدة من ذوات الشعر الرمادي البسورات في محلها والقاء الرعب في قلبها ثم الانصراف بالاسلاب ضاحكين مهللين .. ومع ذلك ، فان النقود - كما يقولون - ليست دائما هي كل شيء ...

كنا نحن الاربعة نلبس قمة « الموضة » ، وكانت فى تلك الايام عبارة عن بنطلون اسود شديد الضيق ، وسترة بلا طيات ولكن باكتاف اصطناعية ضخمة ، وربطات عنق بيضاء عليها رسوم بارزة .. وكان شعر رءوسنا مرسلا الى حد ما ، واحذيتنا مصممة للركل الاليم ...

فماذا سيكون الذن ، يا ترى ؟..

كان ثمة ثلاث نسوة جالسات الى المقصف جنبا لجنب ، لكننا كنا اربعة فتيان نعمل بقاعدة (الواحد للكل او الكل للواحد) . وكانت النسوة الثلاث مرتديات قمة (الموضة) ايضا ، علت رءوسهن (باروكات) وردية وبرتقالية وخضراء ، لا يقل ثمن كل منها عن ثلاثة او اربعة امثال اجر كل منهن الاسبوعى ، فيما يصل اليه تقديرى ، وقد صبغن وجوههن بالوان قوس قزح ، وشفاههن بالاحمر القانى... وكانت الفساتين سوداء طويلة مرسلة ، وفوق موضع النهود رشقت بطاقات مفضضة صغيرة باسماء ذكور من امثال (جو) و (ميك) ، والمظنون انها اسماء اصحاب لهن منذ عهد الصبا ... وقد راحت النسوة الثلاث يرمقننا باعينهن حينا ، حتى لقد بدا لى لحظة ان نصحبهن الى الخارج لشىء من المعابثة ، تاركين ديم القبيح وحده ، لما عهد فيه من الفظاظ والعنف فى استخدام اليدين والقدمين .. غير انى عدلت عن هذا الخاطر ...

وكان المخلوق الجالس الى جانبى فوق الاريكة الوثيرة الممتدة بطول ثلاثة جدران غائبا فى عالم آخر وهو يهذى بكلام غير مترابط ولا مفهوم .. وكنت خبيرا بهذه الحال بعد ان جربتها من قبل مثل اى احد .. وبا لها من حال ايها الاخوة !.. فانك تقبع فى مكانك بعد ان تشرب اللبن النارى العتيق ، واذا انت تشعر وكان كل ما يحيط بك هو من الماضى السحيق !.. انت تبصر كل ما حولك بلا مراء : الموائد ، والاضواء ، وجهاز (الاستيريو) ، والغوانى ، والفتيان ، لكن هذه الرؤية تبدو لك وكانها ليست من عالم الواقع .. وتراك وقد سمرت نظراتك باستهواء مغناطيسى فى حذائك او ظفر اصبعك او نحو ذلك ، وتشعر فى نفس الوقت كان قبضة تمسك بقفاك وتهزك هزا متواصلا حتى لا يبقى منك شىء ، فقد نقدت اسمك ، وجسمك ، وذاتك ، وغدوت لا تحفل بشىء .. ومع ذلك تظل تنظر وتنتظر الى ان يصفر لون حذائك او ظفر اصبعك ويزيد اصفرارا طول الوقت ... ثم تاخذ الاضواء تنشق وتنشطر انشطار الذرة ، واذا الحذاء او ظفر

الاصبع بكبر ، ويتضخم ، ويتمدد ، حتى يملأ فراغ الكون ، وتخال انك على باب الاخرة ، ثم لا تلبث ان ترتد الى مكانك باكيا منتحبا ؛ فليس من الصواب ان تعجل بنهايتك وتفارق دنياك على هـــــذه الصورة !..

فماذا سيكون اذن يا ترى ؟..

كان (الاستيريو) دائرا ، ويخيل اليك ان صوت المغنى يتحرك من موضع الى آخر فى البار ، محلقا حتى السقف ثم هابطا مرة اخرى من جدار الى جدار .. كانت اسطوانة للمغنى (برتى لاسكى) ، ورايت احدى النسوة الثلاث الجالسات الى المقصف تدفع بطنها الى الخارج ثم تردها الى الخلف مع صلصلة الموسيقى ... وشعرت الان ان (السكاكين) المخلوطة باللبن بدات وخزاتها ، واننى الان على استعداد لبدء المغامرة ، وهكذا اخذت اردد مثل كلب ينبح : « الى الخارج ، الى الخارج ، الى الخارج » !.. وعلى الاثر وكزت الجالس الى جانبى غائبا فى عالمه وماضيا فى هذيانه وكزة شديدة على اذنه لم يشعر بها ومضى فى الهذيان ، ولكن ما أن يفيق ويثوب الى وعيه حتى يشعر بالم الوكزة ..

وقال جورجى ردا على ندائى :

ــ الى الخارج ، اين ؟..

فقلت له :

ــ آه ... فقط لمجرد المشى ، وسنرى يا اخوانى ماذا يجد امامنا ...

وهكذا تقاطرنا الى الخارج فرادى فى ظلمة الليله الشتوية ، ومشينا فترة فى (بوليفار مارجانيتا) وانعطفنا منه الى (بوثبى افينو) وهناك وجدنا ما كنا واثقين من وجوده ، اعنى دعابة نستفتح بهـــا السهرة ... كان امامنا شخص مسن عليه مسحة ناظر مدرســـة محترم يلبس نظارة وقد تأبط بعض الكتب ومظلة وسار فاتحا فمه فى هواء الليل البارد ، وبدا انه قادم من ناحية المكتبة العامة القريبة ... وفى تلك الايام ما كنت تلتقى بكثيرين من طراز اواسط الناس سائرين فى الطرقات بعد حلول الظلام ، فما بالك مع تناقص افراد الشرطة وانتشارنا نحن الفتيان الاماثل هنا وهناك !..

وكان هذا الاستاذ النموذجى هو الوحيد الذى يسير فى الشارع كله ... وهكذا اقتربنا منه ، بكل ادب ، وقلت له :

ــ عفوا يا اخ !...

بدا عليه شيء من الوجل حين ابصر قدومنا ، نحن الاربعة ، نحوه هكذا هادئين مؤدبين مبتسمين ، غير انه قال بلهجة مدرس عالية النبرات ، وكأنما يحاول ان يبين لنا انه غير وجل ولا هياب :

ـ نعم ؟.. ماذا هناك ؟..

فتوليت الرد قائلا :

ـ ارى انك تحمل كتبا تحت ابطك يا اخ .. هو شيء مبهج نادر حقيقة يا اخي ان يصادف الانسان واحدا لا يزال يقرأ !..

فقال وقد اهتز تماما :

ـ آه !.. احقا ؟.. آه !.. فهمت !..

وراح ينقل نظراته بيننا نحن الاربعة بعد ان الفى نفسه مطوقا بمربع بشري يغالي في الابتسام والتأدب ..

قلت له :

ـ نعم ... يهمني أعظم الاهتمام يا اخ ان تتكرم وتسمح لي برؤية نوعية هذه الكتب التي تحت ابطك .. فليس احب الي في هذه الدنيا من رؤية كتاب جيد نظيف ...

فقال الرجل :

ـ نظيف ؟.. نظيف ؟.. ايه ؟! ..

وعندئذ بعثر بيتر الكتب الثلاثة ووزعها علينا بسرعة ، فاخذ كل منا كتابا يفحصه باستثناء ديم .. وكان الكتاب الذي وقع في يدي بعنوان (مبادىء علم البللوريات) ... فتحت الكتاب وقلت وانا اقلب الصفحات :

ـ بديع !.. نوعية ممتازة فعلا !..

ونجأة تغيرت لهجتي وقلت بلهجة المصدوم :

ـ لكن ماهذا الذي اراه هنا ؟! .. ما هذه الكلمات القذرة ؟!..

ان وجهي يحمر خجلا من هذه الكلمات !.. لقد خيبت ظني فيك يا اخ .. خيبت ظني فعلا !..

فحاول ان يقول :

ـ لكن !.. لكن !.. لكن !..

وقال جورجي بدوره وكان الكتاب الذي معه بعنوان (معجزة الرقائق الثلجية) :

ـ وهنا !.. هذا ما لابد ان اصفه بانه قذارة حقيقية !.. ارى كلمة تبدأ بحرف فاء وكلمة اخرى تبدأ بحرف سين !..

وقال ديم الذى انضم الى بيتر ووقف ينظر من فوق منكبه وقد نادى كثيرا كعادته :

ـ آه !.. هنا وصف لما فعله معها ، وصورة ايضا !.. ماذا أ.. انت الا عجوز فاجر ملوث !..

وعدت أنا اقول :

ـ رجل عجوز مثلك يفعل هذا ؟! ..

واخذت امزق صفحات الكتاب الذى معى واخذ كل منهم يفعل مثل بالكتب التى فى أيديهم ...

عندئذ راح الاستاذ يصيح قائلا :

ـ لكن هذه الكتب ليست لى !.. هى ملك مكتبة البلدية !.. هذا منتهى الاستهتار والهمجية !..

واخذ يحاول انتزاع الكتب منا وهو يقول بلهجة مؤثرة :

ـ كفوا عن هذا العمل الاجرامى !.. هاتوا الكتب !..

فقلت له :

ـ انت تستحق ان نلقنك درسا يا اخ !.. هذا ماتستحقه فعلا !..

وكان كتاب البللوريات الذى معي مجلدا تجليدا سميكا ويصعب تمزيقه ؛ اذ كان من الكتب النفيسة التى اعدت فى الايام الخوالى حينما كان يراد لمثلها ان تبقى طويلا ؛ غير اننى عالجت ان انتزع الصفحات والقيها فى الهواء مثل رقائق الثلوج ، مطوحا بها على وجه العجوز المحتج الصارخ ... وما لبث الرفاق الاخرون ان حذوا حذوى بالكتب التى معهم ، فيما راح ديم يتراقص كالبهلوان من حولنا وهو ما كان طبعه ... وقال بيتر اخيرا :

ـ هاك كتبك ، اجمعها وامضغها ايها القارىء القذر لكتب السفالة والانحطاط !..

وقلت انا :

ـ ايها العجوز القبيح الوغد !..

ثم أحكمنا الحصار حوله وبدانا نعبث به شخصيا ، فامسك بيتر بيديه ؛ وتولى جورجي فتح فمه بالقوة على سعته ، وعمد ديم الى انتزاع اسنانه الصناعية علوا وسفلا والقى بها على الارض ، حيث أخذت ادوسها بقدمى لتهشيمها ، وان كانت لعنة الله عليها مصنوعة من مادة بلاستيكية متينة .. فانبعثت من العجوز تأوهات كالفحيح صدرت من حلقه ؛ وعلى الاثر تخلى جورجى عن الفم الفاغر (الاهتم)

وأن عاجله بضربة من قبضته المطعمة بالحديد سرعان ما اسالت الدم من اللثتين قانيا جميلا يا اخواني !... وبعدها لم يكن أمامنا سوى أن نجرده من ملابسه الخارجية حتى ظهرت سراويله الطويلة التى بدت غالية الثمن ، وجعلت ديم ينظر بجشع ، واخيرا رفسه بيتر فى بطنه ، ثم اطلقنا سراحه ، فأسرع بتصعد مترنحا ، متطارحا ، متأوها ، وهو لا يدرى ماذا دهاه ولا اى طريق يسلك ... اما نحن فقد انشغلنا بتفتيش جيوبه ، واخذ ديم يرقص من حولنا مستعينا بالمظلة ، بيد أن الجيوب لم تكن عامرة بنقود تذكر ، وكانت بها عدة رسائل يرجع تاريخ بعضها الى عام ١٩٦٠ ، مصدرة بعبارات تقول : (يا أعز اعزائى وأحب أحبابى) ، الى جانب سلسلة مفاتيح وقلم يتسرب حبره .. ولم يلبث ديم أن كف عن الرقص واخذ يقرأ احدى الرسائل بصوت مرتفع وكأنما يريد أن يعرف الشارع الخالى انه يستطيع القراءة : « حبيبتى الغالية ـ لن اتوقف عن التفكير فيك طوال غيابك ، وارجو ان تتذكرى تدفئة نفسك بالملابس الكافية كلما خرجت ليلا » ... ثم قهقه عاليا لكى يدارى عنا جهالته وتخبطه ...

وفى النهاية قلت لهم :

ـ ارموها يا اخوانى !..

كانت نقودا زهيدة بالمقارنة بما كان فى جيوبنا فعلا ... وهكذا طوحناها فى الهواء ، ثم حطمنا المظلة ومزقنا الملابس وقذفنا بها فى مهب الرياح ، وانتهت بذلك مغامرتنا مع الاستاذ العجوز الذى هو فاضل ومبجل !..

واعترف أننا لم نقم بعمل يذكر ، ولكنها كانت فاتحة متواضعة لمغامرات هذه الليلة ، ولم اقصد بسردها عليكم مفاخرة ولا تباهيا ، ولكن تقريرا للواقع بأمانة !...

ثم كان مفعول اللبن المحمى بوخز السكاكين قد بدأت تخف حدته ، وتعين علينا أن نقوم بعمل لائق بعد تخفيف جيوبنا من نقودها الكثيرة بشراء مشروبات نارية أخرى تكون حافزا قويا على هذا العمل ، مثل اغتصاب محل ونهب محتوياته ، ولتكون جولة الشراب الثانية ستارا يثبت وجودنا بعيدا عن مسرح الحادث ..

هكذا دلفنا الى حانة دوق نيويورك فى (آميس افينو) ، وفيها وجدنا ما ننشده فى أشخاص ثلاثة او اربع عجائز يشربن الجعة الرخيصة على حساب المعونة الحكومية .. وها نحن الآن أولئك الفتيان الطيبون المهذبون الذين يوزعون بأحلى الابتسام تحية المساء

على الحضور بالعدل والقسطاس ، ذلك وان سرى الخوف فى قلوب اولئك العجائز المخضنات حتى لقد اخذت ايديهن المعروقة ترتعـــد بالكئوس وتريق الشراب على المائدة ، وحتى قالت كبراهن :

ـ نحن لسنا أكثر من عجائز مسكينات !..

بيد اننا بالغنا فى الابتسام وجلسنا ودققنا الجرس وانتظرنا ندوم (الجرسون) ... وعندما قدم وهو بادى العصبية مدلكا يديه فى مريلته الدهنية ، طلبنا لانفسنا اربعة كئوس مقواة ـ وهى مزيج من الروم والبراندى والشيرى وكانت شائعة فى ذلك العهد ، ثم قلت للفتى :

ـ قدم لهؤلاء العجائز المسكينات هناك شيئا مغذيا : شراب (سكونشمان) كبيرا وشيئا ياخذونه معهن ..

وشفعت هذا باخراج كل ما معى من نقود ووضــعتها فوق المائدة ، وفعل زملائى الاخرون مثل ما فعلت ، يا اخوانى ، وهكذا ذهب الروع عن العجائز حتى لم يدرين ماذا يقلن او يفعلن ، ثم فتح على احداهن وقالت : « شكرا أيها الفتيان » ... ذلك وان خامرهن الشك بان هذا ما هو الا مقدمة لشىء براب !..

وعلى اى حال فقد اعطيت كل واحدة منهن زجاجة من كونياك (بانك جنرال) لكى ياخذنها معهن ، كما تركت لدى عامل المقصف نقودا لاعطائهن المشروب فى صباح اليوم التالى على ان يتركن لديه عناوينهن ... واخيرا اشترينا بما تبقى من نقودنا كل فطائر اللحم والبسكويت المملح وشطائر الجبن والشكولاتة التى كانت موجودة فى المشرب ، وطلبنا توزيع كل هذا على العجائز ... وقلنا لهن بعد ذلك: « سنخرج ونعود بعد دقيقة » .. فاخذت العجائز يلهجن بالثنـــاء قائلات :

ـ شكرا ايها الفتيان !.. بارك الله فيكم !..

واسرعنا بالخروج دون أن يبقى معنا بنس واحد ... وقال بيتر معقبا :

ـ هذا يجعلنا نشعر باننا من أهل الخير والاحسان فعلا !..

وبدا لنا أن ديم المتبلد الفهم لم يكد يدرك مدلول هذه العملية الخيرية ، غير أنه لم يقل شيئا خوفا من ان نتهمه بالغباوة ..

ومهما يكن فقد انعطفنا على الاثر الى (اللى أفنيو) حيث لاح لنا ذلك المحل الخاص ببيع الحلوى والسجائر لايزال مفتوحا ... والواقع أننا كنا تركنا هذه المنطقة وشأنها قرابة الثلاثة الاشهر الماضية

حتى ظلت تنعم بالهدوء عموما ولم تعد دوريات الشرطة المسلحة تتردد عليها كثيرا ، مركزة نشاطها في المناطق الواقعة الى الشمال من النهر .. والان فقد اخرجنا اقنعتنا المطاطية ولبسناها ، وكانت ملامحها على هيئة شخصيات تاريخية (فقد زودونا باسمائها عند شرائها) فكان قناعي يمثل دزرائيلي ، وقناع بيتر يمثل الفيس بريسلي ، وقناع جورجي يمثل الملك هنري الثامن .. اما ديم المنكود فكان من نصيبه قناع لوجه الشاعر شيلي .. وكانت الاقنعة مصنوعة من مادة بلاستيكية خاصة بحيث يسهل طيها بعد انتهاء الغرض منها واخفاؤها في الاحذية ...

عندئذ دخل ثلاثتنا الى المحل وبقي بيتر في الخارج للرصد ، وان لم يكن ثمة ما يدعو الى القلق .. وما ان اقتحمنا المحل حتى تقدمنا مباشرة نحو صاحبه (سلوس) ؛ وكان رجلا ضخما كالبرميل ادرك في الحال ما سيحدث واسرع الى الداخل حيث يوجد التليفون وربما ايضا مسدسه المعد دائما بدوراته الست المهلكة .. غير ان ديم اسرع كالطير بالالتفاف حول (الكاونتر) ، مرسلا علب السجائر كالقذائف ترتطم باعلان من الورق المقوى المتين لفتاة ناصعة الاسنان مدلاة النهود للدعاية لنوع جديد من السجائر فتتناثر في الهواء ... والذي كانت تقع عليه العين بعد ذلك هو شيء مثل كرة ضخمة تتدحرج في داخل المحل خلف الستار ، ولم تكن سوى ديم العتيد وسلوس مشتبكين في صراع مميت .. وكنت تسمع لهما فحيح اصوات تلهث وتدمدم من خلف الستار مقترنة بركل الاقدام ، ثم سقوط اشياء وتحطم زجاج يتهاوى تهشيما .. اما (الام سلوس) ، الزوجة ، فقد وقفت جامدة مسمرة خلف (الكاونتر) ، وادركنا انها توشك على الصراخ والاستنجاد اذا تركت لها الفرصة ، وهكذا بادرت انا بالالتفاف حو (الكاونتر) وامسكت بها ... وكانت في مثل بدانة زوجها وامتلائه ، يفوح عطرها ويبرز نهداها .. ولكني اسرعت بوضع يدي على فمها لمنعها من الصراخ المدوى الذى لو ترك فيه العنان لها لبلغ مشارف السماء .. لكن هذه السيدة المسعورة انشبت انيابها في يدي بعضة جعلتني انا الذى اصرخ مستجيرا .. ثم شفعت هذا بصيحة رنانة متجاوبة تستنجد بالبوليس .. لا باس !.. ماذا كان يمكن ان افعل لحظتها سوى ان اقذفها باحدى صنج الميزان ، مشفوعة بلطمة من قضيب معدني لفتح الصناديق ، مما اسال دمها .. وهكذا تغلبنا عليها وطرحناها أرضا ، ثم شققنا ملابسها تفكها ومعابثة،

.. ركلة قدم خفيفة لاسكات تأوهاتها .. ولما رأيتها ممددة امامي هكذا لعب الشيطان بعواطفي ، ولكنني آثرت ان ارجيء هـذا الى الاحداث التالية في السهرة الحافلة !..

وبعد هذا نظفنا المحل من حصيلته النقدية وكانت وفيرة هذه الليلة ، وعززناها بمجموعة لكل منا من افخر انواع السجائر ، ثم انسحبنا يا اخواني على الاثر !..

ولكن ديم مانتيء يكرر قوله ساخطا :

ــ كان ابن الملعونة هذا من الوزن الثقيل !..

والواقع انني لم استرح الى مشهد ديم بعد المغامرة ، فقد بدا متسخا ومشعثا ، مثل انسان كان في معركة ، وهو ما كانه فعلا ، ولكن يجب الا يبدو بالطبع هكذا ... كانت ربطة عنقه مثنية كأنما داستها الاقدام ، وكان قناعه منزوعا ووجهه معفرا بأتربة الارض ... وهكذا اخذناه الى حارة جانبية وبللنا مناديلنا باللعاب وازلنا اتساخ وجهه ... يا لهذه الخدمات التي كنا نقدمها لديم !..

وعدنا الى بار دوق نيويورك مسرعين ، وقدرت بنظرة الى ساعتي اننا لم نغب اكثر من عشر دقائق ... كانت العجائز لا زلن جالسات يتناولن المشروبات التي امرنا بها لهن ، وبادرناهن بالسلام والسؤال عن الاحوال ، فكان ردهن التقليدي هو : « انتم أهل كرم يا الفتيان ، بارك الله فيكم ! » ... وهكذا دققنا الجرس فجاء (جرسون) آخر هذه المرة وطلبنا منه اكواب بيرة ممزوجة بالروم نظرا لشدة عطشنا يا اخواني ، وكذلك كل ما تطلبه العجائز ... ثم خاطبتهن قائلا :

ــ اننا لم نغب عن هنا ، اليس كذلك ؟.. كنا معكم طول الوقت ، اليس كذلك ؟

فجاء ردهن سريعا وقلن :

ــ هذا صحيح ايها الفتيان !.. انتم لم تغيبوا عن انظارنا ثانيا !.. بارك الله فيكم ايها الفتيان !..

ذلك وان كان هذا التأكيد لا يهمنا كثيرا ..

ثم انقضى نحو نصف ساعة قبلما ظهرت اية اشارة من ناحية رجال الشرطة ، ولم يكن القادمون اكثر من شرطيين اثنين في مطلع الشباب دخلا ووجه كل منهما يبدو شديد الحمرة تحت خوذليهما حاسيتين .. وقال احدهما :

ـ انتم يا جماعة : هل سمعتم اى شيء عن الحوادث التى وقعت فى محل سلوس هذه الليلة ؟..

فعلت ببراءة :

ـ نحن ؟! .. عجبا !.. وماذا حدث ؟..

فرد الشرطى الفنى قائلا :

ـ حادث سرقة وعنف ... وحالتان نقلتا الى المستشفى .. اين كنتم مع مجموعتكم هذه الليلة ؟..

فاجبت قائلا :

ـ انا لا اقبل هذه اللهجة الشاذة المنكرة !.. ولا اهتم كثيرا بهذه التلميحات الكريهة !.. كلامكم يدل على اسراف فى سوء الظن !..

وهنا بادرت العجائز برفع عقيرتهن صائحات :

ـ انهم كانوا معنا طول الليلة يافتيان !.. بارك الله فيهم !.. لم نر فى الشباب خيرا منهم فى الطيبة والكرم !.. كانوا معنا فعلا طول الوقت !.. ولم نر احدا منهم تحرك شبرا واحدا !..

فقال الشرطى الاخر :

ـ كنا نستفهم فقط .. علينا واجب نقوم به مثل اى انسان آخر ...

غير انهما صوبا الينا نظرات تحذيرية قبيحة قبل انصرافهما .. ومع ذلك شيعناهما بموسيقى الشفاه وهما خارجان !..

اما انا فلم املك من الشعور بشيء من الاحباط لسير الامور فى هذه الايام .. فلم يجد شيء يمكن ان نستميت من اجله .. ومع ذلك فقد كانت الليلة لاتزال ممتدة امامنا ..

الفصـــل الثـانـــي

عندما خرجنا من بار دوق نيويورك وقع نظرنا على شخص مخمور وقف لدى الحائط فى مجال الضوء المنبعث من نافذة المشرب الاخيرة وهو فى حالة يرثى لها من السكر ورفع العقيرة بالغناء الصخاب المشوب بالسباب والتجشؤ المقذى .. كان ثمة شىء واحد لا اطيق احتماله : وهو ان ابصر رجلا متقدما فى السن يتمرغ فى السكر بجدارة ، خصوصا اذا كان مظهره يدل على منزلة اجتماعية متوسطة مثل هذا الرجل .. لقد كان ملتصقا بالحائط وملابسه فى شر حال من التشعث والتبقع والتلطخ بالاقذار والوحل .. وهكذا امسكنا بتلابيبه واتحفناه بمجموعة طيبة من اللكمات واللطمات ، ولكنه مضى فى غنائه مرددا هذه الكلمات :

وسوف اعود الى حبيبتى يا محبوبتى

اذا حبيبتى هجرتنى يوما من الايام

غير أنه عندما لطمه ديم مرات على فمه المخمور كف عن الغناء وانقلب الى الصياح قائلا :

ــ استمروا !.. اضربونى يا اولاد الزنا يا جبناء !.. لا اريد ان اعيش بأى حال ، ليس فى هذه الدنيا العفنة !..

وعندئذ طلبت من ديم ان يكف عن لطماته ، اذ كان يثير طرافتى احيانا أن أستمع الى مايقوله بعض هؤلاء السادة المعوجين عن الحياة وعن الدنيا !.. وقلت له :

ــ وما هو وجه العيب فى هذه الدنيا ؟..

فهتف قائلا :

ــ هى دنيا عفنة لانها تسمح للاصغر سنا بالتطاول على الاكبر سنا كما فعلتم ، ولم يعد هناك قانون ولا نظام ولا شىء من هذا القبيل !..

وكان التجشؤ المتواصل يقطع عليه الاسترسال على هذا النحو ثم فجأة علا صياحه قائلا وهو يلوح بذراعيه :

ــ ... لم تبق الدنيا هى الدنيا لمن هو مسن ، ومعنى هذا

انني لا اخافكم قدر قلامة ظفر ايها الاولاد المتاكيد ، لانني بلغت من السكر حدا لا اشعر معه بالالم اذا ضربتموني ، واذا قتلتموني !.. ساكون مسرورا اذا جاء موتي على ايديكم !..

لقد تبادلنا الابتسام والغمز ، وما لبث أن استرسل في صياحه قائلا :

ـ ... ثم اية دنيا هي هذه الدنيا ؟!.. رجال فيها يصعدون الى القمر ، ورجال يدورون حول الارض وكانهم ذباب ضئيل حول مصباح ، وليس هناك اهتمام بالقوانين التي تحكم الارض وتقر النظام !.. والنتيجة أن لكم ان تفعلوا اسوأ ما عندكم ، يا قطاع الطرق الجبناء الاوساخ !..

وبعدها اسمعنا موسيقى الشفتين كما فعلنا نحن للشرطيين الفتيين في المشرب .. ومرة اخرى انشأ يتغنى بهذا الكلام :

يا وطني العزيز المحبوب قد حاربت من اجلك

ومهدت لك طريق السلام والنصر

وفي النهاية اشبعناه ضربا ووجوهنا طافحة بالابتسام ، بيد انه لم ينقطع عن الغناء ... فأعطيناه (مقصا) حتى هوى على الارض منبطحا يتدفق من فيه سيل من الجعة حتى اثار تقززنا ، فعاجلناه برفسة قدم من كل واحد منا ، وبعدها لم يخرج من فمه القذر غناء ولا قيء ، بل دم نازف .. ثم تابعنا طريقنا غير عابئين بشيء ..

وعلى مسافة قليلة من محطة المولد الكهربائي كان التقاؤنا بالفتى بيليبوي وافراد عصابته الخمسة .. ففي تلك الايام ، يا اخواني ، كانت الزمرة تتالف على الاكثر من اربعة أو خمسة أفراد ؛ وهي تماثل في هذا جماعات استيقاف السيارات العابرة للركوب ، التي تبلغ اربعة افراد في المعتاد للجماعة الواحدة ، وكان عدد ستة افراد هو الحد الاقصى ... واحيانا كانت العصابات تتالف من هذا العدد الاقصى اذا أريد ان تخرج في حروبها الليلية ، وان كانت تفضل ان يكون التجوال الليلي باعداد صغيرة ..

وفي الحق ان بيليبوي هذا كان بطبيعته يصيبني بالغثيان كلما ابصرت وجهه السمين المنفرج الفم ، وشممت رائحته الزنخة التي تشبه رائحة زيت القلي المغلي مرات ومرات ، حتى وان كان مرتديا احسن ملابسه كما كان الان .. وهم قد شاهدونا كما شاهدناهم في نفس الوقت ، وبدا كأن كل فريق يراقب الاخر بهدوء مؤقت .. فانها في الحقيقة لن تكون معركة بالايدي والارجل ، بل بالمطاوي

والاسلحة البيضاء الاخرى ، مثل (قرن الغزال) الذى احمله على الدوام ..

وقد توقف بيليبوى ورفاقه عما كانوا بسبيله ، وهو التمهيد لشىء مع صبية باكية بين ايديهم لا تجاوز سنها عشر سنوات ، وكانت تصرخ وتستغيث ، ولكن كانت لاتزال بملابسها وقد أمسك بيليبوى باحدى يديها وامسك مساعده الاول ليو بيدها الثانية .. ولما راونا نادمين تركوا هذه الصبية الصغيرة لعلمهم انه يوجد الكثير غيرها فى المنطقة السكنية القريبة ، فركضت الصبية مبتعدة وساقاها النحيلتان البيضاوان تبرقان فى الظلام مرددة تأوهاتها ...

وعندئذ قلت وانا ابتسم ابتسامة عريضة متوددة :

ـ اهلا بيليبوى النتن ؟! .. كيف حالك ايها البرميل المتفخ بزيت القلى الرخيص الزنخ ؟.. تقدم وخذ لك ضربة فى سواتك ايها المخنث !..

وعلى الاثر بدأنا المعركة ...

كنا اربعة وهم ستة كما نوهت من قبل .. غير ان ديم المتبلد كان رغم كل غباوته ندا لثلاثة منهم فى الاندفاع المجنون والقتال الوحشى ... فقد كان يحمل سلسلة طويلة سميكة ملتفة حول وسطه بقدر لفتين ، وقد سارع بطوحها فى عيون الاخرين ... وكان بيتر وجورجى مزودين بمطواتين كبيرتين حادتين ... اما انا فكنت مسلحا (بقرن غزال) وهى مطواة مقوسة مرهفة باترة ، كنت الوح بها بطريقة فنية تجعل لها بريقا خاطفا يزيغ الابصار ...

هكذا رحنا نتبادل الضرب والطعن فى الظلام وقد بدا القمر بما عليه من رجال يبزغ اذ ذاك ، والنجوم تلمع كما لو كانت نصالا تريد الاشتراك فى المعمعة .. وقد استطعت بمطواتى ان اشق ملابس احد رفاق بيليبوى شقا طوليا بديعا دون ان الامس بدنه تحت الملابس ... وفى الكر والفر الفى هذا الفتى نفسه عارى البطن والسواة مثل حبة بازلاء انشق عنها غلافها ، وفى غمرة ارتباكه وصراخه التفت حول عينيه سلسلة ديم الافعوانية فزادته تخبطا وصراخا ... وسرعان ما جعلنا مساعد بيليبوى رقم واحد منطرحا على الارض تحت الاقدام وقد اعمت بصره سلسلة ديم اللدربعة وجعلته يزحف على الارض عاويا مثل حيوان طريد ، وبعد رفسة واحدة على راسه غاب عن الوجود ....

ومن اربعتنا خرج ديم من المعركة كالعادة وهو أسوانا مشهدا ، اعني أن وجهه قد تخضب بالدم وملابسه اتسخت وتشعثت بصورة بالغة . اما باقي زمرتنا فقد ظلت متمالكة الجأش لم يمسها سوء .. لكن كان هدفي الآن هو بيليبوى آلسمين العفن ، وهكذا رحت أدور حوله بمطواتي الفتاكة متراقصا مراوغا حتى لكأني حلاق على ظهر سفينة في بحر متلاطم ؛ محاولا ان انال منه بقطوع نافذة على وجهه الدهني المليء .. وكان بيليبوى مسلحا ايضا بمطواة طويلة ، بيد ان بطء حركاته وثقل وزنه حالا دون أن ينال مني شيئا ، وهكذا كانت بهجتي لا حد لها عندما شققت خديه واحدا تلو الآخر بحركات خاطفة أسالت دمه على الجانبين ، وان بدا انه لم يشعر بشيء ومضى في هجومه نحوى بحركات دب ثقيل ...

في هذه اللحظات سمعنا (سرينة) سيارة الشرطة تلعلع في السكون ؛ وشاهدنا رءوس افراد القوة تطل من النوافذ وهم على تمام الاهبة .. ولا شك أن تلك الصبية الباكية قد استنجدت بهم عن طريق التليفون العمومي القائم خلف محطة توليد الكهرباء ... وهنا قلت لغريمي :

ــ سوف أنالك قريبا يا بيليبوى النتن ، وعندها سأستأصل سوآتك !..

وسرعان ما اخذوا يركضون هاربين ، الا مساعد بيليبوى رقم واحد وهو ليو الذى كان ممددا على الارض غائبا عن الوعي ؛ متجهين شمالا شطر النهر ... أما نحن فقد سلكنا الجهة العكسية ... وبالالتفاف حول الناصية وجدنا حارة مظلمة وخالية ومفتوحة من الناحيتين ، فتوقفنا فيها لكي نستريح ونحن نلهث الى أن تمالكنا والتقطنا انفاسنا ...

كانت هذه المنطقة محطة استقبال البث التليفزيوني بالقمر الصناعي كما بدا من الاضواء الزرقاء التي كانت تبرق فيما بين مباني المحطة الارضية ، ومعنى هذا يا اخواني انهم كانوا يبثون هذه الليلة نفس البرنامج العالمي اما لمغني زنجي او شخصية كوميدية مشهورة لكي يستمتع بالارسال كل من تحلو له المشاهدة من ابناء الطبقات القادرة يا اخواني ، ولله في خلقه شئون !.. ومهما يكن فقد توقفنا هاهنا نلهث ، وانتظرنا الى ان سمعنا اصوات (السرينة) البوليسية تتجه شرقا ، فعلمنا اننا بخير الآن ... ولكن ديم المنكود ما برح

يتطلع الى القمر والنجوم والكواكب فاغر الفم مثل طفل لم يتهيأ له ان يشهد شيئا كهذا من قبل ، حتى لقد قال :
– ترى ماذا فى تلك الاجرام السماوية فى الاعالى ؟!..
فوكزته بشدة قائلا :
– هيا بنا يا اغبى الاغبياء ، ولا تشغل بالك بهذا !.. لابد ان فيها حياة مثل حياتنا على الارض ، وكائنات تتقاتل بالمطاوى مثلنا ايضا !.. اما الآن وما زال الليل ممتدا امامنا ، فلنواصل طريقنا ايها الاخوان !..
ابتسم الرفاق لهذا الكلام ، بيد ان ديم نظر الى بجد ، ثم عاد يتطلع الى النجوم والقمر ... ومهما يكن فقد اتجهنا الى نهاية الحارة وضوء البث العالى الازرق يتراءى عن الجانبين ... ان ماكنا نحتاجه الآن هو سيارة ، وهكذا انعطفنا يسارا بعد اجتياز الحارة ، حيث عرفنا فى الحال اننا فى ميدان بريستلى بعد ان وقعت انظارنا على التمثال البرونزى الضخم لذلك الشاعر الذى رفع شفته العليا كقرد وانغرس غليون فى فمه العتيق ... وبعد مسيرة قليلة شمالا وصلنا الى موقع السينما المكشوفة الضخمة التى بدات تتقادم وتتآكل لقلة من يرتادونها سوى امثالى ورفاقى فى بعض المناوشات او المطارحات الغرامية فى الظلام ... وشاهدنا على اللوحة الاعلانية القائمة امام الواجهة والملوثة بالبقع اعلانات عن افلام رعاة البقر المنادة التى ينتصر فيها افراد الامن الامريكيون على رجال العصابات الى آخر هذا الكلام الفارغ ... وكانت السيارات المرابطة فى الموقف ليست كلها جديدة ، ولكن كانت بينها سيارة من طراز (دورانجو ٩٥) الكثر جدة وبدا لى انها اكثر ملاءمة لنا ... وكان مع جورجى مجموعة مفاتيح للطوارىء ، وهكذا دلفنا الى داخل السيارة دون ... . فجلس ديم وبيتر فى المقعد الخلفى وهما ينفثان دخان السجائر الفاخرة بعظمة ، بينما توليت انا ادارة المحرك ، وخرجت بها من الموقف وانطلقنا دون ان يفطن الينا احد ...
وقد اخذنا نتسكع فيما يعرف باطراف المدينة بعض الوقت ، ملقين الفزع فى قلوب كبار السن من الجنسين وهم يعبرون الطريق ومطاردين القطط ونحو ذلك ... ثم اتجهنا الى الجانب الغربى حيث تخف حركة المرور واطلقت العنان للسيارة التى ذهبت تنهب الطريق نهبا ... وبعد فترة لم تطل لاحت لنا اشجار الشتاء والظلام ،

وريف مظلم داست السيارة فى جانب منه كاننا كشر عن انيابه وعلا صراخه فى ضوء مصابيح السيارة الامامية مما جعل ديم يضحك مقهقها فى مقعد السيارة الخلفى ... وبعدها لمحنا فتى مع فتاته يتطارحان الهوى فى ظل شجرة ، فتوقفنا برهة نهلل لهما ، ثم استأنفنا مسيرتنا فجاة على قيد شعرات منهما حتى علا صراخهما ، وعلى الاثر تابعنا طريقنا !..

كان ما نهدف اليه الآن هو القيام بزيارة مباغتة ... فهذه هى المغامرة الكبرى التى نطلق عليها وصف (قمة العنف) ... وقد وصلنا اخيرا الى ما بدا انه قرية وعند اطرافها فيللا صغيرة تقوم امامها حديقة اصغر ... كان القمر قد ارتقى الآن كبد السماء حتى تهيأ لنا ان نبصر الفيللا بوضوح وان اوقف السيارة على بعد كاف منها ورفاقى يتضاحكون من الترقب والتشوف ... فنزلت من السيارة آمرا رفاقى بالكف عن الضحك والتزام الجد ، ثم فتحت بوابة الحديقة الصغيرة وتقدمت الى الباب الامامى ... وبرفق وتلطف طرقت الباب ، فلم يجب احد ... تكررت الطرق ، وفى هذه المرة سمعت صوت احد قادم اعقبه ازاحة مزلاج ثم فتح الباب قدر بوصة أو نحوها ، وسمعت صوتا نسائيا فى مقتبل العمر يقول :

ــ نعم ؟.. من هنا ؟..

فقلت بلهجة مهذبة رقيقة :

ــ معذرة يا سيدتى ... آسف كل الاسف للازعاج ، لكننى كنت مع صاحب لى نتمشى ، ولكن صاحبى اصيب بنوبة مفاجئة وهو الآن ممدد فى الطريق يتلوى من الالم معرضا للموت ... فهلا تكرمت وسمحت باستعمال التليفون لطلب سيارة اسعاف ؟..

فقالت السيدة :

ــ ليس عندنا تليفون بكل اسف ... لابد لك ان تطرق مكانا آخر ...

ومن داخل الفيللا سرى الى سمعى صوت آلة كاتبة تدق دقاتها المعهودة ، ثم توقف الدق وسمعت صوت رجل يقول :

ــ من القادم يا عزيزتى ؟..

وعندئذ قلت للسيدة :

ــ هل تسمح انسانيتك بكوب ماء لصاحبى ؟.. انه فى حالة اغماء من تأثير النوبة !..

بدا كان السيدة فى حالة تردد ، وما لبثت ان قالت :
ــ انتظر ...
ثم غابت . ثما هبط رفاقى الثلاثة من السيارة لائذين بالصمت والسكون واقتربوا خفاف الوطء وهم يلبسون أقنعتهم ، فلبست قناعى بالمثل ، ومددت يدى المدربة لرفع السلسلة التى كانت تشد الباب ، اذ كانت لهجتى المهذبة الرقيقة قد خدعت السيدة فلم تغلق الباب وهو ما كان يجب أن تفعله ازاء طارقى الليل الاغراب ...
وفى لحظات خاطفة اقتحمنا الباب دفعة واحدة وديم كعادته يتراقص بذوائب منفوها بالفاظه النابية .. واتجهنا مباشرة الى الغرفة المضاءة ، حيث وقفت تلك المراة فى شبه جزع ، وكانت مليحة فى سن الشباب بارزة النهدين ، ومعها ذلك الرجل الذى بدا انه زوجها ، وكان فى مثل سنها وقد لبس نظارة ذات اطار ــ عظمى ، وفوق منضدة عن كثب آلة كاتبة واوراق مكتوبة فرغ من كتابتها توا فيما يظهر ... فهذا اذن شخص آخر متنور من أرباب الكتب مثل ذلك الشخص الذى تلاعبنا به منذ ساعات ؛ لكن صاحبنا الحالى كاتب لا قارىء !.. ومهما يكن فانه قال :
ــ ما هذا ؟! .. من تكونون ؟! .. كيف تجراتم على دخول بيتى بغير استئذان ؟ ! .
وفى كلامه هذا كان راعش الصوت مرتعد اليدين ... وهكذا قلت له :
ــ لا تخف ابدا !.. اذا كان فى قلبك اى خوف يا اخى ، فابعده عن خاطرك !.
وخرج بينو وجورجى للبحث عن المطبخ ، بينما توقف ديم انتظارا للأوامر وقد وقف الى جانبى منفرج الفم ...
ثم تناولت بعض الاوراق المكتوبة وقلت للرجل :
ــ ما هذا اذن ؟..
فقال الرجل ذو النظارة محتدما :
ــ هذا هو ما اريد ان اعرفه !.. ما هذا ، وماذا تريدون ؟..
اخرجوا حالا قبل ان القى بكم الى الخارج !.
وما أن سمع ديم هذا الكلام وهو بقناع الشاعر شيللى حتى ضج بالضحك والقهقهة عاليا فكان مثل حيوان صاخب ... وقلت للرجل :

ـ هذا كتاب اری انك نكته ... اننی کنت دائما اكن الاعجاب الشديد لاولئك الذين يقدرون على تاليف الكتب !..

ثم نظرت الى الصفحة العلوية ؛ وقرات فيها عنوان الكتاب هكذا : « برتقالة بقلب ساعة » ... وقلت هذا عنوان جميل ... من سمع فی حیاته عن برتقالة بهذا الوصف ؟! .. ثم اخذت اقرا عبارات من الكتاب بصوت مسموع وبلهجة خطابية « ... ان محاولة ان يفرض على الانسان ـ ذلك المخلوق المتنامي القادر على الاجداء والابداع ـ قوانين واحوال لا تلائم سوى الكائن الالى ، بقصد ان تتقاطر منه العصارة الحلوة ـ اقول اننی فی مواجهة هذه المحاولة لأشهر قلمی سيفا مشرعا » ...

... فما كان من ديم وهو يسمع هذا الا ان ارسل من شفتيه موسيقاه المنادة ؛ ولم يكن امامی الا ان ابتسم ... وقد اسرعت بتمزيق الاوراق وبعثرة القصاصات على الارض ، فجن جنون الرجل . وهجم نحوی وهو يشد على اسنانه ويلوح باظافره كالمخالب .. وهكذا جاء دور ديم الذى كان هجوم الرجل بمثابة اشارة له . فانقض عليه بعاجله بلكمات متلاحقة على وجهه يمينا ويسارا حتى تغطى بالدم الاحمر القانی ، يا اخوانی ، واخذ يتساقط على الارض ملونا السجادة النظيفة وقصاصات الاوراق التی كنت لا ازال اعمل فيها تمزيقا .. وخلال هذا كله كانت الزوجة المحبة الوفية واقفة كتمثال بجانب المدفاة ، ثم بدات الصراخ وكانما ارادت ان تتزامن موسيقى صراخها مع عملية ديم ... وبعد برهة عاد بيتر وجورجى من المطبخ وهما يقضمان ويمضغان وقد حمل بيتر فی يديه رغيفا محشوا وزجاجة بيرة نزع غطاؤها توا والزبد يفور منها ، وحمل جورجى شطائر وبعض الكعك والحلوى ، وكان شاهدا المعمعة الدائرة حتى انبعثت قهقهتهما عاليا واخذ فتات مضغهما يتناثر على الارض ... والواقع اننی لم استطب هذا وبدا فی نظری مجافيا للأصول : وهكذا قلت لهما :

ـ كفا عن الاكل !.. لم اعط اذنا بهذا !.. امسكا بهذا المخلوق حتى يمكنه ان يرى كل شیء ولا يهرب !..

فوضعا غنيمتهما على المنضدة بين الاوراق المتناثرة ثم اتجها نحو الكاتب الذى تحطمت نظارته ولكن كانت لا تزال مدلاة من وجهه بينما كان ديم العتيد ما فتیء يتراقص بحركاته البهلوانية مما جعل

رخارف التى كانت فوق رف المدفأة تهتز وتتارجح (فطوحتها
جميعا بحركة واحدة يا اخوانى حتى يبطل الاهتزاز والتارجح !) ؛
وان كان لم يكف عن كيل لطماته على وجه المؤلف مما جعله محتقنا
ونازفا بالدم مثل عصارة فاكهة منتفخة ... وعندئذ قلت له :

ــ كفى يا ديم ... الآن لنبدا المهمة الثانية ، بعون الشيطان !.

وهكذا اتجه الى المراة التى كانت ماضية فى الصراخ : فامسك يديها من الخلف ، بينما شقفت ملابسها فيما كان الباقون يهللون طربا ...

ومهما يكن من شناعتنا فاننى اعفى القارىء من تفصيلات ما حدث بعد ذلك ...

وفى النهاية جعلنا نحطم ما يمكن تحطيمه وتهشيمه من الآلة الكاتبة الى المصباح ، الى المقاعد ، وبال ديم على نار المدفأة حتى اطفاها ، بل هم أن يتبرز على السجادة ، لولا أننى صرخت فيهم قائلا :

ــ الى الخارج !.. الى الخارج !..

وفى هذه الاثناء كان المؤلف وزوجته شبه غائبين عن الوعى وهما متوجعان ، لكنهما سوف يبقيان على قيد الحياة ما فى ذلك شك ...

واخيرا عدنا الى السيارة وتركت لجورجى عملية القيادة بعد شعورى بشىء من الارهاق ، ورجعنا الى المدينة دائسين على كافة الكائنات الصغيرة الصارخة التى كانت فى طريقنا ...

الفصل الثالث

عدنا يا اخواني بالسيارة في اتجاه المدينة ، ولكن عند مشارفها فقط ، فيما يسمونه منطقة القناة الصناعية ، عندما راينا مؤشر البنزين يشير الى التناقص ، كما تناقصت حرارة نشاطنا ، وبدات السيارة (تسعل) ... لكن هذا لم يكن يدعو الى القلق ، بعد ان شاهدنا انوار محطة سكة حديدية قريبة ... غير ان المشكلة هي فيما اذا كنا نترك السيارة حتى يعثر عليها رجال الشرطة ؛ او ندفع بها الى مياه النهر للتخلص منها ... ثم استقر راينا على هذا الحل ، وهكذا ترجلنا منها نحن الاربعة تاركين (الفرامل) مرسلة ، واشتركنا في دفعها الى حافة المياه حيث انزلقت وتوارت على الاثر بعد ان شيعها جورجي بكلمة وداع واطلق ديم قهقهته الصاخبة البهلوانية ... وبعد هذا قصدنا الى المحطة لركوب القطار الى وسط المدينة في سفرة قصيرة دون توقف ... وقد اشترينا التذاكر بادب ووقفنا على الرصيف بهدوء ، وان ذهب ديم الى احد اكشاك الحلوى الآلية بما معه من نقود نثرية كثيرة للحصول على قطع من الشكولاتة ، مستعدا لتوزيعها على الفقراء والجوعى اذا لزم الامر ، وان لم يكن احد منهم من كثب ، الى ان جاء القطار هادرا فصعدنا اليه في الحال..

وبدا القطار شبه خال من الركاب ... ولتمضية فترة الثلاث دقائق التي تستغرقها الرحلة القصيرة فقد رحنا نعبث بالمقاعد الجلدية تمزيقا ونزعا لاحشائها ؛ واخذ ديم يطوح بسلسلته المعدنية حتى تشقق زجاج النوافذ وبدا يتلألأ في هواء الشتاء ، ومع ذلك كنا شاعرين بانهاك يا اخواني لما انفقنا من الطاقة ؛ باستثناء ديم الذي كان بسبب طبيعته الحيوانية مليئا بالابتهاج والحيوية ، وان بدا متسخا عارقا ، وهو ما كنت آخذه على ديم ...

وهبطنا من القطار في قلب المدينة وسرنا الهوينى عائدين الى بار اللبن كوررفا .. فلما دخلنا اليه وجدناه اكثر امتلاء عما وجدناه عندما انصرفنا منه قبل ذلك ... وكان المخلوق الذي صادفناه من قبل في البار غائبا في عالمه الاخير لا يزال موجودا ومستمرا في هذيانه ،

والغالب انه كان فى المرحلة الثالثة او الرابعة من سكوته ، اذ لاحت عليه تلك المسحة الشاحبة اللاانسانية وبدا فمه مثل قطعة طباشير مشقوقة ... والحقيقة انه لو اراد ان يبقى مثل هذا الوقت فى دنياه تلك ، لكان الاحرى به أن يجلس فى احدى المقاصير الخاصة الخلفية ، لا ان يبقى فى الصالة العامة ؛ تفاديا لتحرش احدهم به . وان كان ذلك من النادر لوجود بعض الماجورين الاشداء مختبئين فى اقصى البار لكي يبادروا بوقف أعمال الشغب ... ومهما يكن فان ديم انحشر بجانب هذا الشخص الغائب عن دنياه وداس بقوة على قدمه بحذائه الغليظ ، ولكن هذا الشخص يا اخوانى لم يحرك ساكنا !.

كان اغلب رواد المشرب من المراهقين الذين يطلق عليهم اسم (نادسات) ؛ يشربون اللبن والكوكا ويتعابثون ؛ ولكن كان هناك ايضا عدد قليل من الرواد الاكبر سنا ومقاما من الجنسين يتبادلون الضحك والحديث لدى المقصف ... وكان بامكانك ان تقدر من طريقة قص شعرهم وملابسهم انهم كانوا يقومون ببروفات فى استديوهات التليفزيون القريبة ... وكان للنساء بينهم تلك الوجوه المليئة بالحيوية والاشداق الكبيرة القانية الحمرة التى تكشف عن اسنان ضاحكة لا تحفل بأى شىء فى هذه الدنيا الشريرة !..

وما لبث (الاستيريو) ان دار عاليا متجاوبا ، وكانت الاسطوانة بعنوان (فقط يوم بعد يوم) للمغنى جونى زيفاجو ... وفى الفترة التى جاءت بين اسطوانة واسطوانة ، سمع فجاة غناء لم يدم سوى لحظات صدر من واحدة من النساء والمصاحبات للرجال لدى المقصف ، وكانما ارادت فقط ان تقدم نموذجا لشىء كانوا يناقشونه ... آواه يا اخوانى ، كان هذا المقطع الغنائى القصير فى سمعى مثل طائر عظيم حلق فجاة فى المشرب ، حتى شعرت بشعر جسدى يقف الى آخره وبالقشعريرة تسرى فيه سريانا ... ذلك لاننى اعرف ما غنته تلك المراة ، وهو مقطوعة من اوبرا (الفريدريك جينر فنستر)؛ وهى المقطوعة التى فاهت بها وهى تلفظ انفاسها مذبوحة ... هكذا رحت ارتعد ...

غير ان ديم ما ان سمع هذه المقطوعة حتى صفر استهزاء واعقب ذلك (بهوهوة) كلب ثم بقهقهة تهريجية .. وسرعان ما انتابنى شعور بالمحموم وغلا الدم فى عروقى لهذه البذاءة من جانب ديم ، حتى قلت له :

ـ يا قذر !.. يا ابن الزنا !.. يا عديم الادب !..

وشفعت هذا بميلة نحو جورجي الذى كان يجلس بينى وبين ديم وعاجلته بلكمه على فمه .. فنظر ديم بدهشة شديدة وقد نفر فاه ورفع يده لمسح الدم الذى بدأ ينزف وهو مذهول يقلب النظر بين الدم وبينى ... وما لبث أن قال لى :

ـ لأى سبب فعلت هذا ؟!.

ان ما فعلته لم يسترع نظر الكثيرين ، ومن شاهدوه لم يعبأوا بما حدث ... وكان (الاستيريو) قد استأنف دورانه بعزف جيتار تائه ... فرددت عليه قائلا :

ـ لأنك ابن زنا ولا اخلاق عندك ولا فكرة عن السلوك فى مكان عام يا أخ !..

فقال ديم وقد شفت نظراته عن الشر :

ـ لست أخا لك ولا اريد ان اكونه بعد الآن !.. وما كان يجب ان تفعل هذه الفعلة بأى حال !..

واخرج من جيبه منديلا كبيرا واخذ يجفف به الدم وهو ينظر اليه مقطبا وكان الدم ليس دمه وانما دم احد غيره ... ومن عجب أن تلك السيدة راحت تضحك الان مع اصحابها لدى المقصف دون ان تلاحظ سوقية ديم وبذاءته ... وهكذا كان ما فعله ديم هو اساءة لى ... وقلت :

ـ اذا كنت لا تحب هذا ولا تريد ذاك ، فانت تعرف ما الذى يجب ان تفعله !..

وعندئذ قال جورجي بحدة جعلتنى اتطلع اليه :

ـ لا بأس ... دعونا من الخصام !..

قلت :

ـ المسألة متروكة لديم.... لا يصح لديم ان يستمر فى تصرفاته كطفل صغير ...

وشفعت هذا بنظرة حادة الى جورجي ... فقال ديم وقد بدا نزيف الدم يتوقف :

ـ اى حق طبيعى له لكى يظن انه يمكنه اعطاء الاوامر ويلطمنى وقت ما يحب ؟! .. بامكانى ان الطم عينيه بالسلسلة اذا فعلها مرة ثانية !..

فقلت له وقد بدأ صوت (الاستيريو) يتماوج فيما بين الجدران والسقف :

ـ حاسب على كلامك !.. حاسب يا ديم !..
فقال ديم :
ـ سحقاً لهذا !.. ان مافعلته لا حق لك فيه !.. سوف
جهك بالسلسلة او المطواة أو قرن الغزال فى اى وقت تشاء ، ولن
منك تكرار ما فعلت !..
فرددت عليه بشراسة قائلا :
ـ لتكن المطواة فى اى وقت تحب !..
فقال بيتر :
ـ كفى الآن يا رفاق ... السنا أصحابا واحباء ؟! .. لا يليق
يتصرف الاصحاب هكذا !.. انظروا !.. هناك بعضهم ينظرون
ساخرين !.. لا يجب أن نتحامل على بعضنا !..
فقلت :
ـ ان على ديم ان يعرف وضعه ... مضبوط ؟.
فقال جورجى :
ـ مهلا ... ما هذا الذى يقال عن وضع أحد ؟.. هذه اول
اسمع فيها عن رفاق يلقنون درسا عن وضعهم !..
فقال بيتر :
ـ اذا أردت الحقيقة يا اليكس ، فما كان يجب أن توجه الى
تلك الكلمة التى لم يكن لها لزوم ... سأقولها لك مرة واحدة ،
واقولها بكل احترام : لو كنت انا الذى وجهت اليه لكمتك ، لكان
من محاسبتك !.. ولا كلام لى بعد ذلك ...
قال هذا ودس فمه فى كوب اللبن ...
شعرت بالغيظ فى دخيلتى ، غير أننى تمالكت ، وقلت بهدوء :
ـ لابد من وجود زعيم ... ولابد من النظام ... صح ؟..
لم يفه أحد منهم بكلمة ، ولا حتى ايماءة ... فزاد غيظى ،
حافظت على هدوئى الظاهرى ، ومضيت اقول :
ـ اننى كنت المسئول عن زعامة الفريق طول هذا الوقت ...
اننا جميعا اصحاب ، لكن لابد من وجود مسئول ... صح ؟..
ح ؟..
اوماوا جميعا برءوسهم ، ولكن فى حذر ... واخيرا قال ديم
يجفف آخر قطرات الدم :
ـ صح ... صح ... ربما كان هذا من تاثير المجهود الذى
...

لقد ادهشني ان رايت ديم هو الذى يتصرف حمدا وينحو الى المهادنة ... غير انه مضى يقول :

ــ ان الفراش هو الالزم والاسلم لنا الآن ... واذن فالافضل ان نذهب الآن الى بيوتنا ... صح ؟..

لقد زادت دهشتى فعلا ، بعد ان الزميلين الاخرين اوما مؤمنين على راى ديم ... فقلت :

ــ انت تفهم حكاية الضربة التى وجهتها الى فمك يا ديم ... كانت الموسيقى هى السبب ... اننى افقد صوابى عندما يتدخل اى شخص لمقاطعة سيدة تغنى !.. كما حدث الآن ...

فقال ديم :

ــ الافضل ان نذهب الى بيوتنا ونأخذ حظنا من النوم ... الفتيان الناشئون بحاجة الى طول النوم .. صح ؟..

وعندما اوما الاثنان الآخران ايجابا قلت :

ــ اظن ان الافضل هو ان نذهب الى بيوتنا الان كما اقترح ديم ... واذا لم نتقابل فى النهار يا اخوانى ؛ فان لقاءنا سيكون فى نفس الوقت ونفس المكان غدا ؟..

فقال جورجى :

ــ نعم ... ويمكن ان نتفق على هذا بسهولة ...

وعاد ديم يقول :

ــ ربما أتاخر بعض الوقت ، لكن مؤكد اننا سنلتقى فى نفس المكان ونفس الوقت تقريبا ...

وكان لا يزال يجفف فمه ، ولكن الدم قد توقف الآن ، وقد تابع كلامه قائلا :

ــ والمامول الا توجد هنا بعد الان اية واحدة تغنى !..

وشفع هذا بقهقته الصاخبة البهلوانية ، وبدا وكانه بلغ من كثافة الحس بحيث لا تؤثر فيه اية اهانة !..

وهكذا تفرقنا كل الى وجهته وانا اتجشا من الكوكا المبردة التى شربتها ... وقد حرصت على ان اجعل مطواتى (قرن الغزال) فى متناول يدى احتمالا لوجود احد من عصابة بيليبوى او غيرها من العصابات المتنافسة المقتتلة متربصا قرب محل اقامتى ...

كنت اقيم مع ابى وامى فى الوحدة رقم ١٨ ــ ايف بمساكن البلدية ، فيما بين (كنجسلى افينو) و (ويلسنواى) .. وقد

، الى الباب الرئيسي الكبير دون متاعب ، وان مررت بشاب .. ملقى على الارض يصرخ ويتوجع فى الوحل وهو مثخن بالجراح .. . وقع نظرى فى ضوء المصباح على بقع من الدماء متناثرة هنا .. وكأنها يا اخوانى توقيعات تركها ابطال المعارك الليلية المعهودة .. عن حسن بلائهم !..

ووقع بصرى ايضا قرب مدخل الوحدة السكنية على ملابس .. ممزقة كانت دليلا ولا شك على وقوع مناوشات غرامية .. وكثير من امثال ذلك يا اخوانى !.

وفى مدخل الوحدة مررت باللوحة التشكيلية البلدية المرسومة .. الحوائط والتى تمثل افرادا من الجنسين فى المصانع ـ رمزا .. العمل ـ مجردين من الملابس ابرازا للقوة ومتانة العضل ، .. اللوحة الوقورة اضيف الى مواطن معينة فيها باقلام الرصاص .. الاقلام الملونة ما جعلها تبدو فاحشة نابية عن دواعى الادب .. ناهيك بتلك العبارات البذيئة الدنسة التي سجلت بتلك الاقلام فى دوائر مرسومة على افواه الشخوص الوقورة المحتشمة !.

ومهما يكن فقد اتجهت الى المصعد ، لكن لم تكن ثمة حاجة .. على الزر لمعرفة ان كان يعمل أو لا يعمل ... فقد وجدت .. معدنية متينة امام ابواب المصعد هذه الليلة ، وهكذا كان .. عشرة ادوار على القدمين !.. اننى قطعتها وانا الهث .. بسبب تعبى البدنى وان لم يكن العقلى ... لقد كنت فى .. ماسة الى الموسيقى هذه الليلة ، وربما لان غناء تلك المراة .. اللبن قد اذكى مشاعرى ... والواقع اننى كنت اريد .. كبيرة بل ولبمة حافلة من الموسيقى قبل ان ادلف الى الفراش .. اخوانى !..

.. باب المسكن بمفتاحى الصغير الخاص . فكان كل شىء .. الداخل هادئا تماما بعد ان استغرق ابى وامى فى نومهما العميق ، .. لى امى عشائي على المائدة ـ وكان مؤلفا من بعض قطع من .. المعلب وشريحة خبز بالزبد وكوب من اللبن البارد ـ لبن بغير .. ولا مزيج من تلك الاخلاط الجهنمية التى عهدتها فى البار ، .. لقسوة هذا اللبن البرىء الآن يا اخوانى !.. ومع ذلك فقد .. واكلت متذمرا ، لشعورى بجوع شديد لم اشعر به من قبل .. ثم اخذت من دولاب المؤونة قطعة من الفطير بالفاكهة وحشوت

بي. فمي النهم .. وبعد أن نظفت اسناني دلفت الى غرفة نومي الصغيرة او (جحرى) وانا اتخفف من ملابسي ... هنا كان فراشي و (الاستيريو) الخاص بي ؛اعز ما امتلك فى هذه الدنيا ، مع مجموعة اسطواناتي فى دولابها المخصص لها ؛ الى جانب اعلام وشارات فوق الجدران ، هي تذكارات من مدرستي الاصلاحية منذ ان كنت فى السابعة من عمري ...

كانت مكبرات (الاستيريو) مرتبة حول الغرفة ، على السقف والحوائط والارض ، بمعنى انني وانا ممدد فى الفراش استمع الى الموسيقى ، كنت كما لو كانت الاوركسترا تسرى فى كياني من كل جانب ... وكان ما استهواني قبل غيره فى هذه الليلة هو اسطوانة كونشرتو الكمان الجديدة للأمريكي (جونرى بلاوتوس) ، تعزفها فرقة (الفيلهارمونيك) المعروفة باسم (اوديسبوس كوويريلوس) - وهكذا سحبت الاسطوانة من مكانها المرتب وادرت (الاستيريو) وانتظرت ...

ثم جاءت الموسيقى يا اخواني ... نشوة سماوية لا حدود لها !..

لقد تمددت على ظهرى ، مسندا راسى بين يدى فوق الوسادة ، مغمض العينين ؛ منفرج الشفتين انتشاء ، انصت الى اعذب النغم ... كان الجلال مجسما ، متجسدا ، متجاوبا فى كل موضع من فوقى ومن تحتى وعن يميني وشمالى ... كان عجيبة العجائب ... وبين دق الطبول وعزف الابواق ، سرى عزف الكمان متفردا فوق كافة الاوتار الاخرى ، حتى لاح لى كانه قفص من حرير التف حول فراشي .. وفى جو النشوة الفياضة هذا الذى حف بى من كل جانب ، درج ابى وامى ، يا اخوانى ، على عدم دق الحائط الفاصل بيني وبينهما للشكوى مما يصفونه بالضوضاء !.. فقد تعلما الدرس منى !.. وصارا يتناولان أقراصا منومة !.. واغلب الظن انهما تناولاها هذه الليلة قبل حضورى ، ادراكا منهما لمدى نشوتي بموسيقى الليل هذه ... ويا لتلك الصور والاخيلة التى كانت تتراءى لى وأنا ممدد هكذا أستمع مغمض العينين سابحا فى سماء النغم !.. أهي صور حوريات بلغن الاوج فى الفتنة والجمال والسحر؟! أهي مجامع عشاق ينهلون من ينابيع الهوى رحيق الحب عذبا مصفى آنا ، وفائرا جياشا آنة أخرى ؟.. لا أدرى ... ولكن الذى ادريه

ن بلغت الموسيقى ذروتها ثم اذنت ببلوغ ختامها ، حتى ند
عة جياشة ملتاعة جوى وضنى ...
بعدها ادرت اسطوانة موزار الرائعة المعروفة باسم (جوبيتر)
هي الاخرى مذكية لمشاعرى مثيرة للوعة والشجون ... ثم
لى ان اختتم باسطوانة اخيرة قبل العبور الى عالم النوم .
اسطوانة باخ المعروفة باسم (كونشيرتو براندنبرج) ... فا
وعتى باقل مما ابتعثته فى النفس سابقاتها ، ولكن كان النو
بى واسبق الى من كل رؤى اخرى معذبة للمشاعر مثيرة
...

الفصـــــل الــرابــــــع

فى صباح اليوم التالى استيقظت متاخرا فى الساعة الثامنة يا اخوانى ، ولما كنت لا زلت متعبا منهك القوى مشوش الفكر من اثر الليلة الماضية واجفانى مطبقة ملتصقة بغراء النوم ـ فقد بدا لى انه يمكن الا اذهب الى المدرسة وانال قسطا اوفر من الراحة فى الفراش مدى ساعة او اثنتين ، ثم ارتدى ملابسى بالراحة ، وربما آخذ حماما حسب ما يحلو لى ، وبعد ذلك اعد كوبا من الشاى القوى مع بعض (التوست) ، واخيرا افتح الراديو او اتصفح الجريدة بغاية التمهل والاسترخاء . وربما يبدو لى ايضا ، اذا صفا مزاجى أن اخرج واعرج على المدرسة العتيدة وانظر ما يلقون فيها من تلك الدروس العقيمة .. عندئذ سمعت يا اخوانى صوت ابى يزمجر ويخطو جيئة وذهابا ثم يخرج الى مصنع الصياغة الذى يعمل فيه ، وبعدها نادتنى امى بصوت كله احترام لشخصى كما اصبح دابها معى الآن وانا اكبر وازيد امتلاء ونوة :

ـ "الساعة الثامنة يا ولدى .. لن تحب ان تتاخر مرة اخرى !..

وهكذا رددت عليها من مكانى :

ـ اشعر بوجع فى راسى .. أتركينى فى حالى ، وساحاول ان اخفف منه بشىء من النوم . وبعدها ساتعافى وارى مايكون !..

فسمعتها تتنهد . وقالت :

ـ ساضع طعامك فى الفرن اذن ياولدى .. لابد لى من الخروج الان انا ايضا ..

وكانت على حق .. فهناك ذلك القانون الذى يحتم على كل من ليس طفلا أو لا يرعى طفلا ان يخرج للعمل .. وكانت أمى تعمل فى أحد محال (السوبرماركت) التابعة للبلدية لتعبئة الارفف بمعلبات الحساء والفاصوليا وما اليها .. وقد سمعتها بعد ذلك تضع طبقا فى فرن الغاز . ثم تلبس حذاءها وتاخذ معطفها من خلف الباب ، وقالت بعد ان تنهدت مرة اخرى :

ـ حان موعدى الان ياولدى .. انا خارجه ..

لكننى تظاهرت بالنوم ، وعلى الاثر غالبنى النوم فعلا ، وتراءى لى فى المنام حلم غريب مضحك ، بدا لى فيه رفيقى جورجى وقد كبر كثيرا وصار انسانا عصبى المزاج صعب الشكيمة يفرض النظام والطاعة حتى اصبح له اناس تحت امرته يخفون لتلبية اوامره ونواهيه ويؤدون له التحية العسكرية كما لو كانوا فى الجيش ، وانا فرد منهم فى الصف البى بنعم ياسيدى ولا ياسيدى ، ثم تبينت بوضوح أن جورجى يحمل نجوما على كتفيه مثل جنرال .. ثم انه جاء بزميلنا ديم العتيد يحمل كرباجا ، ولاح ديم وهو أوفر وجاهة وقد شاب شعره واختفت بعض اسنانه كما تجلى لى وهو يبتسم عندما رآنى ، وبعدئذ قال رفيقى جورجى وهو يشير الى : « ان هذا الرجل تعلوه القذارة من راسه الى قدمه » .. وكان صادقا .. ثم سمعتنى اصرخ : « لا تضرب !.. لا تضربوا يا اخوانى ! » .. واخذت اجرى .. وكنت اجرى فيما يشبه الدائرة ، وكان ديم يطاردنى وهو يفرقع بكرباجه ، وكنت فى خلال ذلك اسمع مع فرقعة الكرباج صوت جرس يرن عاليا ، وكان هذا مبعث ايلام لى ايضا ..

ثم صحوت من نومى على الاثر وقلبى يدق عنيفا ، واذا صوت جرس يرن حقيقة . وكان جرس باب مسكننا .. فتظاهرت بانه لا أحد فى البيت ، غير ان رنين الجرس لم ينقطع ، وفى اللحظة التالية سمعت صوتا يصيح من خلال الباب : « هيا قم ودع عنك هذا !.. اعرف انك فى الفراش !.. »

عرفت فى الحال صوت المتكلم .. كان صوت السيد (دلتويد) الذى يسمونه المشرف الاصلاحى المختص بمتابعتى .. فرددت على الاثر باننى قادم توا ، واسرعت بمغادرة الفراش وارتداء ملابسى ، وكانت فى الحق يا اخوانى (روبا) فاخرا من الحرير المزركش بصور مدائن ، و (شبشبا) من الصوف اللين ، وبعد أن مشطت شعرى الغزير فتحت الباب للسيد دلتويد .. فدخل هادرا بملابسه المشعثة وقبعته العتيقة ومعطفه الواقى من المطر ملوثا .. وقد ابتدرنى قائلا :

ـ آه يا اليكس ياولد !.. اننى قابلت امك !.. وقد اخبرتنى انك تشعر بألم فى مكان ما !.. ولهذا لم تذهب الى المدرسة ...

فأجبت بلهجتى المهذبة :

ـ هو الم لا يطاق في راسي ياسيدي .. واظن انه سيزول بعد الظهر ...

فقال دلتويد :

ـ او مؤكد في المساء !.. المساء هو الوقت الرائع ، اليس كذلك يا اليكس ياولد ؟.. اجلس .. اجلس .. اجلس !..

وكانما كان البيت بيته وانا ضيفه !..

ثم جلس في الكرسي (الهزاز) الذي يجلس فيه ابي وبدا يتارجح وكانما جاء لهذا الغرض ...

قلت له :

ـ فنجان شاي ياسيدي ؟..

ـ لا وقت عندي ..

ومضي يتارجح وهو يرمقني بنظراته اللامعة المعهودة تحت حواجب مقضبة .. وكرر كلماته قائلا :

ـ نعم لا وقت عندي ..

ـ فهل يتفضل سيدي بتعريفي عن دواعي تشريفي بهذه الزيارة الكريمة ؟.. اهناك شيء خاطيء ياسيدي ؟..

ـ خاطيء ؟..

قالها بسرعة وهو ينظر الي في دهاء متابعا تارجحه في الكرسي .. ثم وقع نظره علي اعلان منشور في الجريدة التي كانت فوق المائدة ، لفتاة جميلة باسمة الثغر بارزة النهـــدين تعلن عن نوع من خوخ بوغـــلاف اخذت منه قضمتين تاكيدا لجودته الفائقة .. ثم عاد بنظره الي قائلا :

ـ لماذا يخطر ببالك وجود شيء خاطيء ؟.. هل كنت تفعـــل شيئا ما كان يجب ان تفعله ؟.. نعم ؟..

فاجبت قائلا :

ـ هو مجرد اسلوب في الكلام ياسيدي ..

فراح دلتويد يقول :

ـ لا باس ... وانا اقول باسلوبي الكلامي ياصغيري اليكس : ان عليك ان تحاذر ، لانه في المرة القادمة ـ كما تعرف جيدا ـ لن تكون هناك مدرسة اصلاحية بعد ذلك .. في المرة القادمة ســيكون المكان المشبك بالقضبان ، ويكون بهذا ضياع لكل ما عملته من اجلك .. واذا لم يكن لديك تقدير لشخصك البشع ، فيجدر ، على الاقل ، ان يكون هناك بعض التقدير لشخصي : انا الذي جاهدت وعرقت

.. عنك !.. واقولها لك بصراحة بيني وبينك ، انها لنقطة سوداء
... تحسب لكل مشرف لا يثمر عمله الاصلاحي ، وتعد اعترافا
... عن كل فرد منكم ينتهي به الامر الى الجحر المشبك
... ! ..
فقلت له :
ـ لم افعل شيئا ياسيدي .. اعني ياسيدي ان رجال الشرطة
... حذون على شيئا ...
فقال دلتوبد باعياء تام وان كان مازال يتأرجح :
ـ دع عنك هذا الكلام الناعم الماكر عن حكاية الشرطة ..
... مجرد ان رجال الشرطة لم يقبضوا عليك مؤخرا ، كما تعرف
... ، انك لم تكن متورطا في عمل منحرف قبيح .. لقد حدث في
... الماضية بعض الاشتباكات ، اليس كذلك ؟.. كانت هناك
... اشتباكات بالاسلحة البيضاء والسلاسل الحادة وغير ذلك .. وقد
... سيارة الاسعاف زميلا لفتى سمين في ساعة متأخرة قرب محطة
... الكهرباء وهو مصاب بجروح كثيرة !.. وورد اسمك مقترنا
بالحادث !.. ونقل الى الخبر عن طريق القنوات المعروفة .. كما
وردت ايضا اسماء زملاء لك .. والظاهر انه حدثت قبائح متنوعة
في الليلة الماضية .. صحيح انه ليس بوسع اى احد ان يثبت شيئا
... شخص معين كما هي العادة ، لكنني احذرك يا صغيري اليكس ،
... صديقك المخلص على الدوام ، والوحيد في هذه البيئة المريضة
المنكودة ، الذي يريد انقاذك من نفسك !..
فقلت له :
ـ انني اقدر كل هذا ياسيدي ، بكل اخلاص ..
فقال في لون من السخرية :
ـ نعم تقدره ، اليس كذلك ؟.. عليك ان تحاذر ، وهذا كل
ما هناك .. اننا نعرف اكثر مما تظن ياصغيري اليكس !..
ثم تابع كلامه بصوت يشفّ عن شدة الكرب والمعاناة :
ـ ما الذي دهاكم جميعا ؟.. اننا ندرس المشكلة ، ولبثنا
ندرسها منذ مايقرب من قرن من الزمان !.. نعم !.. لكننا لا نتقدم
خطوة بكل دراساتنا !.. انت تنعم ببيت طيب هنا ، وابوين محبين
لك ، ولك عقلية ليست رديئة .. فهل هناك شيطان يتسلل الى
داخلك ؟..
فقلت :

ـ لا احد له اى مأخذ على ياسيدى .. اننى لبثت بعيدا عن ايدى الشرطة مدة طويلة ..

فتنهد السيد دلتويد قائلا :

ـ وهذا هو مايقلقنى .. فهى مدة كافية لاصلاحك .. وفى تقديرى ان هذا اوان الفصل فى امرك .. لذلك فاننى احذرك ياصغيرى اليكس لكى تبعد انفك الصغير الجميل عن التدنس فى الاوحال .. فهل ترانى اوضحت غرضى ؟..

فقلت :

ـ اوضحته ياسيدى كما لو كان بحيرة غير عكرة .. او كسماء صافية الزرقة فى عز الصيف .. ولك ياسيدى ان تعتمد على ..

وشفعت كلماتى هذه بأعذب ابتسامة ..

بيد انه بعد انصرافه والتفرغ لاعداد الشاى القوى الذى كنت اريده ، لم اتمالك من الابتسام لنفسى عندما فكرت فى هذا الذى يشغل بال السيد دلتويد المبجل وزملائه الافاضل !.. لا بأس اذن ؟.. اننى افعل القبيح ، ناهيك بالتضارب والتقاتل بالمدى وما اليها ، فضلا عن التهجم على الاعراض .. واذا تعرضت للمؤاخذة كانت العاقبة وخيمة لى .. ثم انهم كما يقولون لا يستطيعون ادارة دفة الحكم فى البلاد كما يجب اذا كان كل فرد فيها يفعل القبائح كما افعلها ليلا !.. ثم اننى اذا قبض على وامضيت ثلاثة اشهر فى هذا المحبس او ستة اخرى فى ذاك ، وبعدها كما ينذرنى السيد دلتويد بعطفه ورقته لا يكون امامى سوى حديقة الحيوان الجهنمية او السجن الكبير ذاته ! اذا كان كل هذا يا اخوانى ، فاننى اقول : « كلام جميل !.. لكن شيئا من الترفق ياسادتى الاكابر : اذ لا يمكننى وحسب ان اطيق تقييد حريتى .. ان كل نشاطى سوف ينحصر ـ فى المستقبل الممدود امامى بأحلامه الوردية قبلما اتعرض لضرب مطواة او دق عظام بسلسلة او فى سيارة مهشمة على الطريق السريع ـ هو فى الا أتعرض للاعتقال والمؤاخذة .. هذا كلام صريح .. ولكن وخزهم هذا او تشديد الوطأة بالاقدام فيما هو سبب افعال الفساد والسوء ، انما يثير ضحكى !.. فهم لايبحثون فيما هو سبب الصلاح ، واذن فعلام البحث فى سبب الفساد ؟.. اذا كان الناس صالحين فلانهم يحبون هذا ، وما يكون لى ان اتدخل فيما هو مناط ارتياحهم ، وهذا ، يجب ان ينطبق على الجانب الاخر !.. وانا من انصار هذا الجانب ... واكثر من هذا فان الفساد هو فساد الذات ، ذاتى او ذاتك فيما يعنى كلامنا وحده .. وفساد الذات هو

.. مرة التي ينشأ الانسان عليها . . لكن الفساد لانهم لا يبيحون الحرية .... .. واذن فان ما افعله انما افعله بدافع من ذاتي ؛ ولانني احب .. افعله !..

والان ، اعود الى هذا الصبح الشتوى الباسم ؛ فاراني اشرب .. اى القوى باللبن مع ملعقة بعد ملعقة من السكر ؛ واخرج . الفرن الافطار الذى اعدته لى امى المسكينة ، وكان بيضة مشوية .. كثير ، ولكنني اعددت (التوست) واكلته بالمربي مع البيضة ، متلمظا . وانا اتصفح الجريدة .. كانت اخبار الجريدة عن الحوادث المعتادة .. اعمال العنف والسطو على البنوك ، والاضرابات ؛ وكرة القدم ، . تهديدات لاعبيها التى تلقى الفزع فى نفوس الجماهير بالتوقف عن .. اللعب اذا لم ترفع اجورهم ، اولئك اللاعبون الخبثاء !.. كما كان فى .. الجريدة ايضا الكثير عن رحلات الفضاء . وعروض التليفزيون .. الموسيقية الكبيرة ، وجوائز الصابون المبشور المغرية القائمة على جمع .. قسائم الاعلانات ــ مما اثار ابتسامي !.. ثم كانت هناك مقالة طنانة .. عن (الشباب الحديث) ــ تعنيني طبعا ، مما جعلني اضحك سلفا ــ .. بقلم كاتب اصلع متحذلق ؛ ولكنني رحت اقرؤها باهتمام يا اخواني ، وانا استمتع بشرب الشاى متمهلا واقضم (التوست) بالمربى هانئا .. وكان هذا الكاتب اللوذعى يردد الكلام المعتاد ، عن انعدام التوعية من جانب الوالدين ، ونقص العدد الكافى من المعلمين الذين يتعين عليهم انتزاع الافكار الضارة من عقول النشء البرىء واجبارهم على الاستعطاف !.. كل هذا جعلني ابتسم تفكها ، ولكنه كان شيئا لطيفا دعاني الى متابعة القراءة لعلمي انني وامثالي نقدم مادة دسمة مجددة للاخبار والمقالات كل يوم !.. فيوما بعد يوم ياخواني كان ينشر شيء .. (الشباب الحديث) ، ولكن كان قصارى جهدهم هو نشر مقالات من هذا القبيل بقلم بعض ذوى الياقات المنشاة يؤكدون فيها ان هذه اراؤهم بعد الدرس والتمحيص ، وان هذا الفساد هو من عمل . الشيطان ، الذى ينخر طريقه الى داخل النفوس الغضة البريئة ، وان واجب الكبار ان يضطلعوا بمسئولياتهم الى جانب اهتمامهم بمشاكل الحروب والقنابل النووية وما اليها من هذا اللغو الذى لا ينقطع !.. وفى هذا ما يرفع التبعة والملام عنا نحن النشء البرىء ، وهى مقولة صحيحة ، صحيحة ، صحيحة !..

ومهما يكن فبعد ان امتلات معدتى البريئة بدات فى اخراج ملابسى للنهار من دولاب ملابسى الخاص وانا ادير الراديو .. كان هناك يا اخوانى عزف موسيقى وتربة (لكلوديوس بيردمان) وكنت اعرفه جيدا .. ورغم هذا لم اتمالك من الابتسام عندما فكرت فيما قراته ذات مرة فى احدى تلك المقالات عن (الشباب الحديث) ، من ان هذا الشباب الحديث يمكن ان ينصلح حاله اذا تيسر الاخذ باسلوب نشط لتشجيع (الفنون) .. لقد ورد فى ذلك المقال ان الموسيقى الراقية والشعر المجود يمكن ان يثمرا فى تهدئة وتهذيب مشاعر الشباب الحديث ، ويجعل الشباب الحديث اكثر تحضرا .. ياللسخرية !.. ان الموسيقى كانت دائمـــا تلهب حواسى وتثير غرائزى !..

وبعد أن ارتديت ملابسى (أعنى ملابس النهار ، وهى زى الطلبة المؤلف من البنطلون الازرق والسويتر) بالاضافة الى حرف الف رمزا لاسمى اليكس ، خطر لى أنه لايزال امامى وقت لكى اذهب الى (بوتيك الاسطوانات) وكانت جيوبى عامرة بالنقود للســؤال عن اسطوانة طال طلبها وانتظارها وهى اسطوانة بتهوفن رقم ٩ المعروفة باسم (كورال سمفونى) .. وهكذا خرجت لهذا الغرض ياخوانى ..

كان النهـار مختلفا تماما عن الليل .. ان الليل ملكى وملك رفاقى وكل من ينتمون الى طوائف (النادسات) او المراهقين ، اما النهار فهو لكل الناس العـــاديين ؛ وكان يكثر فيه رجال الشرطة متفرقين هنا وهناك طوال ساعات النهار .. وقد ركبت الاتوبيس من الناحية حتى وسط المدينة ، ثم عدت سيرا مســــافة قليلة الى (تايلور بليس) ، حيث يوجد (بوتيك الاسطوانات) الذى اخترته لمعاملاتى الكريمة ياخوانى .. وكان له اسم رنان هو (ميلوديا) ، وكان سريعا فى تلبية الطلبات اكثر الوقت وخاصة الاسطوانات الجديدة .. وعندما دخلت لم يكن به من الزبائن اكثر من صبيتين تلعقـــان (الأيس كريم) مع أننا فى صميم الشتاء البارد ، وبدا انهما تقلبان فى اسطوانات اغانى (البوب) الاكثر ذيوعا فى تلك الفترة ..

لم تكن الصبيتان تجاوزان سن العاشرة ، وبدا بوضوح انهمـا قررتا ، مثلى ، قضاء الفترة الصباحية بعيدا عن المدرسة .. ولك ان تدرك انهما نظرتا الى نفسيهما كما لو كانتا فى سن المراهقة فعلا ..

على أى حال فانني اتجهت الى (الكاونتر) مبتسما احلى ابتسامة ... لاندى العتيد خلفه (وهو نفسه دائما مؤدب ومقبل على زبائنه ، الرغم من انه كان اصلع شديد النحافة) .. وقد بادرني قائلا :

ـ اهلا .. انا اعرف طلبك .. عندى اخبار طيبة .. اخبار .. الاسطوانة وصلت !..

وبحركات موزونة من يديه كيدى قائد اوركسترا اتجه لاحضار طوانة .. وفى هذه اللحظة بدأت الصبيتان تتضاحكان كمن هما مثل سنهما ، فرمقتهما بنظرة باردة .. وعاد آندى سريعا وهو بالاسطوانة العتيدة التى يحمل غلافها الابيض صورة بتهوفن . قائلا لى :

ـ اليك هى !.. هل ندبرها للتجربة ؟..

لكننى كنت اريد اخذها معى للاستمتاع بها فى بيتى متلذذا بها وحدى ، وعندما اخرجت النقود من جيبى لدفع ثمن الاسطوانة سمعت احدى الصبيتين تقول :

ـ من تكون يافتى ؟.. الى هذا الحد تتطاول الى عالم كبار الموسيقيين ؟

وتضاحكتا مرة اخرى مهتزتين .. وبسرعة البرق خطرت لى فكرة طارئة ، فقلت بابتسامة ناصعة من اسنانى الحديثة التنظيف :

ـ وانتما ابنها الاختان الصغيرتان ، ما الذى ستاخذانه الى البيت لتصديع سمعكما به ؟.. اراهن انها مجرد اسطوانات اغانى (البوب) التافهة التى لا تشبع عشاق الموسيقى الحقيقية !.. تعاليا مع عمكما !.. واستمعا الى روائع النغم .. هذه دعوة منى لكما !..

وشفعت كلماتى بانحناءة .. فتضاحكتا من جديد ، وقالت احداهما :

ـ آه .. لكننا جائعتان جدا !..

وقالت الثانية :

ـ نعم .. لها أن تقول هذا بحق !..

وهكذا قلت لهما :

ـ كلا مع عمكما !.. اذكرا اسم المطعم !..

وهنا تصورنا انهما كالسيدات الوجيهات واخذتا تستعرضان اسماء المطاعم الفخمة مثل ريتز وبريستول وهيلتون و (رستورانتو

جرانتوركو) ، غير أنني وضعت حدا لهذا بقولي :
ـ اتبعا عمكما !..
وقدتهما الى مطعم (باستابارلور) القريب وتركتهما تحشوان فميهما بالاسباجتي والسجق وشرائح الموز بالكريم واكواب الشيكولاتة الساخنة ـ حتى كدت اتقزز يالخواني بهذا الخليط لله !.. وكانت هاتان افكارهما متماثلة ، ان كانت لهما أفكار ، وشعرهما مصبوغ بلون يميل الى الشقرة .. وعلى اى حال فانهما سوف تكبران هذا اليوم الذى سيكون حافلا بالنسبة اليهما ، لانني ساجعل منه يوما مشهودا !.. لن تذهبا الى المدرسة بقية اليوم ، لكن سيكون فيه تعليم حقا وصدقا ، والمعلم هو اليكس ذاته !.. وكان اسمهما مارتى وسونيتيا ، وهما اسمان على مسمى واحد : صبيانى !..
وقلت لهما اخيرا :
ـ كله تمام يامارتى وسونيتيا .. الان جاء الوقت للاستماع الى روائع الموسيقى ..
ولما خرجنا الى الشارع البارد بدا لهما الا تركبا الاتوبيس ، بل تستقلان التاكسى ياخوانى !.. وهكذا تركت لهما الحبل على الغارب ، وان تبسمت مخفيا شعورى ، وناديت سيارة تاكسى فى الساحة القريبة ، وقال لنا السائق وكانت له (سوالف) وملابسه مبقعة :
ـ لا تمزيق للمقاعد !.. انها مكسورة منذ فترة قصيرة !..
فاذهبت مخاوفه وطمانته ، واتجهت بنا السيارة شطر العمارة السكنية رقم ١٨ ـ الف .. وعند وصولنا ظلتا طول الصعود الى الدور الثامن وهما تلهثان وتتضاحكان .. وعندما قالتا اثر دخولنا انهما تشعران بالعطش الشديد اسرعت الى صندوق مشروباتى الثمين فى غرفتى وقدمت لهاتين الصبيتين اليافعتين كأسى ويسكى ممزوجتين بالصودا اللاذعة .. فجلستا على فراشى الذى لم يكن مرتبا واخذتا تشربانَ وهما تهزان السيقان ولا تكفان عن الضحك ، بينما ادرت لهما اسطوانات (البوب) التى تفضلانها من خلال (الاستيريو) ، وهما تزيدان مرحا وطربا .. وفى هذه الاثناء رحت إشجعهما على شرب كأسين اخرين ، فلم تمانعا .. وهكذا ما ان اتممت دورتين للاسطوانات حتى كانت الصبيتان فى شبه هستيريا وراحتا تتواثبان فوق فراشى ، فما بالك بوجودى فى الغرفة معهما !..

وبعد ذلك سحبت اسطوانة بتهوفن التاسعة من غلافها ووضعتها
(الاستيريو) .. بالتلك العذوبة التي سرت فى الغرفة على الاثر !..
الانغام الساحرة تنساب فى كافة انحاء الغرفة سقفا وجدرانا
... حتى شعرت بقمة النشوة وكاننى فى حلم .. وكانت الصبيتان
... الان حد السكر ، وتلاشى عندهما كل تحفظ !..
بعد يا اخوانى .. اننى فى غير حاجة الى بيان ما حدث بعد ذلك
ولكن ما ان ثابت الصبيتان الى الوعى حتى راحتـــا تصرخان
... بالوحش الدنس !.. وهكذا اخليت سبيلهما وخرجتا
... بالشكوى الى الشرطة !.. ولكن النوم كان اغلب لى من كل
..

الفصــــل الخـامـــس

ان ما حدث بعد ذلك هو انني صحوت متأخرا (قرب السابعة والنصف حسب ساعتي) ، لم يكن هذا فطنة مني ، كما تبينت بعد ذلك .. فلملك ترى أن كل شيء في هذه الدنيا القاسية مرتبط بعضه ببعض ، وان الشيء الواحد يفضي الى شيء آخر نعندما غلبني النوم كان (الاستيريو) دائرا ، ولكنه كان الان ساكتا .. واذن فلابد ان احدا اوقفه ، ولابد ان يكون (بابا) أو (ماما) ؛ وانهما قد فهما شيئا مما دار في البيت في غيبتهما .. فقد سمعت صوت الاطباق وهما يتناولان وجبتهما المكدودة بعد عمل اليوم في المصنع لابي ومتجر الطلبات لأمي .. يالهما من مسكينين جديرين بالعطف !.. على اى حال فقد لبست ردائي واطللت براسي كابن وحيد محب وقلت :

ـ سلاما !.. انا احسن كثيرا بعد راحة النهار .. وانا مستعد الان لعملي الليلي لكسب ماتيسر من النقود ..

ذلك لان هذا ماكانا يعتقدان انني افعله في تلك الايام !..

ثم اردفت على الاثر :

ـ هل لي نصيب عندكم ؟..

وكان يبدو انها فطيرة باردة سخنتها امي ولم تكن مشهية ، لكن كان لابد أن اقول ماقلته ..

وقد رمقني ابي بنظرة غير راضية ومستريبة ، غير انه لم يقل شيئا ، لعلمه انه لا يجسر على هذا ، ونظرت الى أمي بابتسامة يسيرة مكدودة ، انا فلذة كبدها ووحيدها !.. ومهما يكن فقد ذهبت الى الحمام بخطى راقصة واغتسلت جيدا من ادراني ، ثم عدت على الاثر الى (وكرى) لارتداء ملابس المساء .. وبعد تمشيط وتلميع لشعري الغزير جلست الى المائدة لتناول فطيرتي ..

ثم قال ابي :

ـ ليس معنى سؤالي يابني انني اريد التطفل ؛ لكن اين تذهب بالضبط للعمل في لياليك ؟..

فأجبت وانا امضغ :

اد .. هي غالبا اعمال متنوعة بسيطة ، هنا وهناك ..
... اليه نظرة شذراء مباشرة وكانني اطالبه بان يقتصر على
... ويتركني لما يعنيني) .. انا لا اطلب منك نقودا ، لا للملابس
... حة .. اليس كذلك ؟.. فلماذا السؤال ؟..
كان ابي اسرع الى الامتثال ، حتى قال :
- آسف ياولدي .. لكنني اقلق احيانا .. احيانا ارى احلاما
... ولك ان تضحك اذا شئت ، لكن الاحلام تنبيء عن الكثير
... الليلة الفائتة حلمت حلما كنت انت فيه ولم استرح اليه
..
...ملت وقد امسكت عن المضغ :
- بحق ؟
...قال ابي :
- كان الحلم واضحا .. رايتك فيه ممددا في الشارع مضروبا
من اولاد آخرين .. اولاد يشبهون اولئك الاولاد الذين اعتدت ان
... للتجول معهم قبل ارسالك الى المدرسة الاصلاحية في المرة
الا...
...بلت كلامه بالابتسام اذ الفيته يعتقد انني (انصلحت) فعلا !.
...كرت بدوري الحلم الذي رايته في منامي صباحا ، عن جورجي
... يصدر الى أوامره كجنرال ، وديم وهو يبتسم عن فم بلا أسنان
... بكرباجه .. لكن الاحلام تتحقق معكوسة كما قيل لي ذات
.. وهكذا قلت لابي :
- لا تقلق يا ابي على ولدك ووريثك الوحيد !.. ولا تخف
.. بامكانه أن يرعى نفسه ، تماما !.
غير أن أبي تابع كلامه قائلا :
- .. ثم انك ظهرت كما لو كنت عاجزا تتخبط في دمائك ولا
...طيع الدفاع عن نفسك !..
كان هذا الوصف بعكس الواقع ، فابتسمت لنفسي مرة أخرى ،
... اخرجت من جيوبي كل مامعي من نقود ورنتنها على مفرش المائدة
... ، قائلا :
- انظر يا ابي .. انها ليست بالكثير .. وهي ماكسبته في الليلة
... .. لكنها ربما تنفع في ثمن مشروب لك ولامي في البار
... ...
فقال :

ـ شكرا ياولدى .. لكننا لا نخرج كثيرا فى الوقت الحالى .. اننا لا نجسر على الخروج كثيرا والشوارع على ما هى عليه الان بسبب المعتدين الشبان ومن اليهم .. ومع ذلك شكرا لك .. اننى ساحضر لها زجاجة غدا !..

وجمع النقود التى كانت ثمرة الغصب والسلب والنهب ودسها فى جيوب بنطلونه ، فى حين كانت امى تغسل الاطباق فى المطبخ .. وانصرفت انا فى النهاية مودعا بابتسامات المحبة والاعزاز ..

وعندما هبطت الى قاع سلالم العمارة تملكتنى الدهشة .. بل أكثر من هذا فغرت فمى على اتساعه .. فقد جاء رفاقى لمقابلتى .. كانوا ينتظرون لدى حائط المدخل فى ظل تلك اللوحة التشكيلية الكبيرة المرسومة على الحائط رمزا لتكريم العمل والتى دنستها تلك الاضافات النابية بالقلم الرصاص كما ذكرت آنفا .. بل كان ديم نفسه ممسكا باصبع غليظ من الشحم الاسود يخط به عبارات بذيئة فى ثنايا اللوحة وهو يرسل قهقهته الحيوانية ، غير انه استدار عندما رحب بى جورجى وبيتر بالتحية المعهودة ، وصاح هو قائلا :

ـ ها هو قد وصل !.. مرحبا مرحبا !..

وشفع هذا برقصة من رقصاته .. بينما قال جورجى :

ـ اننا قلقنا .. جلسنا فى البار ننتظر ونشرب اللبن النارى ، فلم تحضر !.. وهكذا فكر بيتر انك ربما تكون قد تضايقت من شى ما ، ولذلك حضرنا الى مسكنك .. اليس هذا بالضبط يابيتر ؟..

فأجاب بيتر :

ـ تمام !.. تمام !..

فقلت فى حذر :

ـ شعرت بوجع فى راسى ولهذا اضطررت للنوم .. ولم اتمكن من الاستيقاظ فى الوقت الذى امرت ان استيقظ فيه .. وعلى اى حال فنحن هنا جميعا الان ، على استعداد لكل ما تقدمه لنا هذه الليلة .. مفهوم ؟..

فقال جورجى وكانه يقولها مشفقا :

ـ ناسف لحكاية وجع الرأس ، التى تستخدمها ربما اكثر من اللازم !.. ومثل ذلك اعطاء الامر والتنظيمات !. مؤكدا ان الوجع زال ؟.. ومؤكدا انك لن تكون اسعد بالرجوع الى الفراش ؟.

وعلى اثرها بدا عليهم الابتسام !..

فقلت :

مهلا .. لنضع كل شيء في النور .. ان هذه السخرية ،
ارا ، ان اسميها كذلك ، لا تليق بكم يا اصحابي الصغار !.. لعلكم
ا عفون من خلف ظهري لتدبير (مقالبكم) الصغيرة وما اليها !..
و.. ي زميلكم وزعيمكم فمؤكد ان من حقي ان اعرف ماذا يجرى ،
. .. والان ياديم ، مامعنى هذه الابتسامة الواسعة ، العريضة
، ـ تم حصان ، وما دلالتها ؟..
بعد رايته قد نفر ناه عن آخره في ضحكة ساخرة متحفزة ..
جورجي سارع يقول :
ـ لا باس .. لا لزوم للغمز واللمز يا ديم يا اخي .. هذا
مر .. ن الخطة الجديدة ..
فقلت :
ـ خطة جديدة ؟! ماهي حكاية الخطة الجديدة هذه ؟.. لاشك
... الان انه حدث كلام كثير من وراء ظهري النائم !.. اريد ان
اسمع اكثر واكثر !..
وشبكت يدي واستندت مسترخيا الى السور (الدرابزين)
الد .. ون لكي استمع ، وفي هذه الوقفة كنت اعلى منهم وهم وقوف
على الدرجة الثالثة للسلام ..
وقال بيتر :
ـ لا مساس باحد يا اليكس .. اننا اردنا ان تسير الامور
.. اكثر ديمقراطية ، لكن ليس كما تفعل انت اذ تامر بما يجب
ا عمله وما لا يجب ان نفعله !.
فقال جورجي :
ـ ليست المسالة مسالة مساس او غيره .. انما هي مسالة
.ون عنده افكار .. فما هي الافكار التي تطلع بها علينا ؟..
وركز نظرات جريئة على شخصي وهو يتابع كلامه :
ـ .. كلها افكار عن عمليات صغيرة .. عن اشياء مثل ماكان
. .لة الماضية .. اننا نكبر الان يا اخواني !..
فقلت دون ان اتحرك في مكاني :
ـ هل من مزيد ؟.. دعوني اسمع المزيد !..
فقال جورجي :
ـ لا باس .. ان كان لابد ان تعرف ، فلتعرف اذن .. اننا
.. ر هنا وهناك ، نكسر المحلات وغيرها ، ثم نخرج بنصيب قليل
. النقود لكل واحد منا .. وهناك (ويلي الانجليزي) في مقهى

(موزلمان) يقول انه على استعداد لتصريف اية مسروقات ذات قيمة اذا عرضت عليه نظير مبالغ كبيرة جدا ..

فقلت بهدوء ظاهري ولكنني كنت أغلى فى داخلى :

ـ كذا ؟! ومنذ متى كنتم تتصلون وتتشاورون مع (ويلى الانجليزى) ؟..

فاجاب جورجى :

ـ بين وقت وآخر .. اننى اجرى اتصالاتى شخصيا ، كما حدث يوم السبت الماضى .. بامكانى ان اعيش حياتى الخاصة يازميلى ، اليس كذلك ؟!..

والواقع يا اخوانى اننى لم اكترث بكل هذا ، وقلت له :

ـ وما الذى ستفعله بتلك المبالغ الكبيرة جدا التى تشير اليها ؟.. الا تنالون كل شىء تحتاجون اليه ؟.. اذا احتجتم الى سيارة ، تلتقطونها من الشارع !.. وان احتجتم الى نقود كثيرة ، تاخذون ماتريدون !.. فلماذا هذا التطلع المفاجىء الى الانتشار والتضخم على هذه الصورة ؟..

فقال جورجى :

ـ آه .. انك تفكر وتدبر احيانا مثل طفل صغير ..

وهنا نهنه ديم عاليا ، بينما تابع جورجى كلامه :

ـ فى هذه الليلة ننوى أن نقوم بعملية رجال ...

اذن فقد تحقق الحلم الذى رايته فى منامى ، فهذا هو جورجى (الجنرال) يقول ماذا يجب ان نفعل وماذا يجب الا نفعل .. وهذا هو ديم يدمدم مثل كلب برلدوج وان لم يظهر كرباجه بعد !.. غير اننى أدرت (اللعبة) بحرص وحذر ، اذ قلت باسما :

ـ جميل !.. الهمة تهبط على من ينتظر !.. اننى علمتك الكثير أيها الزميل الصغير .. الان قل لى ماذا عندك ياجورجى يا ولدى !..

فقال جورجى بابتسامة دهاء ومكر :

ـ آه .. البداية فى (اللبن المقوى) ، الن تقول هذا ؟.. شىء يشحذ حواسنا ، اليس كذلك ؟..

فقلت بمثل ابتسامته :

ـ انك قرات افكارى !.. كنت انوى أن اقترح عليكم مشرب كوروفا العتيد .. جميل !.. جميل !.. افتح الطريق امامنا يا صغيرى جورجى !..

انحنيت له امتثالا وانا ابتسم ؛ ولكنني كنت أفكر في هـذه .. وعندما سرنا في الشارع بدا لي ان الاسرع في التفكير والعمل ... والاغلب .. وحالفني الحظ بمرور سيارة سمعت من ... عزف المقطع الاخير من (كونشرتو) الكمان لبتهوفن ، فكان ... الهام لي فيما ينبغي أن أفعل .. فقلت بصوت عميق وانا ... مطواتي قرن الغزال الفتاكة بسرعة البرق :

ـ حسنا ياجورجي !.. استعد !..

فقال جورجي :

ـ هكذا ؟!..

ولكنه كان سريعا في سحب مطواته واخراج نصلها الحاد ، ... سرنا متواجهين ، فيما راح ديم يقول :

ـ آه !.. لا .. ليس هذا من الصواب !..

وهم ان يفك سلسلته الكبيرة من حيث كانت ملتفة حوله ، غير ان ... قال له وهو يضع يده عليه بحزم :

ـ دعهما !.. الاصح ان يكونا هكذا !..

وهكذا بدأت المناوشة بين جورجي وبين شخصي الضعيف ... حذرة بأسلوب القطط ، وكلانا يحاول أن يجد منفذا في دفاع ... صاحبه .. وفي غضون ذلك كان بعض المارة يسيرون عن كثب ويرون ... المشهد ، ولكنهم كانوا منصرفين الى ما يعنيهم ، وربما لأن هذا ... من مشاهد الشارع المألوفة .. وكنت لا أكف لحظة عن ادارة ... مطواتي في كل اتجاه ولكن بعيدا عن وجه جورجي أو عينيه ، مستهدفا ... بدء المسكة بمطواته .. وفعلا لم تمض لحظات حتى طارت المطواة من يده بحركة مفاجئة من جانبي وهوت على الارض في رنين ... مسموع ، بعد أن جرحت اصابعه بمطواتي ، وبدأ الدم ينزف منها ... ضوء مصباح الشارع .. وعلى الاثر عاجلت ديم قائلا له :

ـ الان ياديم ، هيا نسوي الموقف بيننا نحن الاثنين !..

فاسرع ديم بفك السلسلة من حول وسطه بخفة تدعو الى الاعجاب وهو يهمهم بأصوات حيوانية مبهمة .. والان فان الاسلوب الامثل لي في هذه المناوشة الجديدة هو أن التزم الانحناء مثل ضفدعة ... توائبها حماية لوجهي وعيني ، وهو مافعلته حقا يا اخواني ، الى ... درجة أن ديم بدا عليه شيء من الدهشة اذ كان يعتمد في هجومه على ضربات المتلاحقة على وجه خصمه .. ولابد ان اعترف ان ضرباته

جعلت تنهال على ظهرى حتى اوجعتنى ، ولكن الالم حفزنى على سرعة العمل والحركة ، وهكذا وجهت طعنتين واطئتين بالمطواة الى ساقه اليسرى مزقتنا ملابسه وارسلتنا نقطتين من الدم ؛ وشفعت هذا بضربة علوية غرست المطواة فى رسغ ديم حتى اسقط السلسلة واخذ ينهنه كطفل .. وبعدها راح يحاول امتصاص الدم من معصم يده وهو ينوح فى نفس الوقت .. ولما رايت الدم يسيل بغزارة بادرتهم قائلا :

ـ صح !!.. صح يارفاق !!

فرد بيتر قائلا :

ـ انا لم اقل اى شىء !.. انا لم اقل كلمة واحدة !.. انظر !.. ان ديم يسيل دمه حتى الموت !..

فقلت :

ـ مستحيل !.. الانسان لا يموت الا مرة واحدة .. ان ديم مات قبل ان يولد !.. سيتوقف هذا الدم حالا ..

ذلك لاننى لم اطعن يده فى موضع الشرايين الرئيسية .. ولم البث ان اخرجت منديلا من جيبى لتضميد يد ديم (المائت) الذى كان يتوجع ويولول . وفعلا توقف مسيل الدم كما قلت .. نعم يا اخوانى ؛ فهكذا عرفوا الان من هو السيد ،الزعيم ـ هؤلاء النعاج !..

ولم يطل الوقت لتهدئة روع هذين المجندين الجريحين فى بار دورق نيويورك ؛ ناهيك بما قدم لهما من كئوس البراندى المضاعفة (المشتراة من نقودهم الخاصة ، بعد ان اعطيت كل نقودى لوالدى) ثم زال الروع عنهما تماما بعد تنظيف الجروح بمنديل من ماء الدورق ..

وكانت النساء العجائز اللاتى قابلناهن فى المشرب فى ليلتنا الفائتة موجودات ؛ وقد بادرننا بعبارات : (شكرا لكم يافتيان !.. بارك الله فيكم ياأولاد !) .. ذلك وان كنا لم نكرر عملية الكرم السالفة .. غير ان بيتر قال لهن :

ـ ماذا تطلبن يابنات ؟..

وأمر لهن بمشروب اذ بدا ان جيوبه عامرة بالنقود ، وهكذا ارتفعت اصواتهن اكثر واكثر لاهجات بالشكر والدعاء ؛ مختتمات بقولهن : ابدا لن نخون عهدنا معكم ؛ ولن نشى بكم !..

وقلت لجورجي في النهاية :
ـ الان قد عدنا الى سابق عهدنا ، وتناسينا كل شيء .. ..!..
فقال جورجي :
ـ صح !.. صح !.. صح !..
غير ان ديم العتيد الذي كان في شبه ذهول قال وكانه كان ... مع شخص آخر وليس معي :
ـ كان بامكاني ان احطم (ابن الحرام) بسلسلتي ، لولا ان ... اعترض طريقي !..
قلت مرة اخرى :
ـ حسن يا جورجي يافتاي .. ما الذي تفكر فيه لنا ؟..
فرد جورجي قائلا :
ـ آه .. ليس الليلة .. ليس هذه الليلة من فضلكم !..
فقلت :
ـ انت شاب ذو كبير ، مثلنا كلنا .. نحن لسنا اطفالا ... أليس كذلك ياجورجي يافتاي ؟.. فما الذي تفكر فيه ..
وعاد ديم يقول :
ـ كان بامكاني ان افقأ عينيه بالسلسلة !..
ولم يلبث جورجي ان قال :
ـ كنت افكر في ذلك البيت .. البيت الذي امامه مصباحان ..
ـ الذي يحمل اسما مثل اسماء القصور .. واظنه (مانشن) ..
ـ ماذا تقصد ؟..
ـ ... هو البيت الذي تقيم فيه امراة غنية جدا مع قططها واشيائها الثمينة ..
ـ مثل ؟..
ـ مثل الذهب والفضيات والجواهر .. ان (ويلي الانجليزي) هو الذي قال هذا ..
فقلت وقد عرفت موضع المكان الذي اشار اليه :
ـ بديع جدا ياجورجي !.. فكرة طيبة .. وتستحق ان ... مدها فلنذهب في الحال !..

وفى خروجنا من المشرب قالت النسوة العجائز :

ـ لن نقول شيئا أيها الفتيان !.. كنتم هنا معنا طول الوقت !..

فقلت لهن :

ـ يااللبنات الطيبات !.. وسنعود بعد عشر دقائق لشراء مزيد لكن من المشروبات !..

وهكذا تقدمت رفاقى الثلاثه فى عملية كان فيها القضاء المبرم على !..

الفصـــــل الســـــادس

كانت تمتد شرقا بعد حانة دوق نيويورك سلسلة ابنية للمكاتب ... البلدية ، وبعدها عمارة سكنية باسم (فكتوريا فلا تبلوك) ، ... وراءها منطقة بيوت الاغنياء القديمة التى يقطنها عادة الضباط ... دون والارامل العجائز اللاتى تفتنين القطط .. وكانت هذه ... تضم حقا تحفا واشياء ثمينة تدر نقودا كثيرة فى اسواق ... والسياح ، مثل اللوحات الفنية والجواهر والتحف النادرة ... اليها ..

وهكذا وصلنا فى هدوء وبسر الى البيت المعروف باسم ...) ، الذى قامت امام بابه الخارجى كرتان مضيئتان فوق ... حديدين كانهما ديدبانان .. ولاح لنا ضوء فى نافذة احدى ... ات الطابق الارضى ، فتقدمنا اولا الى بقعة منعزلة للمراقبة من ... النافذة واستطلاع ما يدور بداخلها .. وكانت النافذة شبكة ... ان حديدية وكان البيت سجن ، ولكننا استطعنا ان نرى ونراقب ... حرى بكل وضوح ..

وقعت انظارنا على امراة عجوز ذات شعر اشيب ووجه كثير ... التجاعيد .. وكانت تصب من زجاجة فى يدها لبنا فى اطباق صغيرة ... ضعها على الارض ، وهو ما دلنا على وجود قطط كثيرة تموء ... جوانب فى الحجرة .. وكان بوسعنا ان نبصر تلك العجوز وهى ... تخاطب القطط وتزجرها فى نفس الوقت .. ولمحنا فى الحجرة صورا ... ة معلقة على الحوائط ، وساعات مزخرفة ثمينة ، وزهريات ... صينيات كثيرة غالية القيمة ، حتى ان جورجى همس قائلا :

ـ ياله من مال كثير نناله فى مقابل هذه الاشياء يا اخوانى !..
... (ويلى الانجليزى) ينتظرها بفارغ الصبر !..

فقال بيتر :

ـ وكيف الدخول ؟..

كان الرد من اختصاصى ، وقبل ان يفوه جورجى بكلمة قلت ... صوت خفيض :

ـ اول شيء هو ان نجرب الطريقة المعتادة .. الباب الامامي .. سأتقدم بكل ادب واقول ان احد اصحابي اصيب بنوبة اغماء في الشارع ، ويكون جورجي مستعدا للظهور عندما تفتح العجوز الباب .. ثم اطلب منها كوب ماء او الاتصال تليفونيا بطبيب .. ومسألة الدخول بعد ذلك سهلة ..

فقال جورجي :

ـ ربما لا تفتح الباب !..

ـ سوف نجرب ..

ثم قلت لبيتر وديم :

ـ انتما يا اخواني ستقفان على جانبي الباب .. صح ؟..

فاوما ايجابا في الظلام .. وفي الحال تقدمت بشجاعة الى الباب الامامي .. وضغطت على جرس الباب حتى سمعت الرنين يتردد في الردهة .. ولما لم اسمع مجيبا ادنيت فمي من فتحة صندوق البريد وناديت من خلالها بصوت مهذب :

ـ النجدة يا سيدتي من فضلك !.. لي صاحب اصيب بنوبة في الشارع ؛ فارجو تمكيني من الاتصال تليفونيا بطبيب !..

وبعد قليل رأيت ضوءا ينبعث في الردهة ، ثم سمعت وقع خطى المرأة العجوز في (الشبشب) وهي تقترب من الباب الامامي ؛ ولا ادري لماذا خطر لي انها جاءت تحمل قطتين كبيرتين تحت ابطيها .. واخيرا نادت بصوت قوي قائلة :

ـ ارجع !.. ارجع والا اطلقت النار !..

كاد جورجي يضحك عندما سمع هذا ، اما انا فقلت بلهجة الملهوف وبنفس النبرات المهذبة :

ـ ارجو المساعدة ياسيدتي !.. ان صاحبي في حالة سيئة جدا ..

فجاء ردها قائلة :

ـ اذهب !.. انا اعرف خدعكم القذرة ، تجعلونني افتح الباب ثم تبيعون اشياء لا اريدها .. قلت لك اذهب وابتعد ، والا اطلقت عليك قططي !..

في هذه اللحظة لاحت مني نظرة الى نافذة علوية فوق الباب الامامي ، ورأيت ان هذه وسيلة سريعة للتسلق والدخول من هذه النافذة ، والا امضيت الليل كله في المجادلة مع العجوز .. وهكذا قلت لها :

ـ حسن ياسيدتي .. مادمت لا تقدمين المساعدة فلابد لي من
أحد صاحبي المريض الى مكان آخر ..
واشرت الى زملائي ان يلزموا الهدوء ورفعت صوتي في اتجاههم
قائلا :
ـ لا بأس يا صاحبي !.. سوف نجد بالتأكيد شخصا خيرا
في مكان آخر .. ربما لايمكن ان نلوم هذه السيدة المسنة لشكها ،
فهناك اشقياء واشرار كثيرون يتجولون ليلا !..
وانتظرنا قليلا في الظلام ، ثم قلت لهم همسا :
ـ لا باس .. اقتربوا من الباب .. ساصعد على كتفي ديم
وافتح هذه النافذة وادخل منها .. وعندها ساسكت تلك العجوز
وافتح لكم الباب .. لا صعوبة ابدا !..
بهذا اردت ان ابين لرفاقي من هو الزعيم الفعلي وصـــاحب
الافكار النيرة .. وقد قلت لهم :
ـ انظروا الى هذا الافريز فوق الباب !.. هو خير موطىء
لقدمي !..
فنظروا ، واعجبوا بالفكرة ، واوماوا برءوسهم مؤيدين ..
كان ديم هو اقوانا ، وهكذا رفعني جورجي وبيتر الى كتفيه
العريضين دون أن يفطن أحد الى شيء غير عادي ، لخلو المنطقة من
المارة وقلة رجال الشرطة .. وكان الافريز متينا يحتمل ثقلي ..
وكانت النافذة العلوية مغلقة ، ولكنني أخرجت مطواتي الحـــادة
وشققت الزجاج بمقبضـــها العظمى ، ورفاقي يراقبون من تحتي
محتبسي الانفاس .. ولم البث أن مددت يدي من خلال الشـــق
وانزلت نصف النافذة السفلي بسهولة ، ثم انزلقت الى الداخل كما
كنت انزلق الى (البانيو) ، حتى لقـد وقف رفاقي فاغرى الافواه
مبهورين ياأخواني !..
الفيتني في ظلام نسبي ومن حولي اسرة ودواليب ومقاعد ثقيلة ،
واكوام من العلب والكتب .. بيد أنني تقدمت بجرأة الى الباب ..
وكان للباب صرير خافت عندما فتحته ، ثم الفيتني في ردهة متربة
بها ابواب أخرى .. ان كل هذا الاسراف كان معناه ياأخواني ، أنه ليس
هناك سوى مخلوقة عجوز وقططها ، ان القطط تنام منفردة في كل
غرفة قطة ، تعيش على اللبن ورءوس الســمك وكأنها ملكات أو
اميرات !.. وكان بوسعي ان اسمع صوت العجوز في الداخل وهي
تناجي القطط اذ تموء طلبا لمزيد من اللبن ..

ورايت امامى سلالم تهبط الى الردهة ، فبدا لى ان انست لرفاقى التافهين هؤلاء اننى اقدر من ثلاثتهم جميعا ومثلهم معهم ، وان بوسعى أن اتم العملية كلها وحدى دون مساعد ولا نصير .. ساهجم على العجوز وقططها هجمة مباغتة ، ثم املأ يدى بما خف حمله وغلا ثمنه ، وبعدها اعود الى الباب الامامى بحملى الثمين واريهم الغنيمة بذهبها وفضتها تخطف ابصارهم وتذهب بألبابهم ، وعندها يعرفون كل شىء عما هى الزعامة الحقيقية !..

هكذا اخذت اهبط برفق ومهل ، معجبا بلوحات معلقة من العهد القديم تمثل نساء مرسلات الشعر بباقات عالية ، وحقولا مخضرة ذات اشجار باسقة تتوسطها جياد مطهمة .. ونفذت الى انفى روائح عطنة لقطط ورءوس اسماك وجو معفر بالغبار .. وبعد هبوطى الى الدور الارضى كان بوسعى أن ابصر الضوء فى تلك الغرفة الامامية التى كانت فيها العجوز توزع اللبن على قططها ــ هذه القطط التى رايتها الان عن كثب تروح وتغدو محركة أذيالها متمسحة بعتبة الباب .. ووقع نظرى فى الردهة المعتمة على صندوق خشبى كبير علاه تمثال لطيف بارق فى الضوء لفتاة نحيلة القوام واقفة على ساق واحدة ويداها مبسوطتان الى الامام ، وبدا لى انه مصنوع من الفضة ، فقررت أن آخذه لنفسى ، وحملته معى وانا أتقدم الى الغرفة المضاءة قائلا :

ــ ها ها !.. ها نحن قد تقابلنا !.. الظاهر ان حديثنا من خلال فتحة البريد لم يكن مرضيا ؟.. فلنعترف بهذا ايتها العجوز العجفاء العطنة !..

قلت هذا وانا اطرف بعينى فى ضوء الغرفة والقطط تحوم امامى فوق السجادة ونثار شعرها يملأ طبقة الهواء الارضية وهى من كل الاشكال والالوان والاعمار والامزجة ..

وما لبثت العجوز أن رمتنى بنظرة شزراء كأنها رجل وبادرتنى قائلة :

ــ كيف دخلت الى هنا ؟.. مكانك ايها الوغد الشرير ، والا اضطررت ان اضربك !..

لم اتمالك من الابتسام لهذا التهديد ، وكانت ممسكة فى يدها المعروقة بعصا خشبية تتوكأ عليها وقد رفعتها نحوى متوعدة ... ولكننى تقدمت نحوها متمهلا ، وفى طريقى لمحت فوق دولاب جانبى

شيئا صغيرا بالغ الابداع — بل هو ابدع شيء تهيا لمن كان مثلى مبرما بالموسيقى أن تكتحل عيناه برؤياه ، اذ كان تمثالا نصفيا للموسيقار الاكبر بتهوفن - ازدان بشعره المرسل وربطة عنقـــه الضافية .. وسرعان ما اتجهت الى مكان التمثال بعينين مشـــــفوفتين ويدين ممدودتين ، وفى ذلك لم ابصر اطباق اللبن المنثورة على الارض ، فزلت قدمى فى واحد منها وفقدت توازنى .. ولما حاولت التمالك كانت العجوز الماكرة قد جاءت من خلفى باسرع مما يسمح به سنها واخذت تنهال بالعصا على راسى ، حتى الفيت نفسى ملقى على يدى وركبتى وانا اردد : (يا شريرة ، يا شريرة ، يا شريرة !) .. بيد انها لم تكف ، ومضت تهوى على راسى بعصاها وهى تقول : « يا احقر واحط مخلوق فى الدنيا ، تقتحم بيوت الناس الاكابر هكذا !؟ » ..

ولما تضايقت من هذا الضرب الموجع عالجت ان امسك بطرف العصا وهى تهوى على راسى مما ادى الى ان تفقد العجوز توازنهـا هى الاخرى ، وفى محاولة منها للاستناد الى المائدة جذبت المفرش الذى يعلوها ، فتدلى بقوة وطوح معه بابريق وزجاجة لبن انسكب ما فيها وتناثر فى كافة الانحاء ، وهوت العجوز بدورها على الارض وهى تزمجر : « لعنة الله عليك يا شقى ، سوف تنال جزاءك ! » .. عندئذ هبت القطط مذعورة تتواثب فى كل مكان وهى تموء مواء مؤثرا وترتطم بعضها ببعض فى هرج ومرج بالغين !..

وعالجت الوقوف على قدمى فى اللحظة التى كانت فيها تلـك العجوز الكريهة الحقود تحاول النهوض بدورها وهى تزمجر وتدمدم ، فما كان منى الا ان رفستها بقدمى فى وجهها المعروق المبقع ممـا زاده تبقعا وهى لا تكف عن الصراخ .

وفى تراجعى الى الخلف بعد هذه الركلة لابد اننى دست بقدمى على احدى القطط ، اذ سمعت مواءها شرسا ، واحسست باسنان ومخالب تطبق على ساقى ، فاخذت العن واسب محاولا تخليص ساقى .. وفى غضون ذلك كنت لا ازال ممسكا فى يدى بالتمثال الفضى محاولا ان اخطو فوق العجوز اللعينة وهى على الارض للوصول الى مكان تمثال بتهوفن النصفى .. ولكن مرة اخرى وجدتنى وقد زلت قدمى فى طبق آخر ملىء بالكريم ، واذا بى اتطاوح مرة ثانية فى الهواء فى منظر يثير الضحك لمن يرقب عن بعد ؛ لولا انه منظر محدثكم المتواضع !.. واستطاعت العجوز وهى على الارض أن تمد يدها

من نوق القطط وتمسك بقدمي ، فهويت على الارض هذه المرة ، فيما بين رشاش اللبن والقطط المزمجرة ، وانشات العجوز تضربني بقبضتيها على وجهي وكلانا ممدد على الارض وهي تصرخ : في قططها : « اضربوه !.. انهشوه !.. انزعوا اظافره !.. ابن الخنفساء السامة !.. » .. وكانما سمعت القطط وفهمت واطاعت ، فقد وثب فوقي قطان كبيران شرسان واخذا يخمشانني ... فاثارني ذلك يا اخواني ، وجعلت اوجه ضرباتي اليهما .. ولكن العجوز اللعينة صاحت قائلة : « لا تلمس قططي يا سافل !.. » ... وخدشتني في وجهي ... وعندئذ ثارت ثائرتي ورفعت التمثال الفضي وانا اسبها سبا قبيحا ، واهويت به على راسها ، فخرست تماما ...

وما ان نهضت قائما من بين القطط المهتاجة حولي حتى سمعت ـ ويا لي سمعت ! ـ دوى صوت (سرينة) الشرطة على البعد ، فتبينت الآن في بارقة فكر خاطفة ان العجوز الخبيثة اتصلت بالشرطة تليفونيا ، وكنت اتوهم انها تناجي قططها حالما دققت الجرس بالحاح مما اثار شكوكها ... وهكذا أسرعت الى الباب الامامي وانا اتعثر في فتح كافة الاقفال والسلاسل والزلاجات التي كانت تحصن الابواب ... ولما فتحت الباب اخيرا ، فمن تظنون انه كان واقفا امامه سوى ديم ؟!.. ولمحت بنظرة خاطفة رفيقي الاخرين يلوذان بالفرار !..

وقتها صرخت في ديم قائلا :

ـ ابتعد بسرعة !.. الشرطة في الطريق !.

فرد ديم مقهقها :

ـ انتظرت انت لمقابلتهم !..

ولمحت السلسلة في يده ... وعاجلني بضربة اهوى بها على جفوني ، ولولا انني اغمضتها بسرعة لفقدت البصر ... ثم الفيتني ادور حولي صارخا من فرط الالم وانا لا اكاد ابصر ... وعاد ديم يقول :

ـ لم اكن أحب ان تفعل بي ما فعلت ايها الزميل الحميم !.. ولم يكن من المناسب ان تهاجمني كما هاجمتني ، يا حقير !..

وعلى الاثر سمعت وقع حذائه الثقيل وهو يركض مبتعدا في الظلام ولا يكف عن القهقهة ... ولم يمض اكثر من ثوان معدودة حتى كانت سيارة الشرطة تتوقف عن كثب بعد ان ارسلت سرينتها عويلا مشئوما ...

وكنت اتخبط بين جدران المدخل مغمضا وعيناى تسحان سحا

..دما داهمني رجال الشرطة واطبقوا على وحملوني الى الخارج ..
..كان بوسعي ان اسمع صوت احدهم وهو يقول من داخل الغرفة التى
..نت فيها مع القطط :
ـ انها مضروبة ضربا مميتا ... لكنها تتنفس ...
وسمعت صوتا آخر وهو يدفعني بغلظة وعنف الى قلب السيارة
..لا :
ـ هذا من دواعى سرورنا العظيم ، يا اليكس الصغير !..
فلم اتمالك ان صرخت :
ـ انا عميت ، اهلككم الله ، يا اولاد الحرام !..
فسمعت من يقول وبده تلطم فمى :
ـ تهذب !.. تهذب !..
غير انني لم اصمت ، ورحت اقول :
ـ يا ملاعين !.. اين الآخرون ؟.. اين زملائى الخونة
..الاوساخ ؟.. ان واحدا منهم ضربنى بالسلسلة على عينى !..
..الحقوهم قبل ان يفلتوا !.. كانت كلها فكرتهم يا اخوانى !.. انهم
..اجبرونى على ان افعل هذا !.. انا برىء ، قاتلكم الله !..
راحوا يبتسمون بمنتهى الاستخفاف وهم يدفعوننى الى داخل
..السيارة فى المقعد الخلفى ، لكننى تابعت الحملة على اصحابى
..المزعومين ، وان بدا لى انه لا فائدة من هذا ، لانهم لابد قد عادوا
..الان الى بار دوق نيويورك واخذوا يتحفون اولئك النسوة العجائز
..الشراب وهن لا يشبعن من ترديد هذه العبارات : « شكرا يا فتيان !.
..بارك الله فيكم يا اولاد !. كنتم هنا طول الوقت يا شباب !. ولم
..تغيبوا عن انظارنا لحظة واحدة !. » ...
وفى خلال ذلك كانت سيارة ماضية فى طريقها الى قسم الشرطة
..وسرينتها الزاعقة لا تكف عن الولولة وانا محشور بين اثنين من رجال
..الشرطة كانا لا يكفان عن اسكاتى بأيديهما الغليظة كلما تماديت فى
..الاحتجاج ... وعندما استطعت فتح عينى فى النهاية رايت من خلال
..الدموع مدينة تنطوى تباعا والانوار تتلاحق بعضها اثر بعض
..والشرطيين اللذين انحشرت بينهما لا يكفان عن الابتسام والسائق
..النحيل الدقة عاكف على عجلة القيادة والى جانبه آخر غليظ الرقبة
..عو الذى كان يوجه الكلام الى قائلا :
ـ حسن يا اليكس يا بنى ... اننا جميعا مشتاقون الى امسية
..سارة معك ، اليس كذلك ؟..

ـ كيف تعرف اسمي يا شبيه الثور ؟.. ادعو الله ان يطوح بك في قرار الجحيم !.

فتقبلوا هذا بمزيد من الابتسام مع ما تيسر من الوكز من قبل الشرطيين اللذين حشرت بينهما ، بينما رد الشرطي غليظ الرقبة قائلا :

ـ كل الناس تعرف اليكس الصغير ورفاقه .. ان اليكس قد اصبح شخصية مشهورة جدا !.

فصحت قائلا :

ـ انهم هم المذنبون !.. جورجي وديم وبيتر ... ان اولاد الحرام هؤلاء ليسوا اصحابي !.

فقال غليظ العنق :

ـ لا باس ... امامك الليل بطوله لكي تحكي حكايتك كلها ومغامراتك الجريئة مع هؤلاء السادة الفتيان ، وكيف قادوا اليكس الصغير البريء الى طريق الفساد !..

وعندئذ ترامى الى سمعي صوت (سرينة) سيارة بوليسية اخرى ، ولكنها كانت تسير في الاتجاه الآخر ، فقلت :

ـ أهذه السيارة من أجل اولاد الحرام هؤلاء ؟.

فأجاب غليظ العنق :

ـ هذه سيارة اسعاف ... هي بلا شك في الطريق الى ضحيتك العجوز ، أيها الوغد البشع !..

فصرخت قائلا وانا اطرف بعيني الموجوعتين بشدة :

ـ الذنب ذنبهم !.. انهم يشربون الآن في بار دوق نيويورك !.. اقبضوا عليهم ، لعنة الله عليكم !..

ومرة اخرى كان الابتسام يا اخواني والوكز على الفم ... ولما وصلنا الى قسم الشرطة ساعدوني على النزول من السيارة وصعود درجات السلم بالدفع والركل ، وايقنت انني لن انتظر ادنى رحمة ولا ترفق من هؤلاء الزبانية ، قبحهم الله !..

الفصـــــل الســابـــع

سحبوني الى داخل هذه (المضيفة) ذات الطلاء الابيض الزاهي ؛ وكانت تفوح منها رائحة نفاذة هي خليط من روائح القيء والمراحيض والافواه المخمورة والمطهرات ، تنبعث كلهـا من الزنزانات المشبكة بالقضبان عن كثب ؛ ممتزجة بأصوات الشباب والغناء الصادرة من ورائها ... ولكن كان يتخللها أصوات رجال الشرطة وهم ينتهرونهم لكي يخرسوا ، بل سمعت خلال هذا كله أصوات من يضربون لخروجهم على النظام ، وخيل الى ان من بين هؤلاء صوت امراة سكرانة !..

وكان معي في المكان الذي ادخلت اليه اربعة من رجال الشرطة جلسوا الى طاولة يشربون شايا من اناء كبير وهم يمصمصون ويتجشأون تلذذا ومتاعا ... وهم لم يقدموا لي شيئا مما يحتسون ، وكل ما قدموه لي هو مرآة متآكلة يا اخواني لكي انظر فيها !.. وحقا لم اكن ما ابصرته هو وجه محدثكم المتواضع ، بل كان مشهدا مؤثرا لسحنة بدا فيها الفم مورما والعينان حمراوين والانف افطس ... ولم يتمالك رجال الشرطة من الابتسام عندما شاهدوا جزعي وارتياعي حتى قال قائل منهم متفكها : « ارايت جمال محياك » ؟!..

وبعد قليل جاء ضابط تعلو كتفيه نجوم لامعة لبيان قدره ومنزلته بينهم ؛ وعندما رآني لم يزد عن قوله :

ــ ابداوا ...

فقلت :

ــ لن اقول كلمة واحدة ما لم يحضر معي محامي ... انا اعرف القانون يا ملاعين !..

ابتسموا جميعا ابتسامات عريضة لهذا الكلام ، وقال الضابط:

ــ صح صح صح يا اولاد !.. سنبدا معه بان نريه اننا ايضا نعرف القانون !.. لكن هذه المعرفة بالقانون ليست كل شيء !.

كانت لهجة الضابط رقيقة مهذبة ، ولكنها كانت تنبيء عن التعب والتبرم .. وما لبث ان اوما براسه بابتداءة الى شرطي

ضخم سمين ... فنزع هذا الشرطي الضخم السمين كسوته حتى بدا كرشه في مثل ضخامته ؛ ثم تقدم مني غير متعجل ورائحة الشاي باللبن الذي كان يشربه تفوح قوية من فمه المنفرج سخرية مني ... ولم يكن حليق الوجه تماما كما ينبغي لرجل الشرطة ، وبدت بقع من العرق الجاف تحت ابطي قميصه ... وما ان اقترب مني حتى اطبق يده المحمرة الزنخة وسدد ضربة في صميم بطني مما لم يكن من العدل في شيء ؛ فتلقى زملاؤه هذا بالابتسام فيما عدا رئيسهم الضابط الذي لم تفارق وجهه ابتسامة التعب والتبرم .. وكان من تاثير الضربة انني استندت الى الحائط المطلي حتى التصق الطلاء الابيض بملابسي في محاولتي لالتقاط انفاسي في الم وكرب بالغين ، ووقتها اردت ان اقيء الفطيرة التي كنت قد تناولتها في مستهل الامسية ، لكنني لم احتمل ان اقيء على الارض ، وهكذا تماسكت ... وعندما لمحت هذا الشرطي الضخم السمين يستدير مواجها زملاءه بابتسامة عريضة رضاء عما فعله ، رفعت قدمي اليمنى ، وقبل أن يحذروه رفسته رفسة قوية في قصبة الساق ، فصرخ عاليا واخذ يحجل دائرا على نفسه ...

لكن بعد هذا تداولوني جميعا كل بدوره ؛ يتقاذفونني بينهم مثل كرة صماء ... آه يا اخواني !.. لقد انهالت لكماتهم اسفل بطني وفمي مشفوعة بركل الاقدام ؛ حتى لم اتمالك ان تقايات على الارض ؛ وان رحت اقول لهم : « آسف يا اخواني ، لم يكن هذا لائقا مني !.. آسف !.. آسف !.. » .. لكنهم أعطوني قصاصات جريدة وجعلوني امسح القيء ، واثر بعد المسح نشارة الخشب .. وبعد ذلك قالوا لي متوددين كما لو كنا اصحابا أن اجلس ليدور بيننا حديث هادىء ...

ثم جاء السيد دلتريد المشرف الاصلاحي وكان مكتبه في نفس المبنى وهو بادي التعب والضيق ، فبادرني قائلا :

ـ اذن فقد حدث ما كنت اتوقعه يا اليكس يا ولد ؟! .. يا خسارة !..

ثم التفت الى رجال الشرطة قائلا :

ـ مساء الخير ايها المفتش ... مساء الخير ايها الرقيب ... مساء الخير لكم جميعا ... لا باس ... هذه خاتمة المطاف فيما يختص بي ... يا الف خسارة !.. كم يبدو هذا الولد في اشنع حال !. انظروا الى شكله !.

فقال الضابط بصوت رصين :
ـ العنف يولد العنف ... لقد قاوم معتقليه الشرعيين !.
فقال دلتويد مرة اخرى :
ـ هذا خاتمة المطاف فيما يختص بى !.
ونظر الى بعينين باردتين جدا كما لو كنت قد استحلت الى
ـ ولست بشرا مثخنا بالضرب مضعضعا داميا ، ثم قال :
ـ اظن انه لابد ان اوجد فى المحكمة غدا ...
عندئذ قلت له وانا اقرب الى البكاء :
ـ لم اكن انا السبب يا سيدى الاخ !.. ان غدر وخيانة
ـربن هو ما استدرجنى الى هذا يا سيدى !.
فقال الضابط ساخرا :
ـ يا للكلام المعسول !..
وقال السيد دلتويد ببروده البالغ :
ـ سوف اتكلم ... ساكون هناك غدا ، فلا تقلق ...
فقال الضابط :
ـ ان اردت يا سيدى ان تتحفه بشىء من عندك فلن نمانع ...
ـكان ان نمسك به لك ... لابد انه كان مصدر خيبة امل كبرى
ـك !..
وهنا اقدم السيد دلتويد على شىء لم اتصور قط ان رجلا مثله،
ـرض فيه العمل على اصلاح المنحرفين ان يقدم على مثله ، خصوصا
حضور افراد الشرطة !.. فقد اقترب منى وبصق ... بصق على
ـى بملء فمه ... ثم مسح فمه المبلل بظهر يده !.. اما انا فقد
ـ امسح وجهى مرة وثانية وثالثة بمنديلى الملوث بالدم وانا
ـ :
ـ شكرا لك يا سيدى !.. شكرا جزيلا يا سيدى !.. هذا
ـ عظيم منك يا سيدى ، شكرا لك !.
ثم خرج السيد دلتويد دون كلمة اخرى ..
واستعد رجال الشرطة لاعداد المحضر المطلوب وتوقيعى عليه ،
ـ لنفسى : سحقا لكم جميعا !.. اذا كنتم بهذه النذالة وانتم
ـانب الصلاح ، فكم يسرنى ان اكون فى الجانب الآخر !..
وهكذا قلت لهم بصوت مرتفع :
ـ لا باس يا ملاعين !.. خذوا عنى ما تريدون !.. لن الجا

الى الاستعطاف امامكم والزحف على ركبتى !.. من اين تريدون ان ابدا يا حيوانات ؟.. من فترتى الاصلاحية ؟.. هاكم اذن كل ما تريدون !..

وهكذا رحت اسرد امامهم كل شيء ، وامامى كاتب الاختزال الرسمى ذلك المخلوق الناحل البائس يدون صفحة بعد صفحة منذ بداية المغامرات الليلية الاخيرة ، من ضرب وتحطيم وسطو واغتصاب ، الى اقتحام بيت العجوز صاحبة القطط المتوائبة .. وقد حرصت على بيان دور اصحابى المذعومين فى كل تلك الافعال ... وما ان انتهى المختزل البائس من تدوين كل وقائع المحضر حتى بدا اقرب الى الاعياء ... فقال له الضابط متلطفا :

ـ حسن يا بنى ... قم وخذ كوبا من الشاى ينعشك ، ثم انسخ لنا كل هذه القاذورات من ثلاث صور بعد ان تسد انفك بمشبك غسيل !.. وبعد هذا هات المحضر كله الى صديقنا الصغير ليمهره بامضائه الكريم !..

ثم التفت الى قائلا :

ـ وانت ... بامكانك الآن ان تذهب معهم الى (جناح الزفاف) ذى المياه الجارية وكل وسائل الراحة !..

واختتم بصوته المكدود قائلا لاثنين من رجاله الاشداء :

ـ خذوه !.

وهكذا اقتادونى بالعنف والركل واللكم الى قسم الزنزانات واودعونى فى واحدة منها تضم عشرة او اثنى عشر من المقبوض عليهم ، اغلبهم من السكارى ... كان بينهم انواع كالحيوانات ... منهم مخلوق متآكل الانف وفمه مفغور مثل جب مظلم ... وآخر ممدد على الارض يغط غطيطا عاليا وفمه يسح لعابا ملتانا ... وثالث بدا وكانه تغوط فى بنطلونه ... ثم كان بينهم اثنان راحا ينظران الى نظرات غريبة ، وعندما حاول احدهما الاقتراب منى اعترضه الثانى لكى يسبقه ؛ فتماسكا وتضاربا وكان لهما صياح استقدم اثنين من رجال الشرطة انهالا عليهما بعصى غليظة قصيرة حتى ارتدا خافين مقهورين ولزما السكون مكانهما ، وان بدت قطرات الدم تنحدر من فم احدهما ...

وكان فى الزنزانة دكك ذات سطحين ، قائمة على اربعة عمد ، ولكنها كانت مشغولة ... فتسلقت الى سطح احداها وكان بها

ـكبير يفط بصوت عال ، ولعل الشرطة هم الذين طوحوا به عاليا ..
ما كان مني الا ان جذبته الى اسفل اذ لم يكن ثقيلا ، فهوى فوق
ـكبير سمين آخر كان على الارض ، ولكنهما افاقا واخذا فى الصراخ
بادلا الوكز بصورة مؤثرة .. وهكذا تمددت يا اخوانى فوق سطح
هذه الدكة الكريهة الرائحة ، وسرعان ما غلبنى الاعياء والضنى
استسلمت لنوم بدا وكاننى انتقلت به الى عالم آخر افضل ...
فى هذا العالم الافضل رايت يا اخوانى وكاننى فى حفل كبير تتخلله
الاشجار والازهار وبه ما يشبه عنزة بوجه رجل يعزف على مزمار
... ثم بزغ امامى كما تبزغ الشمس وجه بتهوفن ذاته ؛ وسمعت
السيمفونية التاسعة تعزف فى مقاطعها الاخيرة ... فما انفقت من
نومى الرحيم بعد دقيقتين او عشر او عشرين ساعة او ايام او سنوات
الا على صوت يوقظنى بعنف ... واذا شرطى اسفل منى بما بدا انه
مسافة اميال ينخسنى بعصا مدببة فى طرفها شوكة ويقول لى :
— اصح يا ابنى !.. اصح يا (حليوة) !.. اصح لمواجهة
المتاعب !..

— لماذا ؟.. من ؟.. اين ؟.. ماذا جرى ؟! ..
وتلاشى من داخلى عزف النغم العذب ... ثم عاد الشرطى
يقول :
— انزل واعرف بنفسك ... هناك اخبار سارة لك يا بنى ..
وهكذا رحت انزل متصلبا موجعا وانا فى نصف يقظة ...
فما لبث هذا الشرطى الذى كانت تفوح منه رائحة الجبن والبصل
ان اخذ يدفعنى من الزنزانة القذرة المتجاوبة بالغطيط عبر ممشى
وما زالت اصداء السيمفونية الساحرة مترددة فى وجدانى ...
ووصلنا الى غرفة نظيفة بها آلات كاتبة وزهور فوق المكاتب وقد جلس
الضابط الى المكتب الكبير وعلى وجهه ملامح الجد والخطورة مركزا
نظرات باردة جدا على وجهى ، فقلت له :
— حسن ، حسن ، حسن !.. ماذا جرى فى الدنيا ؟..
فقال لى :

— سامهلك عشر ثوان فقط لكى تزيح عن وجهك تلك البسمة
الغبية ... وبعدها اريد أن تنصت ...

فقلت باسما :

ـ حسن ... ماذا ؟.. الم يكفكم انكم ضربتمونى ضربا مهينا وجئتم بمن يبصق على وجهى واجبرتمونى على الاعتراف بجرائم استغرقت ساعات بطولها ، ثم طوحتم بى بين أحقر المجرمين فى هذه الزنزانة العفنة !!.. هل عندكم عذاب جديد لى ايها الملاعين ؟.

فقال بلهجة الجد :

ـ سيكون العذاب منك واليك ... أدعو الله ان يوصلك العذاب الى الجنون !..

وعندئذ ، وقبل ان يفضى الى بما يقصد ، علمت من تلقاء نفسى بما جاء به ... فان المرأة العجوز صاحبة القطط قد انتقلت الى عالم آخر أفضل فى احد مستشفيات المدينة ... والظاهر اننى وجهت اليها ضربة كانت القاضية !.

هكذا حرمت القطط من ربتها الحانية التى كانت تسقيها اللبن !..

وكنت انا القاتل ، ولم اتجاوز الخامسة عشرة بعد !..

القســـــم الــثـانـــى

الـفـصـــــــــل الاول

ماذا سيكون اذن ، يا ترى ؟..

اعود الآن الى استئناف سرد قصتي ، يا اخواني واصدقائي الوحيدين ، وهو الجانب المبكي والمأساوي في القصـة ، بدءا من السجن العمومي ... وقد لا تكون لديكم رغبة في الاستماع الى هول الصدمة التي جعلت ابي يضرب يديه في الجدران حتى ادماهما ، وافضت بامي الى التواء فكيها توجعا وانينا في تفجعها لما انتهى اليه وحيدها وفلذة كبدها من مصير مشئوم ... ولن افيض كثيرا في الحديث عما فاه به قاضي الاحالة من تلك الكلمات القاسية في حق صديقكم ومحدثكم المتواضع ، في أعقاب ما نالني قبلها من بصق السيد دلتويد على وجهي واذلال رجال الشرطة لي ... ثم كانت المحاكمة في المحكمة العليا امام القضاة والمحلفين وما اقترن بها من تلك الاقوال اللاذعة والنعوت الدامغة تفضلوا بها بكل رصانة ووقار ... ثم صراخ أمي عند صدور الحكم بالادانة والسجن لمدة اربع عشرة سنة !..

أواه يا اخواني !.. وهاندا الآن وقد انصرم عامان منذ اليوم الذى ادخلت فيه الى السجن العمومي تركلني الاقدام وتعلوني كسوة السجن طبقا لآخر صيحة في عالم الازياء : بذلة من قطعـة واحدة ذات لون بشع ، مزدانة برقم خيط على الصدر فوق موضع القلب الخفاق وعلى الظهر ايضا ، وهكذا لا اروح ولا اغدو الا معروفا برقم ٦٦٥٥٣٢١ ، وليس صاحبكم الصغير اليكس الذى لم يبق لاسمه وجود !..

لم يكن من المجد في شيء أن احل على مدار عامين في ذلك الجحر من الجحيم او (حديقة الحيوان البشرية) اتلقى فيها الضرب والركل على ايدى حراس قساة غلاظ الاكباد واخالط حثالة المجرمين ومنهم عتاة من معتادى الاجرام يتحفزون للانقضاض على فتى غض مثل

راوى هذه القصة لكم !.. ثم كان هناك ذلك الشغل الاجبارى فى ورش السجن لصنع علب الكبريت وما اليها ، وبعدها الدوران الى ما لانهاية فى ساحة السجن فيما يسمونه التمارين الرياضية ، ثم نقاد فى بعض الامسيات كالقطيع للاستماع الى بعض الاساتذة المتحذلقين يحدثوننا احاديث غريبة عن الخنافس أو (درب اللبانة) او عجائب رقائق الثلوج !.. وفى الحق اننى لم اتمالك من الابتسام عند سماعى اسم هذه الرقائق ، فقد ذكرتنى بتلك المناسبة التى لم انسها عندما قمت مع رفاقى السابقين بالاعتداء بالضرب الوحشى ليلا على ذلك المدرس الذى كان خارجا لتوه من مكتبة البلدية متابطا كتبه المستعارة ـ حين كان اولئك الرفاق على ولائهم لى وبعدهم عن خيانة عهد الزمالة وكنت انا سعيدا حرا .. وعن اولئك الرفاق فلم اعد اسمع شيئا ، الا عندما زارنى ابى وامى فى السجن وقيل لى ان جورجى قد لقى حتفه .. نعم ياخوانى .. لقى حتفه واصبح مثل جيفة كلب ميت على قارعة الطريق .. فان جورجى اغرى رفاقه بالسطو على بيت رجل موسر حيث اعتدوا عليه بالضرب واخذ جورجى ينزع الستائر والطنافس وانهمك ديم فى البحث عن التحف والنفائس ، غير أن صاحب البيت هاله ما حدث واستعان بقضيب حديدى مدافعا عن نفسه وماله ، فهرب ديم وبيتر من النافذة ، ولكن جورجى تعثر فى السجادة ، وعندها هوى الرجل على راسه بالقضيب الحديدى ، فكانت هذه نهاية جورجى الخائن !.. وقد أخلى سبيل الرجل بعامل الدفاع عن النفس وهو حق عادل ومشروع ؛ وهكذا لقى جورجى جزاءه عما كان من خيانته لى ، وهذا من تصاريف القدر ، ولاشك !..

واستانف القصة فى السجن العمومى فاقول ، ياخوانى ...

ترروننى فى جناح الكنيسة صباح يوم احد والقس يلقى موعظته .. لقد اسندوا الى ادارة (الاستيريو) بوضع اسطوانات الموسيقى الكنسية اللائقة للعزف مع الترانيم فى مستهلها ونهايتها وفى منتصفها ايضا .. وكان مكانى قرب موقف الحراس الغلاظ المسلحين بالبنادق ، وكان بوسعى أن أرى السجناء جالسين يستمعون الى الترانيم وهم بملابسهم الشنيعة ، تنبعث منهم تلك الروائح المعطنة المقززة التى لا تكون الا من نزلاء السجون .. ولا أجزم ان كانت لى هذه الرائحة بعد أن انخرطت فى زمر المجرمين ، وان كنت لاازال فى مستهل الصبا !. وهكذا كان من الاهمية عندى ان اخرج يا اخوانى من (حديقة

حيوانات) العفنة هذه بأقرب ما استطيع .. ولسوف ترون وانتم تتابعون هذه القصة انه لم يمض وقت طويل حتى تحقق لى هذا على نحو معجز يفوق حدود التصور !..

لقد راح القس واعظ السجن يقول تكرارا :

ـ ترى ماذا سيكون بعد ؟.. هل يستمر الحال على هذا النمط دخولا وخروجا ثم دخولا وخروجا من المؤسسات الاصلاحية الى ما لا نهاية ، وان كان الدخول اكثر من الخروج بالنسبة لمعظمكم ؟. ثم انكم سوف تستمعون الى كلمة الرب وتدركون العقاب الذى ينتظر الخاطئين غير التائبين فى عالم الاخرة ، كما فى هذه الدنيا ؟..

يا لاكثركم من عصبة من الحمقى اذ تبيعون آدميتكم لقاء كل رخيص وتافه ـ لقاء مغامرات السرقة والعنف ومغريات الحياة السهلة !.. هل يتجاهل هذا منكم وامامنا الادلة التى لا نكران لها ولا جدال فيها بأن جهنم ماثلة وقائمة ؟.. اننى اعرف يا أصدقائى ، وقد نبئت به فى الرؤى الصادقة ، ان ثمة مكانا هو اشد ظلمة من اى سجن ، واحر لظى من اى نار يوقدها البشر ، فيه يكون لارواح الخاطئين المجرمين وغير التائبين من امثالكم ـ ولا تسخروا منى ولا تضحكوا منكم الله ـ اقول فيه يصرخون من عذاب ابدى لا يطاق ، وتختنق انوفهم بروائح الادران ، وتحشى افواههم بجمرات النار المتقدة ، وتشوى جلودهم حتى تتلاشى من الابدان ، وتنصهر احشاؤهم من هول العذاب الاليم !..

وعند هذا الحد يا اخوانى ، عمد مجرم قرب الصفوف الخلفية الى اطلاق موسيقى الشفاه ، واذا الحراس الغلاظ يندفعون سراعا الى الموضع الذى ظنوا انه مصدر الصوت ، معملين هراواتهم يمينا وشمالا فى السجناء حيثما اتفق ، ثم استخلصوا سجينا مسكينا راعشا بالغ النحول وسحبوه من مكانه وهو يصرخ قائلا :

ـ لست انا !.. هو هناك !.. انظروا !..

بيد أن هذا لم يغير من الواقع شيئا .. فقد انهالوا عليه بالضرب المبرح ، ثم جذبوه الى خارج جناح السجن وصراخه يصم الاذان ...

وقال واعظ السجن :

ـ والان ، انصتوا الى كلمة الرب ..

ثم تناول كتاب الترانيم الضخم واخذ يقلب صفحاته مبللا اصابعه وهو يفعل هذا بشفتيه .. كان رجلا ضخم الجسم شديد

احمرار الوجه ، بيد انه كثير العطف على لصغر سني ولانني الان رحت ابدى اهتماما كبيرا بكتاب الترانيم .. فقد تقرر كجزء من عملية اصلاحي ان اقرا فى هذا الكتاب ، بل لقد سمح لى أن ادير (استريو) الكنيسة اثناء قراءتى .. وذات يوم قال لى القس وهو يشد على يدى :

ــ آه يارقم ٦٦٥٥٣٢١ ، فكر فى معاناة القديسين ، وتأمل فى نعيم الاخرة بعد طول المعاناة !..

وفى خلال ذلك كانت تفوح منه رائحة (الاسكوتش) ، وكان يدلف الى مقصورته الصغيرة بين وقت وآخر لكى يتناول المزيد من هذا الشراب ..

هكذا كنت اقرا فى الكتاب اثناء عزف الاستريو لموسيقى باخ العذبة ثم أغمض عينى واسبح فى عالم الخيال حتى اتصور نفسى وقد لبست رداء الكهنوت !.. ومن هذا ترون يا اخوانى أن وجودى فى السجن العمومى لم يكن مضيعة للوقت ، بل لقد ترامى الخبر الى محافظ السجن ذاته ، فابدى سروره اذ سمع اننى اصبحت ميالا الى التدين .. وكانت هذه بداية الامل الذى تولد فى نفسى ..

ومهما يكن يا اخوانى فانه بعد انتهاء الوعظ يوم الاحد ذاك وانسحاب السجناء عائدين الى زنزاناتهم فى صخب وجلبة والحراس الغلاظ لا يكفون عن ملاحقتهم بالسباب والركل ، وبعد ان اقفلت الاستريو فى النهاية ــ اقترب الواعظ منى وهو ينفث دخان سيجارة كانت فى ملابسه ، ثم ابتدرنى قائلا :

ــ شكرا لك دائما يارقم ٦٦٥٥٣٢١ .. وما هى الاخبار التى عندك لى اليوم ؟..

والحكاية هى اننى علمت ان هذا الواعظ كان يتطلع الى الترقى فى مراتب كهنوت السجون ، وكان بحاجة الى تزكية قوية من محافظ السجن ، وهكذا كان يسعى الى المحافظ بين حين وآخر خفية ويدلى اليه بأنباء المؤامرات السرية التى يدبرها السجناء ؛ وكان يستقى الكثير منها عن طريقى !.. والواقع أن الكثير منها كان مختلقا ، وان كان بعضها حقيقيا ، مثال ذلك ما علمناه فى (دوائرنا) عن طريق الدق على مواسير المياه ، من أن المسجون هاريمان الضخم يدبر للهرب من السجن ، اذ كان فى النية ان يفاجىء الحارس وقت النوم ويأخذه على غرة ثم يخرج مرتديا ملابسه .. ثم كانت هناك المحاولة التى

تدبر فى عنبر الاكل لالقاء طعام السجناء البشع على الارض احتجاجا وتمردا ، وهو ما ابلغت الواعظ عنه ايضا .. وقد نقل الواعظ هذا كله الى محافظ السجن وقوبل بالثناء ..

اما الان فقد قلت للواعظ ، وهو مالم يكن صحيحا :

ــ حسن ياسيدى .. لقد تداول الخبر عن طريق المواسير بان كمية من الكوكايين قد وصلت بطرق ملتوية ، وان احدى الزنزانات فى عنبره ستكون مركز التوزيع ..

لقد اخترعت هذه القصة فيما كنت اخترع من غيرها ، لكن الواعظ بدا شديد الامتنان قائلا :

ــ جميل ، جميل ، جميل !.. سانقل هذا الى فخامته !..

و (فخامته) هو محافظ السجن طبعا .. وقد قلت له :

ــ سيدى ، اننى اديت واجبى ، اليس كذلك ..؟ لقد تعبت فى هذا كثيرا ، الا ترى هذا ياسيدى ؟..

فقال الواعظ :

ــ اظن عموما يارقم ٦٦٥٥٣٢١ انك فعلت هذا .. فى تقديرى انك اسديت مساعدة تذكر واظهرت رغبة حقيقية فى الصلاح .. واذا استمررت فى هذا النهج فسوف تفوز بالافراج عنك دون مشكلة على الاطلاق ..

فقلت له :

ــ لكن ياسيدى ، ماذا هناك بخصوص هذا النظام الجديد الذى يتحدثون عنه ؟.. ماذا عن تلك المعاملة الجديدة التى تؤدى الى الخروج من السجن فى فترة قليلة وتضمن الا يعود السجين اليه ابدا ؟..

فأجاب فى حذر وتحفظ :

ــ آه !.. اين سمعت هذا ؟.. من اخبرك بمثل هذه الأمور ؟..

فقلت :

ــ هذه الاشياء تتردد وتصل الى الاسماع ياسيدى .. هناك حارسان قالا كلاما ، ولا يستطيع الانسان الا ان يسمع ما يقال .. وبعدها يلتقط أحدهم قصاصة جريدة فى ورش السجن وينشر فى الجريدة كل شىء عن الموضوع .. ما رايك ياسيدى فى ان تتفضل وتخبرنى بالموضوع ، اذا تجاسرت وطلبت منك هذا ؟..

فبدا انه يفكر فى هذا الاقتراح وهو ينفث دخان سيجارته ، متدبرا ماذا يمكنه أن يقول لى عن هذا الموضوع الذى طرقته أمامه .

وما لبث ان قال وهو لايزال على عذره :
ــ افهم انك تشير الى (طريقة لودوفيكو) ؟..
فقلت له :
ــ انا لا اعرف ماذا يسمونها ياسيدى .. كل ما اعرفه هو انها تهيىء لك الخروج من السجن سريعا وتضمن عدم عودتك اليه ..
فاجاب وهو يرمقنى بنظراته فى شىء من القطوب :
ــ هو كما تقول يارقم ٦٦٥٥٣٢١ .. وبالطبع فان المشروع هو فى المرحلة التجريبية فقط فى الوقت الراهن .. وهو مشروع بسيط ولكنه ناجح جدا ..
فقلت للواعظ :
ــ لكنه يجرى استخدامه هنا الان ، اليس كذلك ياسيدى ؟ هناك تلك المبانى البيضاء الجديدة قرب السور الجنوبى ياسيدى .. اننا راقبنا تلك المبانى وهى فى دور البناء ياسيدى ، ونحن نؤدى التمرينات الرياضية ..
فقال الواعظ :
ــ ان المبانى لم تستخدم بعد ، ليس فى هذا السجن يا رقم ٦٦٥٥٣٢١ .. وفخامة المحافظ نفسه لديه شكوك قوية حول الموضوع .. ولابد ان اعترف باننى اشاطره شكوكه .. والمسالة هى فيما اذا كان يمكن ان تؤدى هذه الطريقة حقا الى جعل الانسان صالحا .. ان الصلاح ينبع من داخل الذات يارقم ٦٦٥٥٣٢١ .. الصلاح شىء مرهون بالاختيار .. واذا كان الانسان لا يستطيع الاختيار ، فانه لا يبقى انسانا ..
وكان يمكن ان يتوسع فى الحديث عن هذه المسالة ، لولا اننا سمعنا اصوات المجموعة الاخيرة من السجناء وهى تهبط فى السلالم الحديدية لتلقى دورها فى الوعظ .. وهكذا اردف قائلا :
ــ سيكون لنا حديث فى الموضوع فى وقت آخر .. والان يحسن ان تقوم بمهمتك ..
وهكذا انتقلت الى موضع (الاستيريو) ووضعت معزوفة باخ الرعوية فى الوقت الذى اقبلت فيه صفوف اولئك المجرمين بجلبتهم المدوية كانهم افواج من النسانيس ، وسرعان ما انشا القس يلقى موعظته مرة اخرى ..
كانت هذه الدورات الدينية تتكرر اربع مرات ايام الاحاد ، ولما انتهت هذه الدورة لم اجد عند الواعظ مايقوله لى من جديد من (طريقة لودوفيكو) تلك ، مهما يكن من كنهها !..

وعندما فرغت من مهمتي مع (الاستيريو) اختصني ببعض كلمات الشكر ، وبعدها اعادوني الى زنزانتي في العنبر رقم ٦ ، وياله من مباءة مكتظة عطنة الى ابعد الحدود !.. ولم يكن الحارس الذي تلقاني مخلوقا فظا مثل زملائه ، فلم يضربني ولم يركلني عندما فتح لي الباب ، وانما قال لي :

ـ على الرحب يابني في موطنك !..

وهكذا عدت الى رفقة اصحابي الجدد .. وكانوا جميعا من عتاة المجرمين ، لكنهم والحمد لله لم يكونوا من الشواذ .. كان منهم المدعو (زونار) فوق دكته ، وهو مخلوق اسمر شديد النحول لم يكن يكف عن الكلام والثرثرة ، لهذا لم يتكلف احد عناء الاستماع اليه .. وكان منهم (وال) الذي لم يكن له سوى عين واحدة ، وكان لا يكف عن قضم اظافر قدميه .. ثم كان منهم ايضـــا (اليهودي السمين) ، وكان مفرط البدانة والعرق يظل اكثر الوقت ممددا فوق دكته كالاموات .. والى جانب هؤلاء كان هناك (جوجون) و (الطبيب) .. كان (جوجون) مخلوقا خبيثا ماكرا وكان تخصصه في الاعتداء على النساء .. اما (الطبيب) فقد كان يدعي القدرة على الشفاء من الامراض التناسلية ولكنه كان يعطي حقنا من المياه ، كما انه تسبب في قتل امراتين بعد ان وعدهما كذبا بتخليصهما من الحمل .. كانوا جميعا عصبة مريعة حقا ، ولم استطب قط وجودي بينهم .. وكان مبعث الالم والحزن بالخواني فوق ذلك هو ان هذه الزنزانة كانت معدة لثلاثة نزلاء ، ولكننا كنا الان ستة ، محتبسين بداخلها محشورين غارقين .. وكان ذلك هو الحال في كافة السجون الاخرى في تلك الايام ، وهو عار ليس بعده عار ، اذ لا يملك احد أن يجد متسـعا لكي يمد اطرافه .. والادهى من ذلك انه في يوم الاحد هذا اقحم علينا نزيل جديد .. والاغرب من كل شيء هو أنه كان البادىء بالصراخ والشكوى حتى قبل أن تتاح لنا الفرصة لرؤية الموقف .. فقد حاول ان يهز القضبان صائحا :

ـ انني اطالب بحقوقي المشروعة !.. هذه الزنزانة متخمـة لا موضع فيها لقدم !..

ولكن الحارس اقبل ليقول له ان عليه ان يرضى بالواقع ويشارك اي واحد يسمح له بالمشاركة في دكته ، والا فلن يكون امامه سوى الارض يفترشها !.. واضاف الحارس قائلا :

ـ وسيكون هذا اسوأ .. كلكم عالم باسره من الاجرام ولا تستحقون غير هذا !..

الفصل الثاني

لا باس !..

لقد كان اقحام هذا النزيل الجديد علينا هو فى الواقع بداية خروجي من السجن العتيد .. ذلك انه كان مخلوقا مشاكسا الى ابعد الحدود ، منطويا على فساد الطوية وخبث النوايا ، الى حد ان المتاعب بدات منذ ذلك اليوم ذاته .. ثم انه كان كثير التفاخر ، ممعنا فى التطاول علينا والسخرية منا بكلام طنان صخاب .. قال لنا انه هو الوحيد المحترم دوننا جميعا فى هذه الحديقة كلها (يعنى حديقة الحيوانات !) ، زاعما انه فعل كيت وكيت وقتل عشرة من رجال الشرطة بخبطة واحدة من يده ، الى آخر هذا الهراء ..

ثم بعد هذا يا اخوانى ركز اهتمامه على شخصى ، باعتبارى اصغر الموجودين سنا ، قائلا انه لكونى اصغرهم جميعا فعلى ان اكون انا الذى ينام على الارض وليس هو .. غير أن الجميع انضموا الى جانبى صائحين :

ــ دعه وشانه ياحقير !..

فما لبث ان راح يشكو حظه قائلا انه لا احد يحبه !..

وفى نفس تلك الليلة صحوت من نومى لكى أجد هذا المجرم البشع ممددا الى جانبى فوق الدكة ، التى كانت أسفل التنين فوقها وضيقة جدا ، وهو يتفوه بكلمات فاحشة ويتمسح بى .. عندئذ ثارت ثائرتى ولطمته لطمة شديدة وان كنت لا ابصر فى الظلام اذ لم يكن ثمة سوى النور الاحمر الحسير خارج الزنزانة .. لكننى ايقنت أنه هو ذلك المخلوق الوضيع ، وبعد ان تعالت الجلبة واضيىء النور رايت الدم يقطر من فمه القبيح اثر اللطمة العنيفة التى اصابته ، من يدى ذات الاظافر الحادة ..

وما حدث بعد ذلك هو ان رفاقى فى الزنزانة هبوا من نومهم وانضموا الى الاشتباك قائمين بنصيبهم من الضرب فى تلك العتمة ، حتى تعالى الصياح والضجيج واستيقظ نزلاء العنبر كله واخذوا

.. ن على الحوائط بكيزانهم وكانهم خالوا ان تمردا شاملا يوشك ا .بدا فى السجن ..
هكذا يااخوانى اضيئت كل الانوار وهرول الحراس بالقمصان ..طلونات ملوحين بهراواتهم الغليظة .. وفى الضوء راينا وجوه ..نا البعض محمرة واوداجنا منتفخة .. وايدينا متطاوحة متوعدة ..راخنا مقترنا بالسباب واللعنات !.. واذ ذاك تقدمت بالشكوى .. كان ، فقال الحراس جميعا بلا استثناء ان محدثكم المتواضع .خوانى هو المتسبب فى نشوب المعركة اذ ليس فى وجهى اى جروح . خدوش فى حين ان هذا المسجون البشع ينزف الدم من وجهه .. حيث انهالت عليه يدى المخلبية باللطمات !.. لقد استفزنى هذا .كلام اى استفزاز حتى قلت اننى لن انام ليلة واحدة فى تلك الزنزانة .. كانت سلطات السجن سوف تسمح لهذا المجرم المنحرف الشنيع .. يحاول الانقضاض على وانا فى وضع لا يمكننى من الدفاع عن نفسى .ناء النوم ..
فرد الحراس بقولهم لى :
ـ انتظر حتى الصباح .. هل تريد فخامتك غرفة خاصة .حمام وتليفزيون ؟! .. حسن اذن .. كل هذا سوف ينظر فيه فى .صباح .. اما فى الوقت الحالى ايها الرفيق الصغير فاقنع بالنوم على .رتبتك المحشوة باجود القش ولا تدعنا نسمع اى ضوضاء من اى .سان .. مفهوم ، مفهوم ، مفهوم ؟..
وبعدها قفلوا راجعين وهم ينذرون ويتوعدون الجميع ، وعلى .اثر اطفئت الانوار .. فقلت انني سابقى طول ليلى صاحيا ، ووجهت .كلامى الى ذلك المجرم البشع قائلا :
ـ ادخل الى فراشي اذا رغبت !.. اننى لن اطيقه بعد ان .وثته ببدنك القذر ورائحتك النتنة !.. غير ان الباقين تدخلوا ، . قال اليهودى السمين وكان لايزال غارقا بعد ابتلاع قطعة مخدر كنا .تداولها فى الظلام :
ـ لن نرضى بهذا يا اخوانى !.. لا تخضعوا لهذا الحيوان !..
فراح ذلك المجرم الجعجاع يقول :
ـ اخرسوا !.. ليبلع كل منكم لسانه !..
وعندئذ تحفز اليهودى السمين لتوجيه ضربة اليه .. فقال الدكتور) :
ـ اسمعوا ياسادة !.. نحن لانريد مشاكل !..

لكن المجرم الوافد كان ينوى اثارة المشـاكل فعلا ، اذ كان مغرورا ، متعاليا على قبول المشاركة مع ستة سجناء فى زنزانة واحدة واضطراره الى النوم على الارض لولا أننى ابديت استعدادى للتنازل عن الدكة له .. وحاول ان يتمادى فى المشاكسة .. وهنـا قال (جوجون) :

ـ اذا كنا لا نستطيع ان ناخذ قسطا من النوم ، فلناخـذ قسطا من التعليم !.. من الخير ان نلقن صديقنا الجديد هـذا درسا !.

فرد المجرم الجعجاع قائلا :

ـ اننى ادوسكم تحت قدمى !..

وهكذا بدات المعركة ، ولكنها بدات بطريقة هادئة متخافتة ، دون ان يرفع احد منا صوته عاليا .. وقد صرخ المجرم الوافد مرة واحدة اول الامر ، لكن (وال) عاجله بلطمة على فمه ، فى حين شده اليهودى السمين الى قضبان باب الزنزانة حتى يمكننا أن نبصره فى الضوء الاحمر المعتم المنسوب من الخارج ، وكل ما بدر منـه كان تاوهات خافتة .. والواقع انه لم يكن موفور القوة ، وبدا اضعف ما يكون وهو يحاول ان يرد الضربات التى اخذت تتوالى عليه ، ولعله كان يعوض هذا بالجعجعة والمفاخرة بنفسه .. وعلى اى حال فاننى عندما رايت الدم القانى يتساقط منه فى الضوء الاحمر ، سرت بين جوانحى حمية العنف السالف ، وقلت لهم :

ـ اتركوه لى يا اخوانى !.. دعوه لى الان !..

وقال اليهودى السمين محبذا :

ـ نعم ، نعم ياالولاد !.. هذا هو العدل !.. اعطه الدرس يا اليكس !..

وهكذا تخلو عنه ، وسرعان ما هجمت عليه الاحقه باللكمات فى كل مكان وانا اتواثب من حوله ، ثم عاجلته بحركة (مقص) هوى على اثرها الى الارض .. واخيرا رفسته رفسة شديدة على راسه حتى انبعث أنينه محتبسا قبلما غاب عن الوعى .. وقال (الدكتور) :

ـ حسن جدا .. اظن ان هذا الدرس يكفيه .. دعوه ؛ لم بانه سيكون ولدا صالحا فى المستقبل !..

وهكذا عدنا جميعا كل الى دكته لكى ننام ، لفرط ما كنا نشعر به من التعب والجهد ..

وقد حلمت فى نومى يا اخوانى وكاننى فرد فى فرقة اوركسترا

.يرة تضم مئات ومئات من العازفين الاقوياء ، وكان قائد الاوركسترا
.سبطا من بتهوفن وهاندل ، اصم واعمى معا ، تلوح عليه امارات
الاعياء من الدنيا كلها .. وكنت عضوا فى فريق آلات النفخ ، ولكن
كنت اعزف عليه كان اقرب الى بوق من اللحم البشرى ينتفخ منبثقا
.. بدنى فى وسط البطن ، وعندما كنت انفخ كنت اضحك عاليا لان
.مرف كان كانه يدغدغنى ، وما لبث بتهوفن ـ هاندل ان انتابه الغيظ
والضيق ، ثم اقترب منى وصرخ عاليا فى اذنى ، وعندها صحوت من
النوم والعرق يتفصد من جسدى .. طبعا كان الصراخ هو جرس
السجن يتردد ايقاظا للنيام .. كان الوقت صباح يوم شتاء ، وشعرت
انى لا أكاد أفتح جفونى الملتصقة من النوم فى الضوء الكهربائى الذى
.مر (حديقة الحيوانات) .. ولما نظرت الى تحت وقع نظرى على
السجين الجديد ممددا على الارض داميا ومرضوضا ولا يزال غائبا
.. الوعى .. وهنا تذكرت ماحدث فى الليلة الماضية ، مما جعلنى
ابتسم يسيرا ..

ولكن عندما نزلت من الفراش وحركت السجين بقدمى الحافية
شعرت بجسم متصلب بارد ، وهكذا اتجهت الى فراش (الدكتور)
.هززته ، اذ كان يستيقظ بطيئا فى الصباح .. غير انه ترك دكته
.سرعا هذه المرة ، وحذا الاخرون حذوه ، فيما عدا (وال) الذى
كان ينام كجثة .. وقال (الدكتور) :
ــ بالسوء الحظ !.. لابد انه اصيب بنوبة قلبية !..
ثم أردف وهو ينظر الينا جميعا :
ــ فى الحقيقة ماكان يجب أن تجابهوه بمثل هذه الكيفية ..
كانت هذه خطوة تدل على سوء التفكير والتصرف !..
فقال (جوجون) :
ــ خل عنك هذا يا (دكتور) !.. انت نفسك لم تتأخر عن
توجيه لكمة غادرة ..
وعندئذ واجهنى اليهودى السمين قائلا :
ــ يا اليكس !.. انت ايضا كنت شديد العنف !.. ان الرفسة
التى وجهتها اليه كانت قاتلة !..
اذ ذاك تملكنى الغضب ورحت اقول :
ــ من الذى بدأ بالضرب ؟.. انا لم اتدخل الا فى الاخر !..
واستدرت الى (جوجون) وقلت له :

ـ كانت الفكرة كلها من عندياتك !..

وقاطعنى لحظتها غطيط (وال) ، فقلت :

ـ ايقظوا هذا الحيوان !.. انه هو الذى كان ينهال على فم القتيل بالكلمات بينما كان اليهودى السمين محاصرا له عند الباب ..

فقال (الدكتور) :

ـ لا احد ينكر ان كل واحد منا اشترك فى توجيه ضربة خفيفة اليه .. لكى نعطيه درسا على حد قول القائل .. لكن الواضح هو انك انت ياعزيزى الصغير ، بما فيك من فتوة الشباب واستهتاره ، قد اهويت عليه بالضربة القاضية !..

فقلت :

ـ ياخونة !.. ياخونة وكذابين !..

فقد بدا لى انه ما اشبه الليلة بالبارحة ، عندما تخلى عنى رفاقى المزعومون منذ عامين لكى اقع فى ايدى رجال الشرطة .. فهكذا لا ثقة فى الدنيا كلها يا اخوانى ، كما تجلى هذا لعينى تماما !.. واتجه (جوجون) وايقظ (وال) ، فكان (وال) مبادرا الى الحلف بأن محدثكم المتواضع هو الذى اهوى بالضربات الوحشية !.. ولما قدم الحراس ثم كبيرهم ، ثم محافظ السجن ذاته ، راح رفاق زنزانتى هؤلاء يتسابقون فى سرد مختلف الروايات عما فعلته بهذا المجرم الصريع الذى تمددت جثته المخضبة بالدماء على الارض ..

كان يوما غريبا مشهودا يااخوانى .. فقد نقلت جثة القتيل ، وصدر الامر باحتجاز كافة المسجونين فى زنزاناتهم تحت القفل حتى صدور اوامر اخرى ، ولم يوزع شىء من التموين على احد ، حتى ولا كوز شاى .. كل ماحدث هو اننا قبعنا جميعا فى اماكننا ، وكان الحراس يسيرون جيئة وذهابا ، وهم يصيحون بين وقت وآخر ان (اخرسوا) او (اقفلوا افواهكم) كلما سمعوا ولو همسا من احدى الزنزانات ..

وحوالى الساعة الحادية عشرة صباحا حدث هرج ومرج لخارج الزنزانة ، ثم رفعت انظارنا على محافظ السجن ورئيس الحراس وعدد من الشخصيات الهامة يسيرون مسرعين يتحادثون باهتمام متجهين الى نهاية الممشى ، ثم سمعناهم يعودون ادراجهم بخطى بطيئة هذه المرة ، وكان بوسعنا ان نسمع صوت محافظ السجن وهو رجل بدين عارق اشقر الشعر يردد كلمات مثل : « لكن يا سيدى ؟ » ...

وبعد ذلك توقف الجميع عند زنزانتنا وفتح رئيس الحرس بابها .. وكان فى الامكان معرفة صاحب الشخصية الهامة بين القادمين ، وكان طويل القامة ازرق العينين فاخر الثياب ، اذ كان يرتدى أجمل بدلة رايتها فى حياتى ... كانت تمثل قمة (الموضـــة) .. وقد تنازل وشملنا نحن المسجونين بنظرة عامة ، قائلا بصـــوت عذب ولهجة راقية :

ــ ان الحكومة لايمكنها أن تحصر اهتمامها بعد الان فى نظريات عقابية للاجرام عفا عليها الزمن .. كدس المجرمين جنبا لجنب معا ، ثم انظر ماذا يحدث .. النتيجة هى افعال جنائية مركزة ، وجرائم فى صميم العقوبة .. ثم لن يمضى وقت طويل حتى نحتاج الى كافة مواقع السجون لاستيعاب المذنبين السياسيين » ..

انني ياأخواني لم افهم هذا الكلام بتاتا ، لكن مهما يكن فانه لم يكن بوجه كلامه الى شخصيا ..

وما لبث ان مضى يقول :

ــ ان المجرمين العاديين من امثال هذا الجمع الكريه (وهو يعنينى باخوانى ورفاقى هؤلاء المجرمين الخونة) يمكن التعامل معهم على أساس علاجى صرف ... نقتل النزوع الاجرامى فى نفوسهم ، هذا كل شيء .. انجاز شامل فى ظرف عام .. ان العقوبة لا تعنى شيئا عندهم ، وهو ما يمكنهم رؤيته بسهولة .. انهم لينعمون بالعقوبة المزعومة .. انهم يبداون بقتل بعضهم البعض ..

وانجهت عيناه الزرقاوان الى بنظرة صارمة وهو يقول هذا ، وهكذا قلت له بجراة :

ــ مع الاحترام ياسيدى ، اننى اعارضك بكل قوة فيما قلته !.. انا لست من المجرمين العاديين ياسيدى ، ولست كريها !.. ان الاخرين يمكن ان يكونوا كريهين ، ولكننى لست كذلك !..

وهنا صعد الدم الى وجه رئيس الحراس حتى احتقن وصاح بى قائلا :

ــ اقفل فمك ياهذا !.. الا تعرف مع من تتكلم ؟!..

فقال صاحب الشخصية الكبيرة :

ــ لا بأس .. لا باس ...

ثم التفت الى محافظ السجن وقال :

ـ يمكنك استعماله رائدا في التجربة .. هو فني ، وجريء ، وشرير ... ان (برودسكي) سوف يتعامل معه من باكر ، ولك ان تستعد وتراقب برودسكي .. ان العملية سوف تنفذ بنجاح : فلا تقلق بشانها .. ان هذا الحدث الشقي سوف يتحول الى كينونة اخرى لا تكاد تعرفها ..

وحقا يا اخواني ؛ لقد كانت هـذه الكلمـات الصارمة بداية حريتي !..

الفصـــــل الثـالـــــث

فى نفس هذا المساء قادنى الحراس الغلاظ بكل ترفق الى مكتب محافظ السجن او قدس الاقداس .. وقد نظر الى المحافظ فى اعياء وقال لى :

ـ لا اظن انك تعرف من كان ذلك الضيف صباح اليوم ، هل تعرف يارقم ٦٦٥٥٣٢١ ؟..

وقبل أن ينتظرنى لكى اقول لا عاجلنى قائلا :

ـ لم يكن صاحب تلك الشخصية اقل من وزير الداخليـة ، وزير الداخلية الجديد ، وهو ما يسمونه (المكنسة الجديدة) .. لا باس اذن .. ان تلك النظريات الجديدة المضحكة قد جاءت اخيرا ، والاوامر هى الاوامر ، وان كنت اقول لك فيما بينى وبينك اننى لا اوافق عليها .. اننى بكل تاكيد لا اقرها .. العين بالعين هى شريعتى .. اذا لطمك احد ترد له اللطمة ، اليس كذلك ؟.. فلماذا اذن لا تعمل الدولة عندما تضربونها بوحشية يامعشر المجرمين العتاة على أن ترد لكم الضربة بمثلها او اشد منها ؟.. لكن النظرية الجديدة تقول (لا) .. النظرية الجديدة هى ان نعمل على تحويل الفاسد الى صالح .. وكل هذا يبدو لى ظلما فاحشا !..

فقلت له محاولا ان ابدو فى مظهر الاحترام والمجاراة :

ـ سيدى ..

وهنا صرخ رئيس الحراس الذى كان واقفا خلف مقعد محافظ السجن محمرا منتفشا :

ـ اقفل فمك القذر ياحشرة !..

ـ فقال المحافظ الذى ظل على اعيائه :

ـ لا باس .. لا باس .. انت يارقم ٦٦٥٥٣٢١ ، لقد تقرر اصلاحك .. غدا سوف تذهب الى هذا الرجل برودسكي .. واعتقد انه سوف يمكنك الخروج من السجن رسميا بعد فترة اسبوعين تقريبا .. بعد فترة أسبوعين تقريبا سوف تعود من جديد طليقا فى الدنيا الواسعة ، ولا تصبح بعد مجرد رقم ..

وخالجت لهجته نبرة تهكم وهو يقول :
ـ اظن ان الامل المرتقب سوف يسرك ؟..
لم اقل شيئا .. وهكذا صرخ رئيس الحراس قائلا :
ـ رد ، أيها الخنزير الصغير القذر ، عندما يوجه المحافظ سؤالا اليك !..
وهكذا رحت اقول :
ـ آه ، نعم ياسيدى !.. اشكرك شكرا جزيلا ياسيدى !.. انني بذلت افضل ماعندى هنا ، حقا وصدقا .. انني شديد الامتنان لكافة الاطراف المعنية ..
فأوشك المحافظ ان يتنهد وهو يقول :
ـ لا لزوم لهذا .. ليس هذا من قبيل المكافأة .. بل انه ابعد مايكون عن المكافأة .. والان ، هنا استمارة ستوقع عليها بامضائك .. وهي تنص على رغبتك في ابدال المدة الباقية من العقوبة المحكوم بها عليك بقبول ماهو مدون هنا طبقا للتعبير المضحك باسم (العلاج الاصلاحي) .. فهل توقع الاستمارة ؟..
فقلت :
ـ بكل تاكيد ياسيدى ، سأوقع !.. وشكرى لا حدود له !..
وهكذا اعطوني قلم حبر ، فوقعت باسمي بخط جميل منتشر ..
فقال المحافظ :
ـ لا بأس .. هذا كل شيء ، فيما اظن ..
فقال رئيس الحراس :
ـ ان قسيس السجن يود ان تكون له كلمة معه ياسيدى ..
وهكذا اقتادوني في الردهة الى جناح الكنيسة الصغيرة ، وكانوا ينخسونني طول الطريق على ظهرى ورأسي ، ولكن بكيفية روتينية .. وعند وصولنا الى مقصورة القس تركوني ادخل ، فكان القس جالسا الى مكتبه تفوح من حوله رائحة بنية للسجائر الفاخرة و (الاسكوتش) ، وقال لي :
ـ آه يارقم ٦٦٥٥٣٢١ يا صغير .. اجلس !..
وخاطب الحراس قائلا :
ـ انتظروا في الخارج ..
فامتثلوا ... ثم راح يقول لي بلهجة يغلب عليها الجد الكبير :
ـ شيء واحد اريدك ان تفهمه ياولد ، وهو ان هذه المسألة

.. صلة لها بى شخصيا .. لو انها كانت متصلة بالمصلحة الشخصيه .. ابلتها بالاعتراض ، لكنها ليست كذلك .. هناك اعتبار وضعي .. لهنى ، وهناك اعتبار ضعف صوتى اذا قورن بعناصر أشد قوة في .. دولة .. هل ترانى أوضحت لك الموضوع ؟..

انه لم يوضح شيئا يا اخوانى ، ولكننى اومات براسى مبديا .. ه اوضح الموضوع فعلا ، فاستطرد يقول :

ـ هناك اعتبارات اخلاقية عويصة مرتبطة بالموضوع .. لقد .. در ان يجعلوا منك شخصا صالحا يارقم ٦٦٥٥٣٢١ .. وابدا لن .. بيا لك الرغبة لارتكاب اعمال العنف او الاعتداء باية كيفية مهما .. ت على أمن الدولة واستتباب الامن عموما .. ورجائى أن تضع .. ذا نصب عينيك وان تستوعبه تماما .. واملى ان تفهم هذا كل .. فهم وان يكون واضحا فى ذهنك كل الوضوح ..

فقلت له :

ـ آه !.. انه لشيء جميل ياسيدى ان يكون الانسان صالحا..

قلتها وأنا ابتسم فى دخيلتى يااخوانى ..

فقال لى :

ـ قد لايكون شيئا محببا أن يكون الانسان صالحا يا رقم ٦٦٥٥٣٢١ ، قد يكون شيئا مريعا أن يكون الانسان صالحا .. وعندما اقول لك هذا فاننى مدرك كيف ابدو فى هذا شديد المناقضة .. سى .. وانا اعرف اننى سامضى ليالى كثيرة مؤرقا مسهدا فى صدد .. ا .. ماذا يريد الرب ؟.. هل يريد الصلاح ، او اختيار الصلاح ؟.. .. ل الانسان الذى يختار الفساد ربما كان فى ناحية ما افضل من .. لانسان الذى يكون الصلاح مفروضا عليه فرضا ؟! .. هذه اسئلة .. يقة وصعبة يارقم ٦٦٥٥٣٢١ .. لكن كل ما اريد أن اقوله لك الان .. هذا : اذا أنت رجعت بنظرك فى المستقبل فى اى وقت الى هذه .. رة وتذكرتنى ـ انا ادنى واكثر خدام الرب اتضاعا ـ فرجائى .. ائى الا تسيء الظن بى فى ضميرك وقلبك ، ظنا باننى متورط باى .. من الاشكال فيما يوشك الان ان يحل بك او يحدث لك .. والان ، على ذكر الدعاء ، فاننى أدرك بحزن انه لا جدوى من الدعاء .. ن اجلك .. وهذا شيء مريع مريع جدا يتدبره الانسان .. ومع .. ذلك ، وعلى نحو ما ، فان فى اختيار المرء الحرمان من القدرة على .. ار أخلاقى ، يدل فى معنى من المعانى على اختيارك للصلاح فعلا ..

هذا . سوف اذهب اليه فى تفكيرى .. وليشملنا الرب بعونه جميعا يارقم ٦٦٥٥٣٢١ ..

وعندئذ اخذ يبكى ، بيد اننى لم احفل بهذا كثيرا ، وان تبسمت فى دخيلتى ، اذ كان واضحا انه تعاطى الويسكى كثيرا .. وما لبث الآن ان اخرج زجاجة من الدولاب وبدا يصب قدرا كبيرا منها فى كأس يعلوها كثير من الشحم .. وقد تجرع الشراب كله ثم عاد يقول :

ـ كل شىء قد يمضى بخير ، فمن يدرى ؟.. الرب يدبر الامور بكيفية لا نعلم سرها المغيب عنا ..

ثم بدا يترنم بترنيمة فى صوت مرتفع .. وبعدها فتح الباب ودخل الحراس لكى يعيدونى الى زنزانتى الزنخة ، بيد أن القس المسن مضى فى ترنمه ..

لا بأس .. وفى صباح اليوم التالى كتب على ان اودع السجن العتيد . وقد خامرنى شىء من الاكتئاب كما يحدث للانسان دائما اذا اريد له أن يفارق مكانا اعتاد عليه .. لكننى لم ابتعد كثيرا بالخوانى ، وانما اقتادونى بالنخس والدفع الى المبنى الابيض الجديد المجاور للساحة التى كنا نمارس فيها التمرينات الرياضية .. كانت هذه البناية حديثة جدا لا تكاد تدلف اليها حتى يتملكك نوع من القشعريرة ، اذ كانت ردهتها العارية باردة وتفوح فيها روائح كروائح المستشفيات ، وكان الشخص الذى سلمنى الحارس اليه يرتدى معطفا ابيض كما لو كان يعمل فى مستشفى ؛ وقد وقع ايصالا باستلامى ، وقال له احد الحراس الذين رافقونى :

ـ راقب هذا المخلوق ياسيدى .. انه كان مخلوقا شرسا لعينا ، وسوف يظل هكذا على الرغم من انه كان محل عطف قسيس السجن ويقرا الكتاب المقدس ..

غير أن هذا الشخص الذى كان ازرق العينين قابل هـــذا التعريف بالابتسام ؛ ورد قائلا :

ـ آه .. اننا لا نتوقع اية متاعب يا اصـدقائى .. اليس كذلك ؟

وافتر فمه الواسع ذو الاسنان الناصعة البياض عن ابتسامة عريضة حتى لقد انست اليه من فورى .. ومهما يكن فقد سلمنى بدوره الى شخص آخر ادنى منه مرتبة ولكنه كان لطيفا مثله . فقادنى الى غرفة نوم بيضاء نظيفة جدا بها ستائر ومصباح بجانب الفراش ،

وكان سرير وحيد كله لحدثكم المتواضع ، حتى لقد بسمت فى دخيلتى لما ارى ، وبدا لى اننى انسان محظوظ جدا .. ثم قيل لى ان أخلع ملابس السجن البشعة ، واعطيت لى بيجاما جميلة خضراء اللون يا اخوانى بدت كانها قمة (الموضة) بين ملابس النوم !.. بل اعطيت فوق هذا (روبا) بديعا دافئا و (شبشبا) انيقا أضع فيه قدمى الحافيتين ، حتى لم اتمالك ان قلت لنفسى :

ــ لا بأس يا اليكس ياولدى ، يامن كنت رقم ٦٦٥٥٣٢١ !.. لقد ابتسم لك الحظ بلا شك ولا مراء !.. ولسوف تستمتع حقا بوجودك هنا !..

وبعد ان اعطونى قهوة ممتازة وبعض الجرائد والمجلات القديمة لكى اتصفحها وانا اشرب هانئا ، جاءنى الشخص الاول وهو الذى وقع باستلامى وقال لى متطلعا :

ــ ها انت ذا هنا .. اسمى دكتور برانوم ، وانا مساعد الدكتور برودسكى .. وبعد اذنك ساقوم بالفحص الطبى المعتاد ..

واخرج من جيبه الايمن السماعة المالوفة وتابع كلامه قائلا :

ــ علينا ان نتأكد من تمام لياقتك البدنية ، اليس كذلك ؟.. نعم ، لابد من هذا ..

وهكذا تمددت امامه رافعا صدر البيجاما حيث اخذ يقوم بفحصه هنا وهناك ؛ وبعد ان فرغ من صدرى قلت له :

ــ ماذا هناك بالضبط ياسيدى ؟ ما الذى ستفعلونه ؟..

فأجاب الدكتور برانوم وهو يجيل سماعته الباردة فوق ظهرى من اعلاه الى اسفله :

ــ المسألة فى منتهى البساطة فعلا .. كل ماهناك اننا سوف نريك بعض الافلام ..

ــ افلام ؟! ..

لم اصدق سمعى حقا بالخوانى كما لكم ان تدركوا هذا ، ومضيت اقول :

ــ تعنى ان المسألة ستكون مثل الذهاب الى السينما ؟! ..

فقال الدكتور برانوم :

ــ انها ستكون أفلاما من نوع خاص .. افلاما خاصة جدا .. وستكون (الجلسة) الاولى بعد ظهر اليوم ..

واضاف وهو ينهض عنى :

ــ نعم .. انك تبدو صبيا فى تمام اللياقة .. ربما كنت دون

مستوى التغذية الواجبة الى حد ما ، وهذا راجع الى طعام السجن..
والان البس قميص البيجاما ..
وأردف وهو يجلس على حافة الفراش :
ـ بعد كل وجبة سنعطيك حقنة في الذراع ، وفي هذا مايساعد حالتك ..
والحق انني شعرت بكل الامتنان لذلك الدكتور برانوم اللطيف، وقلت له :
ـ أهي فيتامينات ياسيدي ؟..
فاجاب وهو يبتسم في مودة ورقة :
ـ شيء كهذا .. مجرد رشقة في الذراع بعد كل وجبة ..
ثم خرج على الاثر ..
بعدها تمددت في الفراش متأملا كانني في السماء ، ثم اخذت اقرا في بعض المجلات التي جاءوني بها : الرياضة العالمية ، سيني (وهي مجلة سينمائية) ، الاهداف (مجلة كروية) ..
وبعد فترة عدت الى الاستلقاء في الفراش واغمضت عيني افكر في متعة الحياة التي ساعيشها من جديد ، فاجد عملاً سهلا أمارسه في النهار ، بعد ان كبرت الان بالنسبة للمدرسة ، ثم اشكل عصبة جديدة للنشاط الليلي ، واول ما افعله في هذا الشان هو البحث عن ديم وبيتر ، ان لم يكونا وقعا في قبضة الشرطة .. في هذه المرحلة المقبلة سألتزم الحرص لكيلا يقبض علي .. لاشك انهم الان يمنحونني فرصة اخرى ، انا الذي اقترفت القتل وكل مايتصل بهذه الافعال ، ولن يكون من الصواب ان يقبض علي من جديد ، بعد ان يتجشموا كل هذا العناء ليروني الافلام التي ستجعل مني شخصا صالحا !..
وافقت من تأملاتي تلك مبتسما عندما جاءوني بطعام الغداء في صحفة .. وكان الذي جاء به هو الشخص الذي قادني الى غرفة النوم هذه عندما جئت الى المبنى الجديد ، وقد قال لي :
ـ شيء لطيف ان يرى الانسان شخصا سعيدا ..

وكان الطعام في الواقع مشهيا .. قطع من (الروزبيف) الساخن محفوفة بالبطاطس والخرشوف ، الى جانب (الايس كريم) وقدح شاي ساخن .. بل كان مع الطعام ايضا سيجارة لكي ادخنها مع علبة ثقاب بها عود واحد .. هذه اذن يا اخواني هي الحياة المتعة .. وبعد حوالي نصف ساعة امضيتهامستلقيا في خدر كالنوم ، اقبلت

ممرضة شابة جميلة ذات نهدين بارزين (وانا لم اشهد مثلهما منذ مامى) ومعها صحفة وحقنة .. فقلت لها :
ــ آه !.. الفيتامينات المنتظرة !..
ومصمصت شفتى امامها ولكنها لم تهتم .. وكل ما فعلته هو انها دست ابرة الحقنة فى ذراعى اليسرى ، وسرعان ما انسابت مادة الفيتامين .. وعلى الاثر خرجت وهى تطقطق بقدميها ذات الكعب العالى .. ثم جاء الشخص السالف والظاهر انه ممرض وكان يقود كرسيا بعجلات .. فادهشنى هذا حتى قلت :
ــ ماهى الحكاية يا اخ ؟.. بامكانى ان امشى بالتاكيد الى اى مكان تريدون ان اذهب اليه !..
لكنه رد بقوله :
ــ الافضل ان ادفعك الى هناك ..
وفعلا يا اخوانى ، ما ان نزلت من الفراش حتى الفيتنى اشعر بضعف يسير .. لاشك أن السبب هو سوء التغذية كما قال الدكتور بارنوم بطعام السجن الشنيع !.. لكن من المؤكد أن حقنة الفيتامينات بعد كل وجبة كفيلة بتصحيح كل شىء .. ما من شك فى هذا ، كما فكرت وقدرت !..

الفصـــــل الرابــــع

ان ما اقتادوني اليه ، يا اخواني ، لم يكن شبيها بأى سينما رايتها في حياتي !.. صحيح أن احد الحوائط كان مغطى كله بستار فضى ، وفى مواجهته حائط به فتحات مربعة لآلة العرض ؛ كما كان يوجد جهاز (استيريو) له مكبرات للصوت موزعة فى أرجاء المكان .. هذا فضلا عن اجهزة قياس صغيرة متعددة وضعت فوق منصة لدى احد الحوائط الاخرى ؛ وفى وسط الارضية وبمواجهة الستار قام مايشبه كرسى طبيب الاسنان امتدت منه كل أنواع الاسلاك ؛ وقد مررونى بصعوبة بين الاسلاك بعد انزالى من المقعد المتحرك الى الكرسى الطبى بمساعدة ممرض آخر فى رداء ابيض .. ولاحظت وجود شبه حائط من الزجاج الحبيبى اسفل فتحات العرض . رايت من خلاله اخيلة رجال يتحركون وخيل الى انني سمعت بعضهم يسعل مرارا هناك .. لكن الذى استرعى اهتمامى بعد ذلك شعورى بضعف متزايد. وان عزوت هذا الى الانتقال من حالة سوء التغذية فى السجن الى التغذية الصحية والفيتامينات التى حقنونى بها ..

وقال الممرض الذى قادنى فى الكرسى المتحرك :

ـ حسن .. الان ساتركك .. ان العرض سيبدأ حالما يصل الدكتور برودسكى .. ارجو أن تتمتع به ..

وان اردتم الحق يا اخوانى قلت اننى لم اشــعر بانى اريد مشاهدة اى عرض سينمائى هذا المساء ؛ اذ لم يكن لى مزاج لهذا ، وكنت افضل كثيرا رقادا هانئا هادئا فى الفراش ، مع خلوة لطيفة بنفسى .. فقد كنت احس بخدر يكاد يشل اطراف ..

وما حدث بعد ذلك هو ان احد لابسى المعاطف البيضاء شد راسى بسيور الى مسند للراس وهو يتغنى باغنية شائعة ، فقلت له :

ـ لم هذا ؟..

فقطع اغنيته برهة واجاب بان ذلك من اجل تثبيت راسى وجعل نظرى موجها الى الستار الفضى .. فقلت له :

ـ لكنني اريد ان انظر الى الـ ار معلا .. انهم احضروني الى هنا لمشاهدة الافلام ، ولابد ان اشاهد الافلام !..

وهنا قال واحد من لابسي المعاطف البيضاء باسما ! وكانوا ثلاثة ، احدهم امرأة كانت جالسة الى اجهزة القياس تدير بعض المقابض والازرار :

ـ لا يمكن ان نتاكد من شيء !.. لايمكن ان تتأكد من شيء !.. ثق بنا ياصديقي .. هكذا افضل ..

وعندئذ وجدتهم يربطون يدى بالسيور الى ذراعى الكرسى ويثبتون قدمى فى القاعدة .. لقد بدأ هذا غريبا فى نظرى ، ولكنني تركتهم يمضون فيما يريدون بى .. فاذا كان يراد ان اغدو طليق السراح من جديد فى مدى اسبوعين ، فلا مفر ان اتجاوز عن الكثير فى الوقت الحالى يا اخوانى !.. ومع ذلك كان ثمة شيء واحد لم استرح اليه ، وذلك عندما وضعوا مايشبه المشابك على بشرة جبينى الى حد أن شعرت بجفنى العلويين يجذبان الى اعلى حتى لم اعد استطيع اغماض عينى رغم كل محـــاولاتى .. نقلت وانا اغتصب الابتسام :

ـ لابد انه سيكون احد افلام الرعب مادمتم مهتمين هكذا بمشاهدتى له !..

فرد احد لابسى المعاطف البيضاء باسما :

ـ صدقت ياصاحبي .. هو عرض حقيقى للرعب والفظائع !..

ثم البسوني بعد ذلك مايشبه طاقية مثبتة على الراس تتدلى منها اسلاك كثيرة ، والصقوا ببطنى شبه لبادة ماصة واخرى فوق موضع القلب ، ولمحت بعد ذلك اسلاكا ممتدة منهما ..

وبعد هذا كله سمعت صوت باب يفتح ، مقترنا بمـا ينبيء بقدوم شخصية هامة جدا ، اذ وقف لابسو المعاطف البيضـاء وقفة الانتباه والاستعداد .. واخيرا وقع نظرى على الدكتور برودسكى هذا !.. كان رجلا مهيبا موفور البدانة ، يكسو هامته شعر مجعد ، تعلو انفه نظارة شديدة السمك ، وكان مرتديا بدلة بالغة الاناقة .. كان فى صحبته الدكتور برانوم الذى رايته بفيض ابتساما وكانما يريد بث الثقة فى نفسى ..

وما لبث الدكتور برودسكى ان قال فى لهجة من اعتاد الادارة والتوجيه :

ـ كلّ شيء على استعداد ؟..

فسمعت اصواتا من بعيد ومن قريب تجيب بالايجاب . وعلى الاثر انبعث طنين هادىء كانما اديرت ازرار ومفاتيح .. ثم انطفأت الانوار . واذا محدثكم وصديقكم المتواضع يجلس وحيدا فى الظلام تتوزعه المخاوف ولا يستطيع ان يحرك او يغمض عينيه .. وبعدها يا اصدقائى بدا العرض السينمائى تسبقه موسيقى عنيفة مملوءة نشازا من خلال مكبرات الصوت .. ثم لاحت الصورة على الستار . لكن لم يسبقها عنوان ولا تعليقات .. كان ما ابصرته شارعا مثل اى شارع فى اية مدينة ، وكان الوقت ليلا والمصابيح مضاءة وكانت الصورة جيدة جدا وخلوا من النقاط والبقع التى يراها المشاهد لاحد الافلام القذرة فى بيت باحد الشوارع الخلفية .. وكانت الموسيقى تدوى طول الوقت عنيفة وكانها تمهد لشيء مشئوم .. ثم ظهر رجل يسير فى الشارع بادى الاحترام ، وفجاة هجم عليه شابان بملابس (الموضة) فى تلك الفترة (وهى البنطلون الضيق ولكن بربطة عنق عادية) ، واخذا يناوشانه ، واقترن ذلك بصرخاته وتأوهاته التى كانت تسمع بوضوح الى جانب لهث الشابين المعتدين .. واستحالت المناوشة الى ضربات ولكمات عنيفة وتمزيق للملابسه ثم ركل جسمه المعرى بالاقدام وتفصد الدم القانى منه ممتزجا بوحل الارض ، وعلى الاثر فر المعتديان ركضا .. وفى ختام المشهد بدا راس المعتدى عليه والدم ينزف منه غزيرا ، وكانك ترى مشهدا فى عالم الواقع ..

واثناء مشاهدتى لهذا الفيلم بدات اشعر اننى لست على مايرام ، وعزوت هذا الى سوء التغذية وعدم استعداد معدتى لتقبل الغذاء الدسم والفيتامينات التى أعطيت لى .. بيد اننى حاولت أن انسى هذا وان اركز على الفيلم التالى الذى عرض مباشرة دون ادنى توقف يا اخوانى !..

ان هذا الفيلم الثانى بدا وكانه وثب على الستار وثبا ، وكان يمثل امراة شابة يعتدى عليها شبان واحدا بعد الاخر وهى تصرخ بصورة مؤثرة من خلال الموسيقى الصاخبة المنبعثة من مكبرات الصوت .. وما ان فرغ آخرهم حتى بدات اشعر بالغثيان وبآلام شملتنى تماما وبميل الى القيء وبكرب عظيم ياخوانى وانا مصلوب فى هذا الكرسى !..

وعندما انتهى عرض هذا الفيلم الثانى استطعت ان اسمع صوت الدكتور برودسكى هذا وهو يقول من ناحية لوحة الازرار والمفاتيح :

ـ رد العمل [illegible] .. مبشر !.. مبشر !..

وبعد هذا [illegible] الى فيلم ثالث ، وكان فى هذه المرة يمثل وجه انسان [illegible] مع شديد الامتعاع فى وضع ثابت وتتداوله عمليات بشعه [illegible] .. لقد شعرت بالعرق يسيل فى جسدى بسبب الم فى امعائى وعطش [illegible] وضربات شديدة فى راسى ، وبدا لى اننى لو لم اكن استطيع اطباق عينى ، وحتى لو حاولت تحريك عينى جانبا لما استطعت ان احيد عن خط نار الرؤية لهذه الصورة .. وهكذا كنت مقسورا على الاستمرار فى مشاهدة مايجرى وسماع ابشع الصرخات الصادرة من ذلك الوجه .. وكنت اعلم ان شيئا كهذا لا يمكن ان يكون حقيقيا ، بيد أن هذا لم يغير من الامر شيئا .. ولقد شعرت بان جوفى يموج ولكن لم استطع أن اتقيا وانا ابصر اول الامر مدية تخرج عينا من محجرها ثم تنحدر فتشق الخد شقا ثم تعمل فى الوجه كله تمزيقا علوا وسفلا ، بينما كان الدم الاحمر القانى يتفجر فى عدسات الكاميرا .. ثم امتدت تنزع الاسنان بزردية واحدة واحدة ، فكان الصراخ والدم يملأ القلب رعبا .. وبعد ذلك كله سمعت صوت الدكتور برودسكى هذا يقول مبتهجا :

ـ ممتاز !.. ممتاز !.. ممتاز !..

وكان الفيلم التالى يمثل امراة عجوزا فى دكان لها تركل ركلا ، بالاقدام على ايدى عصبة من الشبان الذين مالبثوا أن حطموا الدكان ثم اضرموا النار فيه .. وكنت تستطيع رؤية تلك المراة المنكودة وهى تحاول الزحف من براثن اللهب وهى تصرخ صراخا مدويا ، بيد ان ساقيها التى كسرها الشبان من كثرة الرفس منعتها من الحركة .. وهكذا احاطت بها السنة اللهب المستعر ، وكنت تستطيع رؤية وجهها الهالع وقسماته تستعطف وتبتهل من خلال اللهيب المضطرم ثم يختفى بين اطوائه ، وكنت تستطيع سماع اهول صرخات النزع والعذاب التى تنفطر لها القلوب ويمكن أن يعبر عنها صوت بشرى .. وهكذا شعرت هذه المرة انه لابد ان اتقيا ، فصرخت قائلا :

ـ اريد أن اتقيا !.. ارجوكم ان تدعونى اتقيا !.. ارجوكم احضار شىء لكى اتقيأ فيه !..

بيد أن الدكتور برودسكى هذا رد قائلا :

ـ هذا تخيل فقط .. ليس بك مايدعو الى القلق .. الفيلم التالى جاهز !..

لعله كان يقصد المزاح بعبارته تلك ، فقد سمعت صوت

ضحكة صدرت فى الظلام .. وعلى الاثر اجبرت على مشاهدة إفظع فيلم عن التعذيب فى حرب ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥ .. فقد وقع نظرى على جنود يصلبون الى جذوع الشجر بالمسامير والنار توقد من تحتهم ، واذا خصياتهم تقطع قطعا ، واذا راس احدهم تجتز بالسيف ، واذا الراس يتدحرج على الارض ومازالت الحياة بادية فى الفم والعينين ، واذا جسد الجندى ذاته يدور على نفسه قبل ان يخر على الارض والدم يتدفق من عنقه مثل نافورة ـ وفى خلال ذلك كله لم تنقطع ضحكات الجنود المنتصرين !.. ان الالام المبرحة التى شعرت بها الان فى بطنى وراسى والعطش المشتد كانت فى الحق مروعة .. وهكذا رحت اصرخ بهذه الكلمات :

ـ اوقفوا الفيلم !.. ارجوكم اوقفوه !..

لا يمكن ان احتمل اكثر من هذا !..

وعندئذ سمعت صوت الدكتور برودسكى هذا يقول :

ـ نوقف الفيلم ؟ قلت نوقف الفيلم ؟ عجبا ! اننا لم نكد نبدا !..

وضحك هو والاخرون ضحكا رنانا !..

الفصـــل الخـامـــس

لست أود ان اصف ، يا اخواني ، تلك الفظائع الاخرى التي اجبرت على مشاهدتها عصر ذلك اليوم .. لقد بدا لي ان عقول الدكتور برودسكي والدكتور برانوم وغيرهما من لابسي المعاطف البيضاء - ولا انسى تلك المراة الجالسة الى اجهزة القياس تدير الازرار والمقابض - بدا لي ان عقولهم جميعا لابد ان تكون اسوا واحط من عقول نظرائهم في السجن العمومي ذاته !.. ذلك لانني لم يخطر ببالي أن يستطيع احد ان يفكر في عمل افلام كالتي اكرهت على مشاهدتها وانا مقيد من قمة راسي الى اخمص قدمي في ذلك الكرسي وعيناي مشدودتان على سعتهما !.. وكل ما استطعته هو ان اصرخ فيهم لوقف العرض صراخا متواصلا غطى على اصوات العنف وصوت الموسيقى المصاحبة لها .. ولك ان تتصور كم تنفست الصعداء عندما انتهى عرض الفيلم الاخير وقال الدكتور برودسكي هذا بصوت ناعس ملول :

- اظن ان هذا يكفي لليوم الاول ، الا ترى هـــذا يا دكتور برانوم ؟..

عند ذلك اضيئت الانوار وراسي يدق دقا عنيفا كآلة ضخمة تولد الالم وحلقي متيبس شديد الجفاف ؛ وبي ميل كبير لكي اقيء كل طعام احتوته معدتي ..

وقال الدكتور برودسكي مرة اخرى :

- لا بأس .. خذوه الى فراشه من جديد ..

ثم اذا هو يربت علي كتفي قائلا :

- بديع !.. بديع !.. هذه بداية مبشرة جدا !..

ذلك ووجهه كله ينضح بالابتسام ، ثم تمطى خارجا يتبعه الدكتور برانوم ، وان كان الدكتور برانوم قد اختصني بابتسامة ودية وعطوف الى ابعد حد وكانه لا صلة له بكل هذا ولا ضلع له فيه وانما هو مكره مغلوب على امره مثلي !..

ومهما يكن فانهم حرروا جسدى من المقعد ورفعوا المشابك

التى كانت تشد جفونى حتى تهيأ لى ان افتح واغمض عينى من جديد ، وقد اغمضتهما فعلا يا اخوانى لفرط شعورى بالالم والدق فى راسى ، وبعدها حملونى الى المقعد المتحرك واعادونى الى غرفة نومى الحبيبة ، وراح الممرض الذى ادار المقعد يردد اغنية شائعة حتى قلت له بحدة :

ـ اسكت يا هذا !..

لكنه لم يعد ان ابتسم ورد على بقوله « لا تهتم يا صاحبى » ، ثم استمر فى الغناء بصوت اعلا !..

هكذا اعادونى الى الفراش وانا لا ازال اشعر بالاعياء ، وان كنت لم استطع النوم ، ولكن بدا لى اننى لا البث ان اتحسن عما قريب ..

ثم جىء لى بشاى دافىء منعش مع لبن كثير ، وبعد ان شربت كفايتى بدا لى ان ذلك الكابوس الفظيع غدا فى اطواء الماضى وانتهى وولى ...

واخيرا جاء الدكتور برانوم متهلل الاسارير وقال باسما :

ـ حسن .. فى تقديرى انه يتعين ان تشعر بانك على ما يرام من جديد .. اليس كذلك ؟..

ثم جلس على حافة الفراش وهو يفيض ابتساما ، واردف قائلا :

ـ ان الدكتور برودسكى مسرور منك .. فقد تجاوبت بصورة ايجابية .. وغدا بالطبع ستكون هناك جلستان ، صباحية ومسائية .. ولابد أن اتصور انك سوف تشعر بالاعياء فى نهاية اليوم .. لكن لابد لنا أن نشتد عليك ، اذ لابد من علاجك وشفائك ..

فقلت له :

ـ تعنى انه لابد من الاستمرار فى ذلك ؟.. تعنى انه لابد ان اشاهد تلك ـ آه !.. كلا !.. كانت شيئا مريعا ، فظيعا !..

فقال الدكتور برانوم باسما :

ـ بالطبع فظيعة !.. ان العنف شىء فظيع جدا .. وهذا هو ما تتعلمه الان .. ان جسدك يتعلمه ..

فقلت :

ـ لكن .. انا لا افهم .. انا لا افهم كيف يكون الشعور بالغثيان كالذى شعرت به .. لم يسبق لى ابدا أن شعرت بهذا .. كنت دائما اشعر بالعكس .. اقصد أننى كنت وانا افعل هذا او اراقب حدوثه لا اشعر بذلك .. وانا لا افهم كيف ، ولماذا ، وما هو ..

فراح الدكتور برانوم يقول بلهجة رصينة :
ـ ان الحياة شيء عجيب ورائع جدا .. عن عمليات الحياة ، من تفاعلات الكيان البشري ـ من يستطيع ان يفهم تمام الفهم هذه المعجزات ؟.. ان الدكتور برودسكي رجل فريد .. ان ماهو حادث لك الان هو ما كان يجب أن يحدث لأى كيان بشرى ، طبيعي ، ومعافى يتدبر تفاعيل قوى الشر ، ومعقبات افعال الدمار .. والان فانه يجرى تحويلك الى كائن سوى ، صحيح ، معافى ..
فقلت :
ـ هذا ما لن يحدث معى ، وما لا افهمه باى حال !.. ان ما تفعلونه معى هو جعلى أشعر باعتلال شديد ، شديد !..
فقال الدكتور برانوم وما زالت الابتسامة الودود تعلو شفتيه :
ـ وهل تشعر الان بانك عليل سقيم ؟.. ان شربك الشاى ، والراحة ، وتبادلك حديثا هادئا مع صديق فى هذا من المؤكد انك لا تشعر باى شيء سوى انك بخير .؟.
لقد رحت التمس الاحساس باى الم او سقم فى راسى وجسدى بحذر واستشفاف ، لكن شعرت حقا وصدقا يا اخوانى اننى على ما يرام ، بل شعرت حتى باننى اريد طعام العشاء !.. ثم قلت :
ـ لا استطيع ان افهم .. لابد انكم تفعلون بى شيئا لكى تجعلونى اشعر بالاعتلال !..
وشفعت هذا بتقطيب كمن يتامل ويتدبر ..
فقال الدكتور برانوم :
ـ انك شعرت بالاعتلال بعد ظهر هذا اليوم لانك كنت تتحسن وتتعافى .. اننا عندما نكون أصحاء معافين فاننا نستجيب لوجود ما هو مكروه بالشعور بالخوف والغثيان .. كل ماهناك هو انك تتماثل للصحة والسواء .. ولسوف تكون أوفر صحة وسواء فى مثل هذه الفترة غدا ..
قال هذا ثم ربت على ساقى وانصرف .. وتركنى احاول ان افهم هذا اللغز العجيب بقدر مايسعفنى الفهم .. وما بدا لى هو ان تلك الاسلاك وغيرها مما ثبتوه على جسدى ربما كانت هى التى جعلتنى اشعر بالاعتلال ، وان كل ذلك ما هو الا خدعة وتلاعب فى الواقع !.. وكنت لازال اتدبر هذا اللغز وافكر فيما اذا كان ينبغى ان ارفض غدا شدى الى ذلك المقعد وأبدا عملية عنف معهم لان لى حقوقى ـ عندما دخل شخص آخر بادى الوجاهة والابتسام وقال

لى انه هو مايسمونه (بضابط الافراج) ، وكان يحمل معه اوراقا كثيرة ، وخاطبنى قائلا :
ـ اين تنوى ان تذهب عندما تخرج من هنا ؟..
فى الحق اننى لم افكر فى شىء من هذا بتاتا ، وبرقت امامى الان فكرة اننى ، سانال حريتى عاجلا ، ورايت ان هذا سيتحقق فعلا اذا انا جاريتهم فى كل مايطلبون ولم الجأ الى اى شىء من العنف او الصراخ او الرفض وما الى ذلك .. وهكذا قلت له ردا على سؤاله :
ـ آه !.. ساذهب الى بيتى .. الى (بى) و (مى) ..
ـ الى ماذا ؟..
لم يفهم لغة (نادسات) تلك ، وهكذا فسرت له :
ـ ... الى والدى فى مسكننا العزيز ..
فقال :
ـ فهمت ... ومنذ متى كانت زيارة والديك لك ؟..
فاجبت قائلا :
ـ منذ شهر ... او حوالى هذا .. انهم اوقفوا (يوم الزيارة) لفترة لان احد المسجونين حاول تهريب مادة ناسفة عبر الاسلاك بواسطة صديقته .. وهى خدمة حقيرة لمن هم ابرياء ، وكانما كان يراد عقابهم هم ايضا !.. ولهذا مضى قرابة شهر منذ آخر زيارة ..
فقال الرجل :
ـ مفهوم ... وهل ابلغ والديك بامر نقلك الى هنا والافراج عنك قريبا ؟..
كان لكلمة (الافراج) رنين بديع مفرح ، وقد اجبت قائلا :
ـ كلا .. انها ستكون مفاجاة لطيفة لهما ، اليس كذلك ؟..
اذ ادخل عليهما من الباب واقول لهما : « هاأنذا عدت حرا طليقا مرة اخرى ! » .. نعم .. هذا شىء رائع فعلا !..
فقال ضابط الافراج :
ـ صحيح .. سنكتفى بهذا ، مادام لك مقر للاقامة .. والان بقيت مسالة ايجاد عمل لك ، اليس كذلك ؟
واراني قائمة طويلة بالاعمال التى يمكن ان التحق بها ، غير اننى فكرت ، ورايت ان الوقت لايزال امامى لهذا الغرض .. المطلوب اولا هو اجازة لطيفة .. بامكانى القيام (بعملية) من عمليات الماضى حالما اخرج لكى املأ جيوبى بمال وفير ، ولكن يتعين على ان التزم منتهى الحذر ، وان اتم العملية بمفردى تماما .. فلن تكون لى بعد

الان ثقه بأولئك الرفاق المزعومين .. وهكذا قلت لذلك الرجل ان نؤجل مسألة العمل نفس الوقت ويمكن ان نتداول فيها فيما بعد .. فلم يزد على قوله : صح ، صح ، صح !.. ثم ذهب للانصراف ...

غير انه فعل شيئا يدل على الغرابة الشديدة . فقد تضاحك برهة ثم قال لي :

ـ هل تود ان تلطمني على وجهي قبل ان اذهب ؟..

لا اظن انني سمعت هذا جيدا ، ولهذا قلت له :

ـ ايه ؟! ..

فتضاحك مرة اخرى وقال :

ـ هل تود أن تلطمني على وجهي قبل ان اذهب ؟..

قطبت وجهي لهذا الكلام وقد زادت دهشتي وحيرتي . وقلت :

ـ ولماذا ؟..

فاجاب قائلا :

ـ آه .. لمجرد ان ارى كيف تتقدم حالتك ..

قال هذا وادني وجهه مني وقد شاعت في وجهه ابتسامة عريضة .. وهكذا ضممت قبضتي ووجهت بها لطمة الى وجهه ، بيد انه ازاغ وجهه بسرعة وهو لايزال باسما ، وهوت قبضتي في الهواء !..

باللعجب العجاب ، وبالغرابة هذا الذي حدث !.. ولم اتمالك ان قطبت وجهي حين انصرف والابتسامة تغمر وجهه ..

وعلى الاثر شعرت بالخواني باعتلال حقيقي وغثيان مرة اخرى كما حدث لي في فترة بعد الظهر ، ولكن مدى دقيقتين او نحوهما .. ثم زال عني هذا سريعا ، وعندما احضروا لي طعام العشاء وشعرت بشهية طيبة واقبلت على نهش الدجاجة المشوية .. لكن كان من المضحك ان يطلب ذلك الرجل ان الطمه على وجهه ، وكان من الغريب ان اشعر بالاعتلال كما حدث لي !..

لكن كان الابعث على الضحك والغرابة هو ماحدث لي اثناء النوم هذه الليلة .. فقد انتابني كابوس ، وكان يدور كما يمكنك ان تتوقع، حول تلك الافلام التي شاهدتها عصرا .. ان الحلم او الكابوس هو في الواقع اشبه بفيلم يدور في راسك ، فيما عدا انه وكانك تمشي في ثناياه وتكون جزءا منه .. وهذا ماحدث لي .. كان الكابوس يمثل لقطات من الفيلم الذي اروه لي قرب نهاية الجلسة ، عن فتيان يعتدون على فتاة شابة كانت تصرخ من خلال دمائها القانية

وقد مزقت ملابسها شر ممزق .. وكنت فى قلب هذا المشهد الفاجر اضحك واتزعم هذه الزمرة مرتديا آخر (موضة) فى زى فتيــــان (النادسات) .. وعند نهاية هذا العدوان شعرت بما يشبه الشلل والرغبة فى القيء ، بينما ذهب الباقون يضحكون منى .. وبعدهما اخذت اشق طريقى الى اليقظة وانا ملتاث بدمى الذى كان ينسكب ويجرى غزيرا ، ثم الفيتنى فى النهاية فى فراشى فى هذه الغرفة !.. لقد اردت ان اتقيأ ، وهكذا نزلت من الفراش وانا ارتعد بشدة لكى انتقل الى دورة المياه فى المشى ، ولكن ، وياللعجب ياأخوانى ، كان الباب مغلقا .. وعندما عدت وجدت النافذة مشبكة بالقضبان .. وهكذا لم يكن امامى سبيل للهرب من كل هذا .. وبعد فترة شعرت انني لا اريد الان ان اتقيأ .. واخيرا غلبنى النوم ، ولم اعد أحلم مرة اخرى ..

الفصـــــل الســـــادس

ـ اوقفوا هذا !.. اوقفوا هذا !.. اوقفوا هذا !.. كفوا عن العرض يااولاد الحرام ، فلن اقوى على الاحتمـــــال اكثر من هــذا !..

بهذا رحت اصرخ .. وكان ذلك فى اليوم التالى بالاخوانى . وقد رحت ابذل اقصى جهدى صباحا ومساء لمجاراتهم فيما يفعلون [illegible] وجلست مبتسما متعاونا فى كرسى العذاب وهم يعرضون امطاب [illegible] افلام العنف على الشاشة وعيناى مشدودتان الى اعلا [illegible] على سعتهما لكى اشهد كل مايدور ، وقد [illegible] والدماى فى المقعد بلا مهرب ولا فكاك !.. وان [illegible] الان لم يكن فى الحق شيئا كان يمكن ان ابده بالم [illegible] فى الامس ، ولم يكن اكثر من ثلاثة او اربعة فتيان يحطمون دكانا ويملاون [illegible] بالنقود ثم يضربون صاحبته التى تحاول الهرب والدماء [illegible] منها .. لكن الدق العنيف المتواصل فى راسى ، والميل الى القىء ، والعطش الشديد فى فمى ، والتيبس المؤلم فى حلقى ـ كان كل اولئك اسوا مما كان بالامس ..

هكذا رحت اصرخ :

ـ اواه !.. كفاية !.. ليس هذا عدلا ياظلمة !..

وحاولت ان اتملص من الكرسى ، غير ان هذا لم يكن ممكنا وكانما سمرت فيه وغدوت جزءا منه !..

ثم هتف الدكتور برودسكى هذا :

ـ درجة اولى !.. انت تتقدم بصورة طيبة فى الواقع !.. فيلم واحد فقط ، ثم نفرغ منك !..

ثم عرض فيلم آخر عن حرب ١٩٣٩ ـ ٤٥ مرة اخرى .. وكان من الالمان ، وقد بدىء بشمارات النسور الالمانية وعلم النازى ذى الصليب المعقوف الذى يشغف تلاميذ المدارس برسمه .. ظهر ضباط المان يمشون متعالين متغطرسين فى شوارع امتلات بالاتربة وحفر

القنابل والمباني المدمرة .. ومن بعدهم ظهر اناس يعدمون رميا بالرصاص امام حوائط تنفيذا لاوامر الضباط .. ثم تبدو جثث عارية ملقاة فى الاوحال وكانت اشبه باضلاع مجردة وسيقان منحولة بيضاء ، واعقب ذلك مشهد اناس يجرون جرا وهم يضربون ويصرخون وان غطى صوت الموسيقى على اصواتهم .. وقد لاحظت بين الالم والغثيان باخوانى ان الموسيقى التى كان لها دوى قاصف هىموسيقى بتهوفن ، او بالاحرى الحركات الاخيرة من السيمفونية الخامسة ، وهكذا لم اتمالك ان صرخت فيهم :

ـ توقفوا !.. توقفوا ياكلاب !.. هذه جريمة !.. جريمة قذرة لا تغتفر !..

انهم لم يتوقفوا على الاثر ، اذ بقيت دقيقة او اثنتان على نهاية الفيلم ـ وكانت مشاهد اناسيضربون ودماؤهم تسيل ، ومزيد من عمليات الاعدام رميا بالرصاص ، ثم راية النازى وكلمة (النهاية) ..

ولكن عندما اضيئت الانوار الفيت الدكتور برودسكى هذا وكذلك الدكتور برانوم واقفين امامى ، ثم قال الدكتور برودسكى :

ـ ماهذا الكلام الذى قلته عن (جريمة) ؟..

فقلت وانا فى شدة الاعياء والاعتلال :

ـ اعنى استخدام موسيقى بتهوفن بهذه الكيفية .. انه لم يعمل اذى لاى انسان .. بتهوفن لم يفعل غير وضع الموسيقى !..

ولم البث ان غالبنى القىء ، فاحضروا لى وعاء على شكل كلية .. واخيرا قال الدكتور برودسكى متاملا :

ـ موسيقى ؟.. اذن فانت مشغوف بالموسيقى !.. انا شخصيا لا اعرف شيئا عنها .. كل ما اعرفه هو انها مفيدة فى ترقية العواطف .. حسن .. حسن .. ما رايك فى هذا يابرانوم ؟..

فأجاب الدكتور برانوم :

ـ هذا شيء لا حيلة فيه .. كل انسان يقتل الشيء الذى يحبه ، كما قال أحد الشعراء .. ولعل هنا العنصر العقابى .. ينبغى للحكومة أن تسر بهذا ..

اما أنا فقلت :

ـ اعطونى ما اشرب ، بحق الله !..

فاصدر الدكتور برودسكى امره قائلا :

ـ فكوه .. وهاتوا له دورقا بالماء المثلج ..

وهكذا اسرع الممرضون ، وبعد قليل كنت اعب الماء عبا ، وشعرت كانني كنت في السماء ياخواني !..

وقال الدكتور برودسكي :

ـ يبدو انك فتي موفور الذكاء .. ويبدو ايضا انك لست بغير ذوق وحس مرهف .. وكل ماهناك انك اكتسبت ظاهرة العنف ، اليس كذلك ؟.. العنف والسرقة ، والسرقة هي ظاهرة من ظواهر العنف ..

انني ياخواني لم افهم كلمة واحدة من هذا .. كنت لازال اشعر بالاعتلال والغثيان ، وان طرأ على الان شيء من التحسن .. لكنه كان يوما عصيبا مروعا ..

وعاد الدكتور برودسكي يقول :

ـ والان ، مارايك فيما يفعل بك ؟.. قل لي ، ماذا تظن اننا فاعلون بك ؟..

فقلت :

ـ انكم تعملون على جعلي اشعر بالاعتلال .. انني اشعر بالاعتلال والسقم عندما انظر الى هذه الافلام القذرة المنحرفة التي تعرضونها .. لكن ليست الافلام حقا هي التي تفعل بي هذا .. انني اشعر أنكم لو توقفتم عن عرض هذه الافلام ، فسوف يتوقف شعوري بالاعتلال والسقم ..

فقال الدكتور برودسكي :

ـ صح .. هو الترابط والتداعي ـ اقدم اسلوب تعليمي في العالم .. وما هو الذي يجعلك تشعر فعلا بالاعتلال والسقم ؟..

فقلت :

ـ هذه الاشياء البشعة التي تتولد في راسي وجسدي نتيجة لما تفعلون بي ..

فقال الدكتور برودسكي .. في شيء من الضجر :

ـ لا بأس .. لا بأس .. ليست الاسلاك هي التي تفعل بك هذا .. ليس لما تشكو منه علاقة بقيودك هذه .. انما هي لمجرد قياس ردود الفعل عندك .. ماهو السبب اذن ؟

فجاة خطر لي انني كنت اعمى اذ لم افطن الى ان الحقن التي كانوا يحقنون بها ذراعي هي السبب ، وهكذا صرخت قائلا :

ـ آه !.. آه !.. انني ارى الان كل شيء !.. هي خدعة

حقيرة .. وخيانة قذرة ، ولن تفعلوا هذا بى بعد الان !..

فقال الدكتور برودسكى :

ـ انا مسرور لانك تبدى الان اعتراضاتك .. الان يمكن ان نكون واضحين تماما فى كل شىء .. بامكاننا ان ندخل تلك المادة ، (مادة لودفيكو) فى تكوينك بطرق كثيرة مختلفة .. عن طريق الفم مثلا .. لكن طريقة الحقن تحت الجلد هى الافضل .. لا تقاوم ما يعطى لك من فضلك .. لا فائدة من اية مقاومة .. فلا يمكنك ان تغلبنا !..

فقلت فى تأثر يكاد يبلغ حد البكاء :

ـ ياملاعين!.. اننى لا اهتم بما تعرضون من افلام العنف وما اليها !.. بامكانى ان اتجاوز عن هذا .. لكن فى مسالة الموسيقى ليس هذا من الانصاف والعدل !.. ليس من الانصاف والعدل ان تسمموني الموسيقى الجميلة لبتهوفن وهاندل وغيرهما .. كل هذا يبين انكم عصبة من اولاد الحرام ، ولن اغفر لكم هذا باى حال !..

بدا لى ان الاثنين يفكران ساهمين .. وما لبث الدكتور برودسكى ان قال :

ـ التحديد والتخطيط دائما صعب .. الدنيا شىء .. والحياة شىء آخر .. ان احلى واسمى النشاطات تتشارك بدرجة ما فى اعمال العنف ـ فى الجنس مثلا ، فى الموسيقى مثلا .. لابد ان تجرب حظك ياولد .. وكان الاختيار كله منوطا بك

لم افهم كل هذا الكلام ، لكننى قلت بعد ان غيرت لهجتى بعض الشىء بطريقتى الماكرة .

ـ لا حاجة الى الاستمرار فى هذا اكثر من ذلك .. فقد برهنتم لى ان كل اعمال العنف هذه من ضرب وقتل وغيرهما هى خطأ ، وخطأ فظيع !.. اننى تعلمت الدرس ياسادة !.. وقد تبينت الان ما لم اتبينه من قبل ابدا .. وقد شفيت الان بحمد الله !..

قلت هذا وانا ارفع عينى الى السماء تبجيلا واجلالا

غير ان الطبيبين هزا راسيهما على نحو من الحزن ، وقال الدكتور برودسكى :

ـ انت لم تشف بعد .. وهناك الكثير مما لابد ان نفعله .. فقط عندما يستجيب جسدك استجابة فورية وقوية الى العنف ،

ما يستجيب ازاء افعى ، ودون مساعدة اخرى من جانبنا ، ودون طبيب ـ عند هذا فقط ..

فقلت مقاطعا :

ـ لكن سيدى وسادتى !.. ارى ان هذا خطا !.. هذا خطا لانه ضد المجتمع ، وخطا لان كل انسان على وجه الارض له حقه فى ان يحيا ويسعد دون ان يتعرض للضرب او الاعتداء بالمدى !..

غير ان الدكتور برودسكى تلقى هذا الكلام بضحكة عالية متصلة حتى بدت كل اسنانه البيضاء ، وقال :

ـ كلام مزوق !.. ارى ماهو صواب واقره ؛ لكننى اعمل ماهو خطا !.. كلا ؛ كلا ياولدى .. لابد ان تترك كل شىء لنا .. لكن كن منشرحا متفائلا .. وعما قريب سينتهى كل شىء .. ومن اقل من اسبوعين سوف تكون رجلا حرا ..

وشفع هذا الكلام بان ربت على كتفى ..

فى اقل من اسبوعين !! .. اواه يااخوانى واصدقائى !.. هذه المدة كانها دهر !.. كانها منذ بداية الخليقة الى نهايتها !.. ان اختتام الاربع عشرة سنة بقية المدة المحكوم بها على بالعودة الى السجن كان فى نظرى اهون من هذا !..

وعندما جاءت الممرضة المكلفة بالحقن ، وان كان ذلك بعد اربعة ايام من حديثى ذاك مع الدكتور برودسكى والدكتور برانوم ؛ قلت لها :

ـ آه .. لا .. لن تفعلى هذا !..

وضربتها على يدها ، فهوت الحقنة برنين على الارض .. وانما فعلت هذا لكى ارى ماذا هم فاعلون .. فكان ان جاء اربعة او خمسة من الممرضين الاشداء اللاعين والزمونى الفراش وهم يضربوننى ووجوههم باسمة قريبة من وجهى ؛ وهنا قالت تلك الممرضة :

ـ يالك من شيطان صغير شقى !..

وغرست حقنة اخرى فى ذراعى وبها تلك المادة الكريهة الشيطانية .. وبعدها نقلونى فى الكرسى المتحرك منهكا الى موقع تلك السينما الجهنمية كما كان من قبل !..

وكل يوم يا اخوانى كانت تلك الافلام كمثيلاتها : اعتداء بالضرب والرفس ، ودماء حمراء قانية تقطر من وجوه واجساد وتلطخ عدسات الكاميرا من آخرها !.. كانت دائما مشاهد فتيان يبتسمون ويضحكون وهم فى قمة (موضة النادسات) !.. او مظاهر لتعذيب

وحشيه من جنود منبربرين عملهم بقر البطون والرمى بالرصاص !..
وكل يوم كان احساسى بالرغبة فى الموت من القىء ، واوجاع الراس، وآلام الاسنان ، والعطش الرهيب المشتد كان احساسى بهذا يزيدنى سوءا وكربا !.. الى ان جاء يوم حاولت فى صباحه ان أقهر أولاد الحرام اولئك بدق راسى فى الجدار دقا متواصلا حتى اخر مغشيا على ، لكن كل ماحدث هو اننى رابت هذا النوع من العنف كان مماثلا للعنف فى الافلام ، ولم اجن من هذه المحاولة سوى الاعياء والوهن ، واستمر اعطائى الحقن ، واستمر نقلى بالكرسى المتحرك كما كان من قبل !..

ثم جاء صباح يوم استيقظت فيه وتناولت افطارا من البيض و (التوست) والمربى والشاى باللبن الساخن جدا ، وعندها فكرت : « لا يمكن ان يطول الوقت كثيرا الان .. الان لابد ان نهاية هـذه المسالة اصبحت قريبة جـدا .. اننى قاسيت الى ابعد حـد ولا يمكننى ان أقاسى اكثر من هذا !.. » .. وجعلت انتظر باخوانى أن تاتى تلك الممرضة بالحقنة ، غير انها لم تحضر .. وبعدئذ جاءنى ممرض وقال لى :

ــ اليوم ياصاحبى سندعك تمشى ..

فقلت :

ــ امشى ؟! .. الى اين ؟..

فاجاب قائلا :

ــ الى المكان المعتاد .. نعم ، نعم .. لا تدهش هكـذا .. ستمشى الى مكان الافلام ، وانا معك بالطبع .. لن تنقل بعد الان فى كرسى متحرك ..

فقلت :

ــ لكن ... ماذا عن تلك الحقنة الصباحية الفظيعة ؟..

فقد دهشت حقا يا اصدقائى من هذا ، بعد ان رأيتهم مهتمين الى ابعد حد بادخال (مادة لودفيكو) تلك فى جسدى كما أخبرونى .. واضفت قائلا :

ــ الن آخذ تلك المادة البشعة المقززة فى ذراعى المعذب بعـد الان ؟..

فقال الممرض باسما :

ــ بتاتا .. الى الابد والى الابد ، آمين !.. انت الان مستقلٌ بنفسك ياولدى .. تمشى بارادتك الى غرفة الفظائع .. لكن سـوف

ـستمر ربطك فى الكرسي واجبارك على المشاهدة .. هيا اذن ايهـا
لنمر الصغير !..
ولم اجد بدا من لبس روبى (وشبشبى) والمشى فى الزحمة
لى (دار السينما) تلك !..
والان فى هذه المرة يا أخوانى لم اكن فقط معتلا جدا بل متحيرا
يضا .. لقد تكررت المشاهد السابقة من جديد ، اعمال العنف بكل
نواعها ، واناس تهشم رءوسهم وتسيل دماؤهم ، ونساء يصرخن
ـسترحمات : الى آخر هذه القائمة من الفظائع والفبائح !.. ثم
جاءت مشاهد معسكرات الاعتقال وتعذيب المعتقلين والشوارع
لاجنبية الكابية المليئة بالدبابات والجنود والاسرى يتساقطون صرعى
ـصاص الاعدام .. فى هذه المرة لم يكن لى ان الوم احدا لشعورى
بالغثيان والعطش والاوجاع فيما عدا اجبارى على رؤية ما اشهد ؛
د ظلت عيناى مشدودتين عنوة للنظر وجسدى كله موثق فى المقعد ؛
وان كانت الاسلاك لم تعد متصلة ، براسى وجسدى .. اذن فماذا
مكن ان يكون هذا الا ان الافلام التى اشاهدها هى التى تفعل هذا
ى !.. والا ان (مادة لودونيكو) تلك يااخوانى كانت بمثابة مصل ،
وها هى ذى تسرى فى جسدى ودمى ، لكى اظل اشعر بالغثيان الى
الابد كلما شاهدت شيئا من افعال العنف تلك ؟! .. هكذا اختلج
ـى وانبثقت الدموع فى عينى تحجب ما كنت مكرها على مشاهدته
.. غير ان هؤلاء المرضين اللاعين خفوا الى يمسحون دموعى
ائلين :
ـ عيب على مثلك البكاء يابنى !..
ووضحت صور المشاهد امام عينى من جديد !.. الالمان
ـوقون اليهود الباكين المستصرخين رجالا ونساء واطفالا الى غرف
ـاز السام !.. واذا الدموع تنبثق من عينى مرة اخرى ، فيسارع
ـمرضون الى مسحها لئلا يفوتنى اقل شىء مما يعرضونه امامى !..
لقد كان هذا يااخوانى واصدقائى يوما عصيبا مشهودا !..
ثم كنت ممددا فى فراشى تلك الليلة بعد عشاء من حساء
ـضان الدسم وفطير الفاكهة و (الايس كريم) ، وذهبت افكر على
ـذه الصورة :
ـ سحقا لهم !.. ربما كانت الفرصة امامى للنجاة اذا انا
ـربت الان !..
لكن لم يكن معى اى سلاح ، ولم يسمحوا لى حتى بمطواة ؛

وكان يحلق ذقني يوما بعد يوم شخص سمين اصلع كان ياتى الى فراشي قبل الافطار بينما يقف عن كثب اثنان من الممرضـــين للاطمئنان الى انني انسان مسالم !.. وكانوا قد قلموا اظافر يدى عن آخرها لئلا اخمش او اخدش احدا !.. لكنني مازلت سريعا فى الهجوم ، وان كانوا قد اوهنوا قواى يا اخوانى حتى اصبحت أقرب الى شبح مما كنته فى ايام الحرية الخوالى !.. وعندما اختمرت الفكرة فى ذهنى هبطت من الفراش وذهبت الى الباب الموصد واخذت اضربه بعنف وانا اصرخ قائلا :

ـ النجدة!.. النجدة!.. انا اموت!.. طبيب!.. طبيب.. طبيب بسرعة !..

لقد جف حلقى وبح صوتى قبلما جاء احد .. ثم سمعت وقع اقدام آتية فى المشى وصوتا يزمجر ، وعلى الاثر تعرفت على الممرض الذى كان ياتينى بالطعام ويصحبنى الى حتفى المحتوم كل يوم .. قال ساخطا :

ـ ماذا جرى ؟.. ماهى لعبتك القذرة هذه المرة ؟..

فقلت متاوها متوجعا :

ـ انني اموت !.. اشعر بالم مميت فى جنبى !.. هى الزائدة الدودية !.. آه !.. آه !.. اواه !..

فرد الممرض مزمجرا :

ـ زائدة فى عينك !..

وشد ماكانت فرحتى ياخوانى عندما سمعت صليل مفاتيح وصوته يقول :

ـ اذا كنت تحاول خداعنا ياصديقى الصغير فاننى وزملائى سنضربك ونؤدبك طول الليل !..

وما لبث أن فتح الباب فكان فتحه بشيرا بقرب حريتى .. وكنت اسرع منه فى الوقوف خلف الباب عندما فتحه ، ولمحته فى ضوء المشى يتلفت حوله بحثا عنى فى دهشة وحيرة .. وهنا رفعت قبضتى الاثنتين لكى الطمه على عنقه بعنف ، واقسم لكم اننى عندما تخيلته ممددا على الارض سلفا يئن من الضربة ويغيب عن الوعى حتى تملكتنى الفرحة ـ عندها شعرت بالغثيان يرتفع فى داخلى كانه موجة ، واحسست بخوف شديد وكاننى اوشك ان اموت !.. وما لبثت أن عدت مترنحا الى الفراش ، وبدا الممرض الذى لم يكن

فى معطفه الابيض بل فى (روب) ، يفهم ما كنت انتويه ، اذ قال لى :

ــ حسن .. كل شىء كانه درس .. أليس كذلك ؟ الانسان يتعلم فى كل وقت .. هيا ياصديقى الصغير ، قم من الفراش واضربنى .. أريد أن تضربنى حقيقة .. ضربة قوية على الفك !.. اننى مشتاق لهذه الضربة وحقك !..

لكن كل مااستطعت ان افعله يااخوانى هو اننى لبثت ممددا فى الفراش ابكى وانتحب .. الى ان قال الممرض ساخرا :

ــ ياحقير !.. ياقذر !..

ثم جذبنى من ياقة بيجامتى وانا فى منتهى الضعف والاعياء ، وصوب الى لطمة اصابتنى فى وجهى ، قائلا :

ــ هذه نظير اخراجى من فراشى ، ايها الحقير الصغير !..

ومسح يديه واحدة بالاخرى ثم خرج ، وسمعت صرير المفتاح فى قفل الباب ..

وما كان لى يااخوانى الا ان الوذ بالنوم هربا من ذلك الاحساس الفظيع بانه كان خيرا لى ان اتلقى اللطمة بدلا من ان اعطيها .. بل لو ان ذلك الممرض قد بقى ، فربما أدرت له خدى الاخر !..

الفصـــل الســابـــع

لم استطع بالخواني ان اصدق ماقيل لي .. فقد بدا لي كانني لبثت في هذا المكان اللعين دهرا ، وانني سابقى فيه الى ابد الابدين!.. لكن الفترة كلها لم تزد عن اسبوعين ، وقد ابلغوني الان أن فترة الاسبوعين قاربت النهاية ..

قالوا لي :

ـ غدا ، ياصديقنا الصغير ، الى الخارج ، الى الخارج ، الى الخارج !..

واكدوا هذا التصريح برفع اصبع الابهام ، ايماء الى الحرية !..

وبعدئذ جاءني الممرض ذو المعطف الابيض الذى لطمني والذى مازال يحضر لي الطعام ويصحبني كل يوم الى غرفة العذاب ، وقال لي :

ـ .. لكن لايزال امامك يوم حافل .. انه سيكون جواز مرورك الى الخارج ..

وشفع هذا بابتسامة خبيثة ..

وكنت اتوقع هذا الصباح انني سانتقل الى (دار السينما) الرهيبة كالمعتاد بالبيجاما و (الشبشب) والروب .. لكن كلا .. في هذا الصباح اعطوني قميصي وملابسي الداخلية والخارجية وحذاء الرفس الضخم ، وكلها مغسولة ومكواة ومصقولة .. بل انهم اعطوني مطواتي (قرن الغزال) التى كنت استعملها في تلك الايام الخوالي السعيدة للمعابثة والعدوان !.. وهكذا رحت ارتدى هذه الملابس وأنا عابس حيران لما ارى ، غير ان الممرض لم يعد أن ابتسم ولم يشأ ان يقول شيئا بالخواني !..

ثم اقتادوني بترفق بالغ الى (دار السينما) الجهنمية ، لكنني الفيت تغييرات قد حدثت بها .. فقد حجبت ستائر شاشة العرض ، ولم يعد الزجاج الحبيبي أسفل فتحات العرض قائما مكانه ، ولعلهم رفعوه أو طووه مثل ستائر النوافذ .. وفي المكان الذى كانت تسمع فيه أصوات السعال ولغط الاحاديث واشباح اشخاص كان هناك

الان حشد من النظاره تبينت بينهم وجوها أعرفها . منها محافظ السجن . وواعظه . ورئيس الحراس ، وتلك الشخصية الهامة جدا التي كان صاحبها يرتدي أفخر الملابس : اعني وزير الداخلية !.. اما الباقون فلم اكن اعرفهم .. وكان الدكتور برودسكي والدكتور برانوم بين الحضور . وان لم يكونا الان بالمعاطف البيضاء ، بل كانا يرتديان ايضا ملابس فخمة مثل كبار الاطباء .. وقد اكتفى الدكتور برانوم بالوقوف . بيد ان الدكتور برودسكي كان يخاطب المجتمعين بأسلوب المحاضرين .. وعندما رآني ادخل قال مواصلا حديثه :

ـ آه !.. عند هذه المرحلة ايها السادة نقدم لكم (الموضوع) ذاته .. انه كما سوف ترون سليم وجيد التغذية .. وهو قادم الان بعد نوم ليلة وافطار طيب ، وهو غير مخدر ولا منوم مغناطيسيا .. وغدا نرسله في ثقة الى العالم الخارجي من جديد ، فتى مهذبا كأي فتى تلتقون به في صباح يوم من مايو ، مبرأ من الشر والعنف ، نزاعا الى الكلمة الطيبة والعمل الايثاري .. ما اعظم هذا التغيير ، ايها السادة ، الذي طرأ عليه بعد أن كان منحرفا منكودا قضت عليه الدولة بعقوبة غير مثمرة منذ نحو سنتين ، فلم يتغير فيه شيء خلال تلك الفترة !.. بل ان وجوده في السجن علمه الابتسامة الزائفة . والنفاق ، والتمسح الساخر !.. لقد علمه السجن رذائل أخرى كثيرة . كما قوى فيه تلك الرذائل التي طالما مارسها في الماضي .. لكن نكتفي الان ايها السادة بالكلام .. فالافعال ستكون افصح لسانا .. الى العمل الان !.. لاحظوا كل مايجري !..

في الحق ياأخواني لقد شعرت بشيء من الذهول لهذا الكلام ورحت احاول في ذهني ان استوعب ان كل هذا كان بخصوصي !.. وعلى الاثر اطفئت الانوار ، ثم اعقب ذلك ظهور دائرتين من الضوء المنبعث من مربعات العرض السينمائي سلط أحدهما على شخص محدثكم المتواضع المعذب ، وظهر في الدائرة الثانية شخص ضخم لم اره من قبل .. كان له فم غليظ وشارب وخصلات من شعر قليل التصقت في شبه خطوط على راسه شبه الاصلع .. وكان يناهز الثلاثين او الاربعين او الخمسين ، أو سنا متقدمة في هذا المدار .. وما لبث ان اقترب مني تتبعه دائرة الضوء حتى استحالت الدائرتان الى دائرة واسعة .. وقد قال لي مستهزئا :

ـ هالو ياكوم الاوساخ !.. اف !.. انت لا تغتسل كثيرا كما تدل عليه رائحتك الفظيعة !..

ثم بدا بحركة شبه راقصة وداس على قدمي اليسرى ثم اليمنى ، ثم خدش باظفر اصبعه انفي خدشة عنيفة آذتني بشدة واسالت الدموع من عيني !.. ثم فرك اذني اليسرى كما لو كان يدير مفتاح الراديو حتى سمعت ضحكا عاليا من الحضور !.. ومن فرط ما آلمني وجع انفي واذني وقدمي قلت له :

ـ لاى شيء تفعل هذا بي ؟.. انا ياأخي لم افعل شيئا خاطئا في حقك !..

فقال ذلك المخلوق :

ـ آه !.. انا أفعل هذا (وخدش انفي مرة ثانية) وهذا (وفرك صوان اذني) وهذا (وداس بعنف على قدمي اليمنى) ـ افعل هذا كله لانني لا اهتم بشخصك الحقير !.. واذا كنت تريد ان تفعل اى شيء في المقابل ، فلتبدأ !.. ابدأ من فضلك !..

في هذه اللحظة ادركت انه لابد ان اسرع بالعمل واخرج مطواتي قرن الغزال الفتاكة قبلما تفارقني حماسة المعركة .. لكن آه ياإخواني !.. ما ان امتدت يدي الى جيبي تلتمس المطواة حتى تجلت لخاطري صورة ذلك المخلوق المعتدى وهو يصرخ مسترحما والدم الاحمر القاني يسيل من فمه ، وسرعان ما اقترنت هذه الصورة بمشاعر الغثيان والجفاف والالام تطبق على ، وادركت انه لابد من تغيير الانطباع الذى احسست به حيال ذلك المخلوق الكريه حتى لا تتفاقم تلك المشاعر في نفسي ، وهكذا تحسست جيبي التماسا لسجائر او نقود ، غير اني الفيت ياإخواني جيوبي خلوا منها . فقلت له على الاثر متلعثما :

ـ بودى ياأخي ان اعطيك سيجارة ، لكن يظهر انه ليس معي شيء منها ..

فرد على قائلا :

ـ عض اصابعك حسرة ياطفل ، وابك بالدمع السخين !..

وخدش انفي بظفره المخلبي من جديد ، حتى سمعت ضحكات المرح تتردد من صفوف الحضور .. فقلت في يأس محاولا التلطف والاسترضاء لكي احول دون استفحال ما الم بي من غثيان وآلام :

ـ ارجوك ان تدعني أفعل شيئا من اجلك !.. ارجوك !..

وتحسست جيبي مرة اخرى ، فلم اجد سوى مطواة قرن الغزال .. فاخرجتها وقدمتها اليه قائلا :

ـ خذ هذه من فضلك !.. هدية صغيرة !.. خــذها من فضلك !..

غير انه قال :

ـ احتفظ برشوتك الحقيرة لنفسك .. لايمكنك ان تستغفلني بهذه الطريقة !..

ولطم يدي حتى سقطت المطواة على الارض .. وهكذا رحت اقول له :

ـ لابد ان افعل شيئا من اجلك !.. هل امسح حذاءك ؟ لابد ان اركع والعقه !..

ويا اخواني صدقوا او لا تصدقوا : فقد ركعت على ركبتي ومددت فمي لكي الق الحذاء القذر ، لكن هذا المخلوق رفسني في فمي .. وهكذا خطر لي أن الغثيان والالم لن يلما بي اذا أنا تشبثت بساقيه وطوحت بهذا المخلوق الحقير الى الارض .. ففعلت .. وكانت مفاجاة له ان يهوى على الارض بين الضحك المتعالى من جمهور النظارة .. لكن رؤيتي له على الارض اشعرتني بتصاعد تلك الاحاسيس الفظيعة واطباقها علي ، وهكذا مددت له يدي لكي انهضه ، فنهض قائما .. وفي اللحظة التي هم فيها ان يصوب الى ضربة عنيفة على فمي قال الدكتور برودسكي :

ـ لا بأس .. هذا سيثمر تماما ..

واذ ذاك رايت هذا المخلوق الفظيع ينحني ثم يبتعد خفيفا في حركات تمثيلية بينما اضيئت الانوار وانا اطرف بعيني وفمي فاغر بوشك على الصراخ !..

وقال الدكتور برودسكي للحضور :

ـ ان (موضوعنا) قد اضطر للانحياز الى الخير نعيضا لاندفاعه نحو الشر .. ان نيته لعمل عنيف قد صاحبتهــا مشاعر قوية للاضطراب الجسدى .. ولمواجهة ذلك كان لابد (للموضوع) أن يتحول عكسيا الى الحالة المضادة .. هل من اسئلة ؟..

فتعالى صوت عميق عرفت فيه صوت القس يقول :

ـ وعامل الاختيار ؟.. انه ليس له رغبــة حقيقية : اليس كذلك ؟ ان المصلحة الذاتية والخوف من الالم البدني دفعاه الى اذلال نفسه على تلك الصورة الشنيعة !.. وكان واضحا عدم صدق انبمائه .. لقد توقف عن فعل الشر .. وهو يتوقف ايضا عن ان يكون مخلوقا قادرا على الاختيار الاخلاقي الفاضل !..

فرد الدكتور برودسكي باسما :

ـ هذه تخريجات تقوم على الحـــذلقة .. اننا غير معنيين بالدافع ، بالاخلاقيات السامية !.. نحن معنيون فقط بقطع دابر الجريمة ..

ورن صوت وزير الداخلية الانيق الملبس :

ـ ومعنيون ايضا بتخفيف التكدس المروع فى سجوننا !..

وقال صوت من الحضور :

ـ اسمعوا !.. اسمعوا !..

وهنا ارتفعت اصوات النقاش والمجـــادلة وانا واقف مكانى يا اخوانى وكان هؤلاء الجهلاء التافهين قد تجاهلوا شخصى ، وهكذا صرخت فيهم قائلا :

ـ وانا ؟.. انا ؟.. انا ؟.. ماذا شانى ؟.. اين مكانى فى كل هذا ؟.. هل انا مجرد حيوان او كلب ؟..

فكان كلامى هذا باعثا على احتدام نقاشهم وقذفهم كلمـات الى شخصى .. وكذلك صرخت فيهم باعلى من اصواتهم قائلا :

ـ هل يراد لى ان اكون فقط اشبه (ببرتقالة بقلب ساعة) ؟!..

ولست ادرى ما الذى جعلنى استخدم هذه الكلمات ؛ تلك التى انبعثت فى راسى دون سؤال .. ولكنها عقدت السنة الجمع لسبب ما نحو دقيقتين ثم مالبث احدهم وكانت تبدو عليه ســمات الاساتذة الفطاحل ان نهض قائلا وقد انتفخت اوداجه :

ـ لا حق لك ان تتذمر ياولد .. انك اديت اختيارك . وكل هذا هو نتيجة اختيارك .. وكل مايمكن ان يترتب ويحدث بعد الان هو ما اخترته انت بنفسك ..

وصاح واعظ السجن بدوره :

ـ آه لو كنت اعرف هذا !..

وقد لمحت محافظ السجن يصوب اليه نظرة كان معناها أنه لن يرقى فى مراتب الوعظ فى وظيفته كما كان يقدر .. وما لبث النقاش والجدل ان ارتفع مرة اخرى ، كما سمعت كلمة (الحب) تدور على الالسنة ، وسمعت صوت واعظ السجن ذاته يصيح مثل غيره بعبارة ان (الحب السامى يطرد الخوف) وما الى هـذا .. واخيرا قال الدكتور برودسكي والابتسام يشيع فى كل وجهه :

ـ يسرنى أيها السادة أنكم عرضتم لموضوع (الحب) فالان

سوف نرى عمليا لونا من الحب كنا نظنه قد انطوى مع (العصور المتوسطة) ..

وعندئذ انطفأت الانوار وعادت دوائر الضوء مرة اخرى ، واحدة منها تشمل محدثكم وصديقكم المسكين المعذب ، وسرى فى الدائرة الثانية طيف اجمل واحلى فتاة يمكن ان تقع نواظركم عليها ياالخوانى مدى الحياة !.. ورغبة فى الدقة اقول انها كانت ذات نهدين ترنو اليهما الاعين ، وكانت ترتدى ملابس تنحدر وتنحدر وتنحدر اسفل الكتفين !.. وكانت ساقاها صورة لابداع الخلق !.. وكانت تتهادى فى مشيتها الى حد يثير التنهدات ، ومع ذلك كان محياها الفاتن ينضح باحلى ابتسامة واعذبها .. وقد تقدمت نحوى تحف بها هالة من السناء النوراني - حتى كان اول ماخطر ببالي هو ان انقض عليها انقضاضا ؛ ولكن سرعان ما باغتنى الغثيان وكأنه دبدبان كان متربصا وما لبث ان وثب فجأة لاعتقالى !.. ثم اذكت رائحتها العطرة مشاعرى واثارت حواسى الى حد تعين على معه ان اجد اسلوبا آخر للتفكير فيها قبل ان تدهمنى اعراض الالم والعطش والغثيان الفظيع وتطبق على اطباقا لاشك فيه .. وهكذا رحت اهتف بين يديها :

- آه يا اجمل وابدع النساء !.. اننى لأطرح قلبى عند قدميك لكى تطئيه من كل جانب !.. لو كانت لدى وردة لقدمتها اليك !.. ولو كان المطر يهطل مدرارا الان على الارض لقدمت اليك ملابسى لكى تمشى عليها لئلا تتلوث قدماك الرقيقتان بالبلل والاقذار !..

وكنت وانا اقول هذا ياالخوانى اشعر بالغثيان ينحسر عنى .. وقد مضيت اهتف قائلا :

- انني لأعبدك واكرس نفسى لمساعدتك وحمايتك من هذه الدنيا الشريرة !..

وفكرت لحظة فى الكلمة المناسبة وقد دب التحسن الى ، فرحت اقولها :

- دعينى اكن لك الفارس المخلص !..

وشفعت هذا بان ركعت على ركبتى امامها منحنيا ومتمسحا !..

ثم ساورنى الوجوم على الاثر لما بدا لى انه موقف تمثيلى مرة اخرى ؛ اذ ان هذه الفاتنة انحنت امام الحضور باسمة ، وانسحبت فى خفة الطائر وقد اضيئت الانوار مقترنة بالتصفيق !.. وقد بدا لى ان اعين طائفة من الحضور الاجلاء تكاد تجحظ وهى ترمق تلك الغادة الحسناء بنظرات ملتاثة ورغبة محرمة ياالخوانى !..

وسمعت صوت الدكتور برودسكي يدوى قائلا :
ـ انه سيكون المتدين الصالح ، وعلى استعداد لكى يدير خده الاخر ، وللاستشهاد بدل التعذيب ، متقززا حتى شغاف قلبه للتفكير فى ان يقتل حتى ذبابة !..
وصدق الدكتور برودسكي ياخواني ، ذلك لانه عندما قال هذا كنت افكر فى قتل ذبابة ، وعلى الاثر شعرت بالغثيان والالم ، بيد انني دفعت عني الغثيان والالم عندما فكرت فى اطعام الذبابة بفتات من السكر وعكفت على رعايتها مثل مايرعى الانسان حيوانا اليفا سال دمه ، الى آخر هذه الامثلة !..
وفى الختام هتف الدكتور برودسكي بما هو مسك الختام :
ـ هذا هو سبيل الاصلاح ، وانتم على ذلك شهود ..
واذا وزير الداخلية الانيق يعقب قائلا بجد كل الجد :
ـ المهم انه اسلوب ناجح ، وناجع !..
فما كان من الواعظ الا ان تنهد قائلا :
ـ لطف الله بنا !..

القسم الثالث

الفصل الأول

ترى ما الذى سيكون بعد ؟..

هذا هو السؤال الذى سألته لنفسى يا اخوانى فى صباح اليوم التالى وأنا واقف خارج ذلك المبنى الابيض الملحق بالسجن العمومى ، مرتديا ملابسى التى كنت ارتديها ليلا منذ سنتين ، فى بكرة النهار الضبابية ، ومعى حقيبة صغيرة بها حاجياتى الشخصية ، الى جانب نقود يسيرة تبرعت بها السلطات المجتمعة تكرما وتفضلا لكى استعين بها فى استهلال حياتى الجديدة ..

ولقد كنت بقية اليوم السابق متعبا جدا ، ناهيك عن المقابلات والاحاديث المسجلة والمصورة للصحافة والتليفزيون وغير ذلك مما يثير الارتباك والحيرة فى امثال هذه المواقف .. وبعدها ارتميت على فراشى منهكا ، فما استيقظت الا على اصوات تدعونى الى الخروج والذهاب الى بيتى ، مشفوعة بأنهم لايريدون رؤية محدثكم الضعيف الى الابد !.. وهاأنذا الان ياإخوانى فى بكرة الصباح وليس معى سوى تلك النقود النثرية اليسيرة فى جيبى الايسر أسمع رنينها فى يدى وافكر فيما سيكون بعد ياترى ؟..

فكرت فى البحث عن افطار فى مكان ما ، اذ لم اتناول اى طعام فى ذلك الصباح لانشغال الجميع واهتمامهم باطلاق سراحى واخلاء سبيلى ، وكل مانلته هو قدح من الشاى لا أكثر ..

كان موقع السجن فى طرف كئيب من المدينة ، لكن كانت تنتشر فيه مقاهى العمال ، ولم يطل بى الوقت حتى وجدت واحدا منها ياإخوانى ..

كان مقهى متواضعا ، لا يضيئه سوى مصباح وحيد فى سقفه وقد جفت به نفايات الذباب تكادت تحجب ضوءه الكليل .. وكان به عمال مبكرون يتناولون الشاى وبعض السجق الشنيع المظهر

وشرائح هزيلة من الخبز سرعان ما كانوا يتلهمونها طالبين المزيد .. وكانت تقوم على خدمتهم فتاة خلت من معالم الحسن الا من نهدين بارزين ، وكان بعض الآكلين يحاولون جذبها اليهم وهم يقهقهون وهي تضحك ضحكات ناعمة ، غير ان مشهدهم كان يثير غثياني بالخواني .. لكنني طلبت بعض الشاي والمربي والتوست بكل تأدب وبلغة المهذبين ، وجلست في ركن معتم آكل وأشرب ...

وفي خلال هذا دلف الى المشرب قزم آدمي يبيع جرائد الصباح، فاشتريت نسخة ، وكانت فكرتي أن استعد للاندماج من جديد في الحياة العادية بالاطلاع على مايجري في الدنيا .. والظاهر أن هذه الجريدة كانت حكومية ؛ اذ كانت الاخبار الوحيدة على الصفحة الامامية عن الحاجة الى ان يعمل كل فرد على عودة الحكومة الى منصة الحكم في الانتخابات العامة القادمة ، التي بدا انها ستكون بعد نحو اسبوعين او ثلاثة .. وكانت الصفحة تتضمن كلاما فيه تفاخر بما قامت به الحكومة بالخواني في العام الماضي او نحوه ، ناهيك بزيادة الصادرات ونجاح السياسة الخارجية وتحسين الخدمات الاجتماعية واشياء من هذا القبيل .. لكن اشد ما كانت تفاخر به الحكومة فعلا هو الكيفية التي ادت في تقديرها الى اقرار الامن في الشوارع لجميع المواطنين المسالمين الذين يسيرون في الشوارع ليلا في مدى الشهور الستة الاخيرة ، فضلا عن تحسين مرتبات رجال الشرطة واتخاذهم اجراءات مشددة ضد الشباب المنحرف واللصوص والعابثين بالامن ، وهو ما اثار اهتمام محدثكم المتواضع الى حد ما .. وقد تضمنت الصفحة الثانية للجريدة صورة شبه مطموسة لشخص بدا مألوفا في نظري ، ثم تبينت أن هذه الصورة لم تكن الا صورتي انا .. انا .. انا !.. كنت ابدو في الصورة اقرب الى الاكتئاب والوجل ، ولكن هذا لم يكن الا بسبب اضواء كاميرات التصوير التي لاحقتني طويلا .. وقد نشر تحت الصورة ان صاحبها هو اول خريج للمؤسسة الحكومية الجديدة لاصلاح الجناة ، وقد امكن شفاؤه من غرائزه الاجرامية في مدى اسبوعين فقط ، وانه الان مواطن صالح مطيع للقانون ، وهلم جرا !.. ثم اطلعت على مقال حافل بالتفاخر عن تلك الطريقة المعروفة باسم (طريقة لودفيكو) ، وكيف كانت الحكومة آية في البراعة الى غير ذلك من الكلام المنمق !.. وكانت هناك صورة اخرى لشخص رأيت انني اعرفه ، وكان وزير الداخلية ذاته ..

وبدا فى السطور المكتوبة انه يتباهى بما حققه . متطلعا الى عهد مشرق خال من الجريمة ، ينعدم فيه الخوف من الهاجمات المتسمة بالجبن التى كان يقوم بها المنحرفون الشبان واللصوص ومعتادو الاجرام ومن اليهم .. وهكذا لم أتمالك ان القيت الجريدة على الارض حتى غطت بقع الشاى المسكوب والبصاق الشنيع من جانب (الحيوانات) التى كانت ترتاد هذا المشرب !..

ترى اذن ما الذى سيحدث بعد الان ؟! ..

ان الذى سيحدث باخوانى الان هو العودة الى دارى بمفاجاة لطيفة لابى وامى ، انا وحيدهما وولى عهدهما وربيب احضانهما الحنونة !... وبعدها استطيع ان استلقى فى فراشى بغرفتى أو ما اسميه (وكرى) الخاص واستمع الى شىء من الموسيقى الحبيبة ؛ وفى نفس الوقت يتهيأ لى ان انكر فيما ان سافعله الان بحياتى .. وكان (ضابط الافراج) قد اعطانى فى اليوم السابق قائمة طويلة بالاعمال التى يمكن ان اتقدم اليها ، كما قام بالاتصال تليفونيا بعدد من الاشخاص من اجلى .. لكن لم يكن فى نيتى باخوانى أن أذهب للعمل الان مباشرة .. شىء من الراحة اولا .. نعم !.. ثم تفكير هادىء فى الفراش على صوت الموسيقى المحبوبة ..

وهكذا ركبت الاتوبيس الى منطقة (سنتر) ، ثم الاتوبيس الى (كنجزلى افينو) ، وكانت العمارة السكنية رقم ١٨ قريبة .. وسوف تصدقوننى باخوانى عندما أقول ان قلبى كان يدق ويدق بتاثير الانفعال .. وكان كل شىء فى تمام الهدوء ، اذ كان الوقت لايزال فى بكرة الصباح هذا الشتاء ، وعندما دخلت الى ردهة العمارة لم أجد احدا حولى ، فيما عدا صور الرجال والنساء العارية المحفورة على جوانب المدخل رمزا لكرامة العمال والعاملين .. وان ما أدهشنى باخوانى هو ماطرا على هذا الرمز من تنظيف ، فقد خلت الصور من العبارات البذيئة الفاحشة التى اضيفت على السنة العمال ٪ ومحيت تلك الاجزاء القذرة التى رسمها على الاجسام العارية بالقلم الرصاص افراد ملتاثو العقول فاسدو الطوايا !.. وكان ما أدهشنى ايضا هو اصلاح المصعد ، فقد هبط اثر ضغطى على الزر الكهربائى ، وكان من بواعث دهشتى كذلك ان جدران المصعد ذاته أصبحت نظيفة ..

وهكذا صعد بى المصعد الى الدور العاشر ، ورايت باب مسكنى كما كان من قبل ، وكانت يدى تهتز وترتعش عندما اخرجت من جيبى المفتاح الصغير الذى اعتدت ان افتح به .. غير انى ادرت المفتاح بثبات فى القفل وفتحت الباب ثم دخلت ، فقابلت ثلاثة ازواج من الاعين تنظر الى بدهشة وفيما هو اقرب الى الجزع ، وكانت لابى وامى وهما يتناولان طعام الافطار .. لكن كان ثمة شخص ثالث لم اره من قبل فى حياتى ، وكان مخلوقا بدينا بالقميص والحمالات ، وقد تربع كانه فى بيته ياالخوانى يحتسى الشاى باللبن ويقضم التوست والبيض .. وكان هذا الدخيل الغريب هو الذى تكلم أولا ، اذ قال :

ــ من انت ياصاحبى ؟ ومن اين لك بالمفتاح ؟.. اخرج ، قبل ان احطم وجهك !.. اخرج اولا ثم دق الباب !.. اشرح طلبك ، بسرعة !..

جلس ابى وامى وكانهما سمرا فى مكانهما ، وقدرت انهما لم يطلعا على الجريدة بعد ، ثم تذكرت ان الجريدة لا تصل اليهما الا بعد ذهابهما الى العمل .. ولكن امى لم تلبث ان قالت :

ــ اواه !.. انت هربت !.. انت هربت !.. ماذا ستفعل الان ؟! .. سياتى البوليس الى هنا ، أواه ، اواه ، اواه ، ايها الولد الفاسد الشرير ، الذى فضحت عائلتك على هذه الصورة !!..

وانخرطت فى البكاء .. وهكذا رحت احاول الشرح والبيان ، وقلت انه يمكنهما الاتصال تليفونيا بالسجن اذا ارادا .. وخلال هذا كله كان ذلك الغريب جالسا فى مكانه عابسا وكانه يفكر فى تهشيم فمى بقبضته المشعرة الحيوانية ..

وهكذا رحت اقول له :

ــ ما رايك انت ياأخ فى ان تجيب على بعض الاسئلة ؟.. ماذا تفعل هنا ، والى متى ؟.. انا لا اهضم الكلام الذى تفوهت به الان !.. حاسب ! هيا ، رد !..

كانت له هياة العمال ، وكان تبيح الصورة فى الثلاثين او الاربعين من عمره ، وقد جلس مكانه ينظر الى فاغر الفم لا يكاد يفقه كلمة واحدة مما قلت .. وما عتم ابى ان قال :

ــ هذا كله شيء محير ياابنى .. كان يجب ان تدعنا نعرف انك ستحضر .. وكنا نظن انك ستمضى على الاقل خمس او ست سنوات اخرى قبل ان يدعوك لتخرج !..

واضاف بلهجة شبه مكتئبة قائلا :

ـ ... وليس معنى هذا اننا غير فرحين جدا برؤيتك من جديد ووجودك حرا ايضا ..

فقلت :

ـ من يكون هذا ؟..

فردت أمى قائلة :

ـ هذا جو .. وهو يقيم معنا الان .. بصفة ساكن .. باعينى !.. باعينى !.. باعينى !..

وقال المدعو جو :

ـ ياهذا !.. اننى سمعت كل شىء عنك ياولد .. [illegible] الى مافعلته ، وحطمت بسببه قلب ابويك [illegible] .. الان فقد عدت ؟! .. عدت لتجعل الحياة [illegible] اهذا ماسيكون ؟.. لن تكون هذا [illegible] لى ان اكون مثل ابن لهما ، اكثر من [illegible]

كدت اضحك [illegible] من هذا الكلام لولا ان [illegible] فى داخلى يثير فى التهيؤ للقىء ، [illegible] هذا المخلوق [illegible] وامى ، وها هوذا الان يحاول ان يضع [illegible] حول امى الباكية ، ياالخوانى !..

قلت وانا اشعر باننى اكاد انهار باكيا :

ـ هذا هو الحال اذن !.. لا باس .. اننى امهلك خمس دقائق كبيرة لاخراج حاجياتك الحقيرة من غرفتى ..

واسرعت الى هذه الغرفة قبل ان يتحرك هذا المخلوق لكى يستوقفنى لبطء حركته .. وما ان فتحت الباب حتى كاد قلبى ينخلع اذ رايت انها لم تعد غرفتى بحال ياالخوانى !.. كانت الرايات الخاصة بى قد رفعت كلها عن الحوائط ، ووضع هذا المخلوق مكانها صور ملاكمين ، وايضا صورة فريق جلس كالاصنام مشبك الايدى ، امامه شبه درع فضية .. ثم ابصرت بعد ذلك ماطرا من نقل .. فان (الاستيريو) ودولاب اسطواناتى لم يعد لهما وجود ، ولا صندوق كنزى المغلق المحتوى على الزجاجات والعقاقير وحقنتين نظيفتين جديدتين .. وهكذا صرخت :

ـ هناك عمل قذر حقير تم هنا !.. ماذا فعلت بحاجياتى الشخصية ياابن الحرام الشنيع ؟..

كان الخطاب موجها الى ذلك المدعو جو ، غير ان ابى هو الذى تولى الرد قائلا :

ـ كل هذه الاشياء قد اخذها البوليس يابنى .. تبعا للوائح الجديدة الخاصة بالتعويض للضحايا ..

كان من اشق الامور الا يصيبنى الغثيان ، ولكن راسى مسه صداع عنيف واشتد جفاف حلقى حتي اضطررت الى اخذ رشفة من زجاجة اللبن التى كانت على المائدة . الى حد ان المدعو جو قال :

ـ اخلاق خنازير قذرة !..

اما انا فقلت تعقيبا على كلام ابى :

ـ لكنها توفيت .. تلك العجوز صاحبة القطط توفيت !..

فقال ابى وهو اقرب الى الاسى :

ـ المسالة كانت متعلقة بالقطط ، التى تركت دون ان يعنى بها احد الى ان فتحت وصية العجوز ، وهكذا تعين عليهم ان يخصصوا شخصا لاطفالها .. وهكذا باع البوليس حاجياتك من ملابس وغيرها للمساعدة فى تدبير النفقات من اجل القطط .. هذا هو القانون يابنى .. لكنك لم تكن ابدا ممن يتبعون القانون !..

اضطررت ان اجلس ، بينما قال ذلك المدعو جو :

ـ استاذن قبل الجلوس ، ايها الخنزير الصغير المجرد من الاخلاق !..

فرددت عليه بسرعة وعنف :

ـ سد فتحة فمك الواسعة القذرة ياهذا !..

ومن ثم حاولت ان اكون معقولا ومبتسما ، من اجل صحتى . وهكذا قلت :

ـ لا باس .. هذه غرفتى ، ولا نكران لذلك .. وهذا بيتى ايضا .. ماهى الاقتراحات التى عندكم يابى وامى ؟..

غير انهما لزما الصمت والوجوم ، وكانت امى تهتز شيئا ما وقد استحال وجهها الى تجاعيد بللتها الدموع ، وما لبث ابى ان قال :

ـ كل هذا يحتاج الى تفكير يابنى .. لايمكننا ان نطرد جو هكذا .. اهذا ممكن فعلا ؟.. ان جو مرتبط بعقد عمل لمدة سنتين ، وقد رتبنا الامور بناء على ذلك .. اعنى يابنى اننا فكرنا انك ستمضى فى السجن مدة طويلة ، وغرفتك خالية (تشحذ) من يشغلها !..

بدا ابى خجلا كما دلت على ذلك قسمات وجهه ، وهكذا لم

'جد الا ان ابتسم مومئا براسي ، وقلت :
ــ رايت كل شيء .. انكم اعتدتم راحة البال . واستطبتم بعض النقود الانسانية !.. هذا هو الموقف !.. ولم يكن ابنكم الا مصدر متاعب شديدة لكم !..
وصدقوني ياأخواني اذا قلت انني شعرت اذ ذاك بالرثاء لنفسي والرغبة في البكاء .. وعندئذ قال ابي :
ــ ربما ترى يابني ان جو دفع ايجار الشهر القادم ، ومهما يمكن ان نفعل مستقبلا فلا يمكننا ان نطلب من جو أن يذهب ، هل هذا ممكن ياجو ؟..
ــ ان واجبي يجعلني افكر فيكما انتما الاثنين ، يامن كنتما مثل اب وام لي .. فهل من الصواب والعدل ان انسحب واتركما تحت رحمة هذا الوحش الصغير الذي لم يكن ابنا بارا باي حال ؟!.
انه يبكي الان .. لكن هذا مكر وتصنع منه !.. دعوه يذهب ويبحث ـه عن غرفة في اي مكان !.. دعوه يتعلم جزاء اخطائه وتصرفاته ويعرف ان ولدا فاسدا مثله لا يستحق ان يكون له اب وام مثلما كنتما له !..
وهنا نهضت قائما والدموع لاتزال في عيني ، وقلت :
ــ لا بأس .. قد عرفت حقيقة الموقف الان .. لا احد يريدني و يحبني !.. انني قاسيت وقاسيت وقاسيت ، وكل واحد يريد ن استمر في المعاناة والعذاب !.. عرفت هذا فعلا !..
فقال ذلك المدعو جو :
ــ انك جعلت الاخرين يعانون .. فمن العدل ان تعاني بالمثل..
ـهم اخبروني بكل مافعلته في جلوسي هنا الليالي حول مائدة الاسرة ، .كان شيئا مروعا ان اسمع ما سمعت !.. انه جعلني اتقزز في لواقع !..
ــ ياليتني عدت الى السجن ، انه ارحم بي منكم !.. انا ذاهب 'لان !.. ولن تروني ابدا بعد هذا !.. سأشق طريقي بنفسي !.. ـكرا لكم ثم شكرا !.. لتقع التبعة على ضمائركم !.
فقال ابي :
ــ لا تنظر الى الامور هكذا يابني ..
ذلك وقد اجهشت أمي بالبكاء والتوت ملامح وجهها ، بينما ـد ذلك المدعو جو يضع يده حولها مربتا عليها مواسيا لها .. وهكذا ـجهت الى الباب مترنحا وخرجت ، تاركا اباهم ياأخواني يتحملون ـراقب جرحهم الفظيع !..

الفصل الثاني

خرجت الى الشارع اسير بلا هدف وعلى غير هدى يالخواني ، وانا بتلك الملابس الليلية التى راح الناس يحدثون فيها وانا امر بهم فى ذلك اليوم الشتوى القارس البرد ، وكل ما كان يساورنى هو ان اباعد بينى وبين كل هذا والا افكر فى اى شىء على الاطلاق .. وهكذا ركبت الاتوبيس الى منطقة (سنتر) ، ومنها عدت سيرا الى (تيلور بليس) حيث يوجد محل بيع الاسطوانات (ميلوديا) الذى اعتدت أن أتحفه بطلباتى المتواضعة .. وقد بدا لى ياالخوانى كالعهد به فى الماضى ، ولما دخلت اليه توقعت أن أرى صاحبه (آندى) الاصلع النحيل الذى كان يخف الى تلبية رغائبى .. لكن لم يكن هناك آندى ياالخوانى ؛ وانما سمعت صياحا وضوضاء من (النادسات) المراهقين فتيانا وفتيات يستمعون الى اغنيات (البوب) الشنيعة الشائعة ويرقصون على نغماتها ايضا ، وكان الجالس خلف (الكاونتر) هو احد فتيان (النادسات) ذاته ، ينقر باصابعه باسما متهللا .. وهكذا تقدمت اليه وانتظرت الى ان يتنازل لملاحظة وجودى ، وعندئذ قلت له :

ــ اود ان استمع الى اسطوانة موتسارت رقم ٤٠ ..

ولا ادرى لماذا خطرت هذه الاسطوانة فى ذهنى ، ولكن هذا ماكان .. فقال لى :

ــ ٤٠ ايه ياصاحبى ؟..

فأجبت قائلا :

ــ السيمفونية رقم ٤٠ ..

فتدخل واحد من فتيان (النادسات) الراقصين وكان فتى مسدل الشعر على العينين ، قائلا :

ــ أوه !.. (سيمفونا) ؟.. الا يبدو هذا مضحكا ؟.. انه يريد (سيمفونا) !..

شعرت بالغضب يثور فى دخيلتى ، لكن كان لابد ان احذر هذا ،

وهكذا ابتسم [illegible] والعمان والفتيات الراقصين والرامه [illegible] المحل :

ــ ادخل الى [illegible] وسأوسلك بما تريد سماعه ..

وهكذا [illegible] الذى يمكنك ان تستمع فيه الى الاسطوانات التى تريد [illegible] ووضع الشاب اسطوانة لى ، غير انها لم تكن اسطوانة [illegible] موسارت .٤) ، وانما اسطوانة (موتسارت براج) ، والظاهر انه وضع اية اسطوانة لموتسارت وجدها على الرف ، مما كان لابد ان يثير غضبى ، وتعين على ان احذر هذا خوفا من شعورى بالغثيان ، والالم ، ولكننى نسيت شيئا ما كان يجب ان انساه ؛ وهو أن هؤلاء الاطباء الماكرين قد رتبوا الامر بحيث تؤدى اية موسيقى عاطفية الى ان تبعث عندى الغثيان كلما شاهدت او اردت ارتكاب اى عنف .. والسبب هو ان افلام العنف التى شاهدتها كانت تقترن بالموسيقى ، وقد تذكرت بصفة خاصة ذلك الفيلم الفظيع عن النازية وما اقترن به من موسيقى بتهوفن .. والان هاهى موسيقى موتسارت تبدو فظيعة فى سمعى .. وهكذا اندفعت خارجا من الكشك للتخلص من اعراض الغثيان والالم التى كانت توشك أن تلم بى ، واندفعت الى خارج المحل ذاته واولئك الفتيان (النادسات) يضحكون فى اثرى وصاحب المحل يقول لى : ماذا ؟ ماذا ؟ ماذا .. غير اننى لم اعبأ باحد وابتعدت مترنحا كأعمى عبر الشارع واستدرت عند الناصية لكى اقصد الى (مشرب لبن كوروفا) .. فقد عرفت ما اريد ..

كان المشرب شبه خاو اذ كان الوقت لايزال صبحا .. وقد بدا غريبا فى نظرى ، بعد ان طلوه برسوم ابقار حمراء تخور ، ومن خلف (الكاونتر) قام شخص لا أعرفه .. ولكن عندما طلبت (لبنا مقوى كبيرا) عرف ذلك الشخص النحيل الحليق الوجه مطلبى ، فاخذت كأس اللبن المقوى الكبير الى احدى المقاصير الصغيرة الممتدة بدوران المحل والمحجوبة بالستائر .. حيث جلست فى أحد المقاعد المحشوة ورحت أحتسى وأحتسى .. وبعد أن أتيت على الشراب كله بدأت أشعر بأن كل شىء يتغير ..

الفيتنى قد سمرت عينى فى قطعة ورق مفضض متخلفة من علبة سجائر ملقاة على الارض ، اذ كانوا لا يعنون بالكنس فى هذا المحل .. وقد اخذت القصاصة المفضضة تكبر فى نظرى وتكبر ،

ياالخواني ، حتى استحالت الى كتله نارية متوهجه جعلتني اطرف بعيني .. واستمرت تكبر وتكبر حتى ملأت ليس فقط المقصورة التي جلست فيها بل مشرب كوروفا كله ، ثم امتدت فشملت الشارع، ثم المدينة باسرها ، ثم الدنيا جمعاء !.. ورايتني اتفوه بكلام غير مفهوم لا ادرى كنهه .. ثم استحال اللون المفضض الى الوان شتى لا حصر لها ولم تكتحل بها عين بشر من قبل .. ثم بدا لى انني ابصر مجموعة من التماثيل تتراءى عن بعد سحيق ولكنها تقترب من مكانى وانية دائبة ولها ضوء باهر يشيع فيها من اعلى واسفل وعن يمين وشمال ياالخواني !.. كانت تبدو كأطياف سماوية نورانية ولكن لها لحى واجنحة تخفق من حولها فيما هو فضاء علوى ، ولها اعين تتحرك وتدب فيها الحياة ، وقد زاد اقتراب الاطياف منى حتى شعرت كانها تطبق على وتكاد تهصرني .. ثم احسست انني انزع عنى كل شيء : الملابس ، والجسد ، والعقل ، والاسم — كل أولئك قد تجردت منه وانسلخت عنه ، حتى لقد احسست كأنني فى السماء !.. وبعدها خلت بكل شيء كانه يتصدع ويتهاوى ، وفى النهاية تلاشت الاضواء والاطياف واستحالت الى برودة ، واذا انا كما كنت من قبل ، أمامى كأس فارغة على المائدة ، وبى رغبة جامحة للبكاء ، واحساس بأن الموت هو الجواب الوحيد لكل شيء !..

وهذا هو المطلوب .. هذا هو الذى رأيت بجلاء انه الشيء الذى يتعين أن افعله .. لكن على اى وجه افعله ؟ ذلك مالم اعرفه تماما ، اذ لم افكر فيه من قبل ياالخواني ... فى حقيبتى الصغيرة التى بها حاجياتى كانت مطواتى قرن الغزال ثاوية ، غير أننى شعرت فى الحال بغثيان شديد عندما فكرت فى طعن نفسى بها فيتدفق دمي القاني غزيرا .. ان ماكنت أريده لم يكن شيئا عنيفا ، ولكن شيئا يجعلنى انتهى بنوم رفيق ليكون فى هذا خاتمة حياة محدثكم المتواضع ، فلا تحدث بعد ذلك متاعب لاى انسان .. وقد خطر لى أننى اذا عرجت على المكتبة العمومية القريبة فقد اجد بها كتابا يرشدنى الى افضل طريقة لاختتام حياتى بغير الم .. وتصورت نفسى ميتا وكيف يحزن كل أحد لنهايتى : ابى وامى وذلك المدعو جو الحقير المغتصب ، وكذلك الدكتور برودسكى والدكتور برانوم ووزير الداخلية ذاك ، ومن اليهم من الناس !.. ومن بعدهم الحكومة السنية المتفاخرة بما حققت من اعمال !..

وهكذا خرجت الى الشارع فى برد الشتاء هذا القارس ، وكان الوقت الان يناهز الثانية بعد الظهر كما رأيت بنظرة الى ساعة

الميدان ، ومضى هذا [illegible] وهذا اطول كثيرا مما كنت اظن !.. واذا [illegible] امام [illegible] بوليفار سيرا على القدمين ثم [illegible] وانعطفت اخيرا حول الناصية ، واذا انا امام [illegible] ..

كان المبنى [illegible] ولم اتذكر انني زرته منذ ان كنت صغيرا فى سن السادسة .. وكان منقسما الى قسمين : قسم لاستعادة الكتب وقسم للمطالعة ، وهذا القسم مليء بالجرائدوالمجلات وقراء كثيرين من اناس مسنين تنضح اجسادهم بالشيخوخة والفاقة .. وكانوا رافعين امام حوامل الصحف الممتدة حول القاعة بمطون ويتجشاون ويهمهمون لانفسهم ويقلبون الصحائف لقراءة الاخبار فى كآبة ؛ ومنهم من جلسوا الى المناضد يتصفحون المجلات او يتظاهرون بالاطلاع عليها ، وبعضهم نائم ومنهم من يغط فى النوم ..

واول الامر لم استطع ان اتذكر ماجئت اطلبه ، ثم تذكرت مصدوما انني جئت الى هنا لكى اهتدى الى وسيلة اختتم بهـا حياتى دون الم !.. وهكذا اتجهت الى رف المراجع ، فوجدته مليئا بالكتب ، ولكن ليس بينها ياإخوانى مافيه عنوان يرشدنى الى ضالتى المنشودة .. وتناولت كتابا فى الطب اخذت اتصفحه ، غير انه كان حافلا بالرسوم والصور الفوتوغرافية لجروح وامراض بشعة مما تقززت به نفسى .. هكذا جلست فى مقعد استريح وانا منقبض النفس اكاد ابكى ، واذا رجل مسن فى المقعد المواجه يقول لى :

ــ ماذا بك يابنى ؟.. ماهى مشكلتك ؟..

فقلت :

ــ اريد ان انتهى !.. لقد شبعت من الحياة حتى اصبحت لا تحتمل !..

فقال قارىء بجانبى كان يقرأ مجلة مليئة برسوم هندسية دون ان يرفع رأسه :

ــ صمتا !..

ان المجلة والقارىء دقا جرسا فى ذهنى لم انتبه له اول الامر ، بينما قال محدثى تعقيبا على كلامى :

ــ انت صغير جدا لمثل ماتقول يابنى .. ياللعجب ، الحياة امامك ممتدة عريضة بها كل شىء !..

فقلت بمرارة :

ــ نعم .. مثل جسم املس الظاهر متقيح الباطن !..

فقال قارىء المجلة مرة اخرى وهو يرفع راسه هذه المرة :
ـ صمتا :
وتلاقت نظراتنا .. فعرفته على الفور .. اما هو فقد قال بلهجة مستطيرة :
ـ انا لا انسى ابدا شكل اى انسان !.. والله ايها الخنزير الصغير لقد وقعت فى يدى الان !..
(علم البللوريات) !.. نعم .. كانت الكتب المصنفة فى هذا العلم هى التى حملها ذلك الرجل المسن فى تلك الليلة بعد استعارتها من المكتبة !.. فحطمت اسنانه .. ومزقت ملابسه وكتبه عن علم البللوريات !..
رايت انه لابد لى من الانسحاب من هنا باسرع ما يمكن ياأخوانى !.. غير ان هذا العجوز نهض قائما وراح يصرخ فى ارجاء القاعة مستنجدا بروادها جميعا من قارئى الصحف والمجلات والمصطفين حول المنضدة والنائمين ايضا قائلا :
ـ وقع فى ايدينا !.. الخنزير الصغير السام الذى اتلف كتب علم البللوريات ، تلك الكتب النادرة التى لن يجود الزمان بمثلها !.. هو الان هنا بيننا وتحت رحمتنا !.. هو وعصابة ضربونى وداسونى بالاقدام وجردونى من ملابسى وانتزعوا اسنانى !.. انهم هزأوا من دمى المسفوح وتأوهاتى الحزينة .. انهم جعلونى اهرب الى بيتى مشدوها عاريا !..
لم يكن هذا كله صحيحا ياأخوانى كما تعرفون مما سلف . اذ كانت تستره بعض ملابسه ، ولم يكن عاريا تماما !..
لم اتمالك ان اخذت اصرخ مثله قائلا :
ـ كان هذا منذ سنتين .. وبعدها نلت عقابى !.. اننى تعلمت درسا .. انظروا فى الجرائد !.. صورتى فيها !..
وقال واحد منهم عليه طوالع جندى سابق :
ـ عقاب ؟! .. امثالكم يجب استئصالهم !.. مثل كثير من الحشرات الضارة !.. (عقاب قال) ؟! ..
فقلت :
ـ لا باس .. لا باس .. كل واحد حر فى رايه .. سامحونى كلكم .. لابد ان اذهب الان ..
وتحفزت للخروج من عش المسنين هذا وقد سطع فى ذهنى اسم فجاة : الاسبرين !.. نعم هذا هو المطلوب !.. بامكانى ان انهى

حياتى بمائة قرص اسبرين .. اسبرين من مخزن الادويه .. بيد أن صاحب علم البللوريات عاد يصرخ :
ـ لا تتركوه يذهب !.. سنعلمه ماهو العقاب ، هذا الخنزير الصغير الفاشل !.. امسكوه !..
وصدقونى ياإخوانى ان اثنين او ثلاثة من هؤلاء الطاعنين فى السن ، حوالى تسعين سنه عمرا ، امسكونى بايديهم المرتعشة ، حتى قززتنى روائح المرض والشيخوخة التى كانت تفوح منهم .. وكان اسبقهم صاحب علم البللوريات الذى راح ينهال باللطمات على وجهى وانا احاول الابتعاد والخروج عبثا ، لكن هذه الايدى المتبقة التى كانت ممسكة بى كانت اقوى مما كنت اظن .. ومن بعدهم اقبل قراء الجرائد يتطاوحون لكى ياخذوا نصيبهم من تاديب محدثكم المتواضع يااخوانى !.. وراحوا جميعا يصرخون بهذه النداءات :
ـ اقتلوه !.. دوسوه بالاقدام !.. انزعوا اسنانه !..
لقد فهمت السبب .. كانت هى الشيخوخة تحاول ان تنتقم من الشباب ..
هكذا اطبقوا على من كل جانب ياإخوانى وفى طليعتهم صاحب علم البللوريات يكيل لى اللطمات تباعا دون أن اجسر على ان اكيل لهم بنفس الكيل ، والا تعرضت للشعور بالغثيان والالم الشنيع .. لكننى على الرغم من ذلك كنت اشعر والعنف يدور من حولى وبحف بى أن الغثيان آت لا محالة ..
وعندئذ اقبل احد المشرفين وكان شابا فصاح قائلا :
ـ ماذا يجرى هنا ؟.. كفوا عن هذا فى الحال .. هذه قاعة للمطالعة !..
لكن احدا منهم لم يعبا به ، فقال على الاثر :
ـ لا باس .. سأتصل بالشرطة .. تليفونيا ..
وهكذا صرخت بدورى وكنت اظن اننى لن افعل مثل هذا فى حياتى :
ـ نعم !.. نعم !.. افعل هذا !.. احمنى من هؤلاء العجائز المجانين !..
ولاحظت ان ذلك المشرف لم يكن متحمسا للمشاركة فى المهمة وانقاذى من غضب وجنون أولئك المسنين ومن مخالبهم .. كل مافعله هو انه انسحب الى مكتبه أو الى مكان التليفون .. والان كان هؤلاء العجائز يلهثون كثيرا ، وشعرت أن بوسعى أن أتملص منهم فيتساقطون

على الارض ، غير انني تركت نفسي مقيدا بينهم ؛ صابرا الى اقصى حد ، مغمض العينين ، شاعرا بضرباتهم الواهنـــة على وجهي ، مـــستمعا الى صرخاتهم اللاهثة وانفاسهم المتقطعة وهم يقولون :

ـ ياللخنزير الصغير .. ياللقاتل الوغد !.. ياللمجرم قاطع الطريق !.. اقتلوه قتلا !..

وعندئذ تلقيت لطمة اليمة على انفي حتى لم اتمالك ان قلت لنفسي : ليذهبوا الى جهنم !..

وفتحت عيني واخذت اصارع لاسترداد حريتي مما لم يكن بالامر العسير باخواني ، وتملصت مبتعدا عنهم الى الردهة خارج قاعة المطالعة ...

لكن هؤلاء المنتقمين العتاة جدوا في اثرى وهم يلهثون ويشهقون كمن هو على وشك الموت ؛ مشرعين مخالب ايديهم الراعشة للاطباق من جديد على صديقكم ومحدثكم المتواضع .. ثم لم البث ان تعثرت بسببهم وسقطت على الارض لكي يرفسوني بالاقدام ، وبعدها سمعت أصواتا شابة تصيح بهذه الكلمات :

ـ لا بأس !.. لا بأس !.. توقفوا الان !..

فعرفت أن رجال الشرطة قد حضروا ..

الفصـــــل الـثـالـث

كنت فى غاية الدهشة بالخوانى ، ولم استطع ان ابصر جيدا ، غير انى كنت متأكدا اننى قد التقيت برجال الشرطة هؤلاء فى مكان ما قبل الان .. ان الشرطى الذى امسك بى لدى باب الخروج من المكتبة وهو يقول (كفى ، كفى ، كفى) ـ لم يكن معروفا لى تماما ، لكن بدا لى انه صغير السن ليكون من الشرطة .. لكن الاثنين الاخرين تأكدت من ظهريهما اننى رايتهما من قبل .. كانا يلوحان بكرباجين صغيرين تهديدا وتخويفا لاولئك العجائز فى شبه مرح وشماتة ، قائلين :

ـ كفى ايها الاولاد الاشقياء .. لابد ان يعلمكم هذا ان تكفوا عن الشغب ومخالفة القانون ، ياشرار ومعتدون ..!

وهكذا ردوا اولئك المنتقمين اللاهثين الشاهقين الموشكين على الموت الى قاعة المطالعة ، ثم انثنوا وهم يبتسمون سرورا وتفكهـــا للنظر الى . وقال اكبرهم :

ـ جميل !.. جميل !.. بديع !.. بديع !.. اليس هـــذا البكس الصغير !؟ .. لم نرك منذ مدة طويلة ايها الزميل !.. كيف الحـــال ؟..

كنت كالمشدوه ، فان الكسوة الرسمية وخوذة الراس من الصعب ان ابصر من هو هذا ، وان كان الوجه والصوت معهودين لى تماما .. ثم نظرت الى زميله الذى كان مهلل الوجه ، فلم يبق فى نفسى اى شك .. ثم قلبت النظر مرة اخرى الى اولهما الذى قال (جميل وبديع) فاذا هو بيليبوى غريمى القديم ، اما الاخر فكان بالطبع ديم ، ذلك الذى كان رفيقى السالف والعدو ايضا لبيليبوى ، ولكنه الان شرطى بكسوة وخوذة وكرباج صـــــغير لحفظ الامن والنظام !..

قلت : آه !.. كلا !..

فهتف ديم وهو يقهقه قهقهته التى اتذكرها تماما :

ـ مندهش ؟.. ها !.. ها !.. ها !..

فقلت : هذا مســـــتحيل !.. لا يمكن ان يكون هذا .. انا لا اصدقه !..

فقال بيليبوى مبتسما كمن يكشر عن انياب :

ـ كل شيء واضح للعيان .. لا خداع ولا غش ولا سحر ايها الزميل .. هو عمل لاثنين بلغا سن العمل .. فى الشرطة ..

فقلت : انتما صغيران جدا .. اصغر كثيرا .. ان الشرطة لا تقبل فتيانا من سنكم !..

فراح ديم الشرطى يقول :

ـ كنا صغارا ...

لم استطع يااخوانى ان اهضم هذا او اصدقه ، بينما مضى يقول :

ـ كنا صغارا يازميلى الصغير .. وكنت انت اصغرنا جميعا .. وها نحن اولاء هكذا الان ..

فقلت : مازلت لا اصدق ..

وما لبث بيليبوى ـ الشرطى بيليبوى الذى لم استطع ان انقبله ـ مالبث أن قال للشرطى الثالث الممسك بى والذى لم اكن اعرفه :

ـ اظن اننا نحسن صنعا ياركس اذا خرجنـــــا قليلا عن الاجراءات المعتادة .. الاولاد سيبقون دائما اولادا ، ولا لزوم لكى نتبع اللوائح المرونة هذه المرة .. هذا الشخص قد عاد الى عاداته القديمة كما نتذكر نحن ، وان كنت انت لا تتذكر طبعا .. ها قد رايناه يعتدى على المســنين العزل ، وكانوا محقين فى الاقتصــاص منه .. لكن لابد لنا ان نتبع اسلوبنا نيابة عن الحكومة ..

فقلت وانا لا اكاد اصدق اذنى :

ـ ماهذا كله ؟.. انهم هم الذين اعتدوا على يااخوانى !.. انتم لستم فى صفهم ولا يمكن ان تكونوا !.. لا يمكنك هذا ياديم .. انه كان شخصا تلاعبنا به فى الايام السالفة وحاول الان ان ينتقم لنفسه بعد كل تلك المدة الطويلة ..

فقال ديم :

ـ مدة طويلة فعلا .. اننى لا اتذكر تلك الايام .. ولا تقل لى ديم ايضا .. قل ياحضرة الضابط !..

وقال بيليبوى مؤمنا على ذلك الكلام ، وكان الان اقل سمنة :

ـ مع ذلك نتذكر مافيه الكفاية .. ان الفتيان الاشقياء الذين يتداولون المطاوى الحادة يجب قمعهم !..

واطبقوا على بشدة واخرجونى عنوة من المكتبة .. وكان ثمة

سيارة شرطة للدوريه منتظرة فى الخارج . كان سائقها ذلك المدعو ركس .. ندفعوا بى الى جانب السيارة الخلفى وانا لا اكاد اصدق الا انهم يمزحون ، وأن ديم لا يلبث ان ينزع خوذته عن راسه ويضحك مقهقها كعادته .. لكنه لم يفعل .. نقلت محاولا مغالبة القلق الذى انتابنى :

وصاحبنا بيتر ؟ ماذا جرى له ؟.. ان ماحدث لجورجى كان شيئا محزنا .. انتى سمعت عن هذا ..

فقال ديم :

ــ بيتر ؟.. آه ؟ نعم . بيتر .. يخجل الى [illegible] هذا الاسم ..

ولما رايت انهم يخرجون من المدينه [illegible]

ــ الى اين نحن ذاهبون ؟..

فاستدار بيليموى من المقعد الامامى [illegible]

ــ الوقت لايزال نهارا .. مجرد مسيره الى الريف [illegible] هناك الاشجار مجردة فى الشتاء ولكنها جميله وجميله !.. [illegible] من المستحسن لاهل المدينة ان يشاهدوا عقابنا الخصوصى .. والشوارع لابد ان يحفظ فيها الامن باكثر من طريقة ..

والتفت امامه مرة ثانية ..

قلت له :

ــ اسمع !.. اننى لا افهم هذا ابدا !.. ان الايام السالفة قد انطوت وذهبت .. وعن كل مافعلته ـ الماضى قد نلت عقابى واصبحت سليما معافى ..

فقال ديم :

ــ ان الرئيس قرا لنا كل هذا .. وقال انها طريقة علاج ناجحة ..

فقلت باشمئزاز :

ــ قرا لكم ؟.. امازلت بالغ على جهلك ولا تعرف القراءة لنفسك ؟..

فرد ديم بلهجة اقرب الى الدمة والاسف :

ــ آه .. لا .. لا تتكلم هكذا ..

وشفع هذا بلطمة عنيفة سددها الى انفي ؛ حتى بدا الدم ينزف منه

فقلت بمرارة وانا امسح الدم بيدي :

ـ لم تكن بيننا ثقة ابدا !.. كنت دائما انفرد بنفسي !..

وقال بيليبوى :

ـ يكفي الى هنا ..

كنا الان في الريف حيث بدت الاشجار مجردة ولا يسمع سوى اصوات طيور متباعدة ؛ وعلى البعد كان ما يشبه ماكينة زراعية يتردد صدى دورانها .. وقد اقبل المساء اذ كنا في صميم الشتاء .. وبدت المنطقة خلوا من الناس والحيوان ؛ فلم يوجد سوانا نحن الاربعة ..

وقال الخيم : انزل باباليكس .. مجرد نزهة قصيرة ..

وفي خلال هذا كله كان السائق المدعو ركس جالسا الى عجلة القيادة يدخن سيجارة ويقرأ كتابا بين يديه في ضوء مصباح السيارة دون ان يهتم بما نفعله بيليبوى وديم بمحدثكم المتواضع .. ولن اسهب في بيان مافعلاه بي ؛ ولكنه كان ضربات صامتة وانفاسا لاهثة بين جلبة الماكينة الزراعية الدائرة واصوات الطيور المتباعدة ؛ ذلك والسائق جالس في مكانه يقلب صفحات الكتاب في اتم هدوء وسكينة .. وظل الاثنان لا يكفان عن كيل الضربات لي فترة ليست بالقليلة.. واخيرا قال بيليبوى او ديم اذ كنت لا اتذكر من منهما المتكلم :

ـ اظن ان هذا يكفي ايها الزميل .. الا ترى هذا ؟..

ثم صوب كل منهما ضربة على وجهي حتى وقعت ولبثت منطرحا فوق الحشائش .. وكان البرد شديدا ولكنني لم اشعر به .. وما لبث الاثنان ان مسحا ايديهما في الاتربة ثم لبس كل منهما كسوته ووضع خوذته على رأسه وكانا قد نزعاهما ، واخيرا عادا الى السيارة وبيليبوى يقول :

ـ سوف نراك مرة اخرى في مكان ما باليكس !..

اما ديم فقد ارسل نهقته الحيوانية المعهودة .. واتم السائق قراءة الصفحة التي كان يقراها ووضع الكتاب جانبا ، ثم ادار محرك السيارة وقادها في اتجاه المدينة ورفيقي السابق وغريمي السابق

يلوحان لى بايديهما .. بيد اننى لبثت منطـــــرحا فى مكانى منهكا مضعضعا ..

وبعد فترة شعرت باوجاع شديدة ، ثم نزل المطر لاذعا كالثلج.. ولم ابستطع ان ابصر انسانا على مدى النظر ، ولا انوار تنبعث مـن بيوت .. فالى اين اذهب ، انا الذى لا بيت له ولا نقود كثيرة فى جيبه !..

لقد اجهشت بالبكاء .. ثم لم البث ان استويت قائما ومضيت امشى !..

الفصـــــــل الـرابـــع

البيت !.. البيت !.. البيت ـ كان ما اريده هو البيت !.. وكان البيت هو الذى وصلت اليه ياأخوانى !..

لقد رحت امشى خلال الظلام ، متجها لاشطر المدينة بل فى اتجاه الجلبة التى كانت تصدر من الماكينة الزراعية .. وقد أفضى بى هذا الى احدى القرى التى شعرت اننى رايتها من قبل ، لكن ربما كان ذلك لان القرى كلها تتشابه فى الظلام خاصـة .. هنا كانت بيوت وما يشبه المشرب ، وعند طرف القرية قام بيت صغير منعزل ، واستطعت ان اتبين اسـمه بخط أبيض فوق البوابة : (البيت) .. وكنت اقطر من البلل بسـبب هذا المطر القارس ، الى حد ان ملابسى كانت فى حالة يرثى لها ، وكان شعرى الغزير الذى كان موضـــع فخارى غابة مبللة مشعثة فوق هامتى ، وكنت واثقا من وجـود جروح وكدمات فى وجهى كله ، وشعرت باثنتين من اســــنانى مخلخلتين كلما حركت لسانى ، وكانت الاوجاع تشـيع فى انحـاء جسدى ، هذا الى ما ألم بى من عطش شديد جعلنى أفتح فمى لكى اتلقى المطر البارد ، وكانت معدتى تتلوى بصوت مسموع طيلة الوقت اذ لم اذق طعاما منذ الصباح ، وما تناولته كان أقل من القليــــل ياأخوانى ..

فى هذا البيت قد اجد انسانا يســـعفنى .. ففتحت البوابة وتقدمت خطوات فى المشى والمطر يستحيل الى زمهرير ، ثم طرقت الباب برفق .. ولما لم يظهر احد كررت الطرق بصوت أعلا ، وعندئذ سمعت وقع اقدام تقترب من الباب .. وبعدها فتح الباب وقال صوت رجل من الداخل :

ــ نعم ؟.. ماذا هناك ؟..

فقلت : اسعفنى بالله .. ان البوليس ضربنى وتركنى اموت فى الطريق !.. اناشدك ان تعطينى اى شراب ياسيدى وركنـا قرب النار !..

وعندئذ فتح الباب عن آخره ، واستطعت ان ارى فى الضوء والدفء نارا موقدة تتلظى .. وقال رب الدار :

ـ ادخل ، مهما نكن !.. لطف بك الله ياضحية ، يامسكين .. ادخل ودعنا ننظر اليك !..

وهكذا دخلت انطوح ، ولم اكن افتعل هذا تماما باخوانى ؛ فقد كنت اشعر باننى فى اسوأ حال .. وقد وضع هـــذا الرجل الطيب يديه على كتفى وجذبنى الى داخل هذه الغرفة التى كانت بها النار المستوبة ، وفى الحال تعرفت على مكان تلك المدفأة ولماذا كانت كلمة (البيت) المكتوبة على البوابة معهودة لدى .. ونظرت الى هذا الرجل ونظر هو الى فى تعاطف ، والان تذكرته تماما .. وطبعا ما كان بمكنه ان يتذكرنى ، ففى تلك الايام الخوالى التى كنت ورفاقى متحررين فيها من كل شيء وكنا نقوم بالعدوان والانتهاك والعبث ؛ كنا لبلتها متنكرين تحت الاقنعة .. كان الرجل ادنى الى قصر القامة وفى منتصف العمر ؛ وكان يضع نظارة على عينيه .. وما لبث ان قال لى :

ـ اجلس بجانب المدفاة ؛ وساحضر لك شيئا من الويسكى والماء الساخن .. مسكين ؛ مسكين ، مسكين !.. انهم ضربوك ضربا شـــديدا !..

فقلت له :

ـ الشرطة !.. كانوا قساة معى بصورة شنيعة ..

فقال وهو يتنهد :

ـ ضحية أخرى !.. ضحية العصر الحديث !.. ساذهب لاحضار الويسكى ثم انظف جروحك بقدر مايمكن ..

وذهب ... ورحت ادير النظر فى ارجاء تلك الغرفة الوثيرة ... كانت شبه ممتلئة بالكتب ؛ الى جانب المدفاة وبعض المقاعد ، وكان يمكن ان اقدر انه لا توجد امراة مقيمة فى البيت ... ورايت آلة كاتبة فوق منضدة ، وكمية من الاوراق غير مرتبة ؛ وتذكرت ان هذا الرجل مؤلف .. كتابه بعنوان (برتقالة بقلب ساعة) كما تذكرت الآن ، وكان من المضحك المبكى ان يعلق هذا العنوان بذهنى ، لكن لابد الا يبدو هذا منى ، اذ كنت الآن فى امس الحاجة الى الاسعاف والرحمة .. ان اولئك الملاعين اصحاب المبنى الابيض القائم بجوار السجن قد فعلوا بى هذا ؛ فجعلونى فى حاجة الى من يسعفنى ويمد الى يدا رحيمة ؛ بل اجبرونى على بذل المساعدة والرحمة من جانبى اذا تقبلهما منى احد !..

وعاد الرجل قائلا :
ـ ها نحن على استعداد ...
واعطاني كاسا من ذلك الشراب احتسيته على الفور وشعرت بتحسن .. ثم عكف على تنظيف جروح وجهي ... واخيرا قال :
ـ لك ان تاخذ حماما دافئا لطيفا ساعده لك ، وبعدها يمكنك ان تحكي لي حكايتك اثناء عشاء ساخن لذيذ ساجهزه ريثما تاخذ الحمام !..
اواه يا اخواني !. كدت ابكي ازاء هذه الشفقة ؛ واظن انه لابد قد راى الدموع في عيني ؛ اذ انه قال وهو يضع يده على كتفي :
ـ كفى !.. كفى !.. كفى !..
ومهما يكن فاني صعدت الى الدور العلوي واخذت ذلك الحمام الساخن ... وقد احضر لي بيجاما وروبا مدفأين قرب النار فضلا عن شبشب مستعمل ... والآن يا اخواني ، فانني على الرغم من الآلام الشديدة التي شملتني في كل موضع من جسدي ؛ شعرت بانني سأتحسن عما قريب .. ولما نزلت الى تحت رايت انه قد اعد في المطبخ المائدة وعليها السكاكين والشوك ورغيف كبير من الخبز وزجاجة من الصلصة ، وما لبث أن صنع طبقا من البيض المقلي واعد الى جانبه قطعا من اللحم المقدد والسجق المليء واقداحا من الشاي الساخن باللبن ... وكم كان بديعا ان اجلس هكذا في هذا المكان الدافيء اتناول الطعام ، ولما كنت اشعر بالجوع الشديد فقد اقبلت على الطعام بنهم ؛ واختتمت بقطع عريضة من الخبز كسوتها بالزبد والمربى من اناءين كبيرين .. وقلت في النهاية :
ـ انا احسن كثيرا ... كيف يمكن ان اوفيك هذا الصنيع ؟.
فقال لي :
ـ اظن انني اعرف من انت ... فان كنت من اظنه انت ، فقد جئت اذن يا صديقي الى المكان الصحيح ... الم تكن صورتك تلك التي كانت في الجرائد صباح اليوم ؟. هل انت الضحية المسكينة لذلك النظام الجديد الشنيع ؟. فان صح هذا ؛ فاذن هي العناية الالهية التي ارسلتك الى هنا ... لقد عذبوك في السجن ، ثم القوا بك خارجه لكي تعذب على ايدي الشرطة ... ان قلبي لينفطر من اجلك ؛ يا ولدي المسكين المنكود !.
لم استطع يا اخواني ان اقاطعه بكلمة واحدة ؛ وان فتحت فمي

على سحنه لكى ارد على اسئلته ، بينما استرسل قائلا :
ـ ان الشرطة مغرمة بالمجيء بضحاياها الى اطراف هذه القرية ... لكنها العناية الالهية التي شاءت وانت ضحية اخرى ان تجيء الى هنا ... ربما تكون اذن قد سمعت عني ؟.
كان لابد ان التزم الحذر يا اخوانى ، ولهذا اجبت :
ـ انني سمعت عن (برتقالة بقلب ساعة) .. انني لم اقرأ الكتاب ، لكنني سمعت عنه ...
فقال وقد اشرق وجهه كما تشرق الشمس في سناء بزوغها :
ـ آه ... الآن حدثني عن نفسك ...
فرحت اقول بكل تواضع :
ـ ليس عندى ما اخبرك به يا سيدى الا القليل ... هناك فتى ابله صبيانى حرضه اصدقاؤه المزعومون او بالاحرى ارغموه على اقتحام بيت سيدة عجوز .. ولم يكن في النية عمل ما يضر ضررا حقيقيا ... لكن من سوء الحظ ان السيدة اجهدت قلبها الضعيف بمحاولتها طردى الى الخارج ، ذلك وان كنت على استعداد للخروج من تلقاء نفسى ، وبعدها توفيت ... وقد اتهمت بانني المتسبب في وفاتها ، وهكذا ادخلونى السجن يا سيدى ...
ـ نعم ، نعم ، نعم ... استمر ..
وبعد ذلك اختارنى وزير الداخلية لاجراء (لتجربة لودوفيكو) على شخصى ...
فقال وقد مال الى الامام اهتماما حتى تلوث مرفقا ذراعيه بالمربى من الطبق الذى كنت ازحته جانبا ...
ـ حدثني عن كل هذا ...
وهكذا اخبرته بكل شيء يا اخوانى ... وقد ابدى اهتماما بالغا بسماع ما قلته وهو لامع العينين منفرج الشفتين فيما كان الشحم في الاطباق يتجمد ويزيد تجمدا ... ولما فرغت نهض عن المائدة مومئا برأسه مرارا وهو يهمهم ، واخذ يجمع الاطباق والاشياء الاخرى من المائدة وحملها الى الحوض لغسلها ...
فقلت له : سأفعل هذا يا سيدى بسرور ...
فقال وهو يفتح الصنبور حتى خرج البخار في نشيش :
ـ استرح .. استرح ايها الفتى المسكين .. انك اذنبت فيما اظن ، لكن عقابك قد جاوز كل الحدود .. انهم احالوك الى

شيء آخر غير كائن بشري ... انهم جردوك من كل قوة للاختيار ... انهم قضوا عليك بأن تكون آلة صغيرة لا قدرة لها الا على اداء ما تواضعوا على انه صلاح ... انني ارى عواقب اعمالهم بوضوح ـ في مجال ما يسمونه (التكيف الهامشي) ... والنتيجة ان اشياء مثل الموسيقى والحب والادب والفن ، قد اصبحت عندك الآن مصدرا لا للمسرة بل للألم !..

فقلت وانا ادخن احدى سجائره ذات الفلتر :

ـ هذا صحيح يا سيدي ؟..

فقال وهو يجفف احد الاطباق شارد الذهن :

ـ انهم يقنطون دائما اكثر من اللازم .. لكن القصد الاساسي هو الخطيئة الفعلية ... ان الرجل الذي لا يستطيع الاختيار يبطل كيانه كرجل !..

فقلت : هذا هو ما قاله واعظ السجن يا سيدي ...

ـ هل قال ذلك حقا ؟.. طبعا قاله ... وكان لابد ان يقوله ، كرجل دين ، اليس كذلك ؟.

قال هذا وهو لا يزال يجفف نفس الطبق الذي ظل يجففه منذ عشر دقائق ... ثم استطرد يقول :

ـ سوف يزورنا بعض الاشخاص لرؤيتك غدا ... في ظني انه يمكن استخدامك ايها الولد المسكين ... ارى انه يمكنك ان تساعد في زعزعة هذه الحكومة التي لا تطاق ... ان تحويل شاب سليم الى (ترس) في آلية الساعة ينبغي الا ينظر اليه بالتأكيد على انه نصر لأية حكومة ، الا الحكومة التي تتباهى بسياستها القمعية !..

قال هذا وهو لا يزال يجفف نفس الطبق ... فقلت :

ـ سيدي ... انك لا تزال تجفف نفس الطبق ... انني اتفق معك يا سيدي بصدد التباهي ... يبدو ان هذه الحكومة شديدة التباهي والمفاخرة ...

ـ آه !.

قالها وكأنه رأى ذلك الطبق لاول مرة ثم وضعه جانبا ، ومضى يقول :

ـ انا مازلت غير مدرب تماما على الاعمال المنزلية .. كانت زوجتي تقوم بكل هذه الاعمال وتتركني لمباشرة كتابتي ...

فقلت : زوجتك يا سيدي ؟.. هل ذهبت وتركتك ؟.

كنت حقا اريد ان اعرف مصير زوجته ، وانا اتذكر جيدا ... فقال بصوت هال ومرير :

ـ نعم ... تركتني .. انها توفيت .. لقد اغتصبوها وضربوها بوحشية ... وكانت الصدمة شديدة جدا ... وقد حدث هذا هنا في البيت !.

كانت يداه ترتعدان وهو ممسك بالمنشفة ، ثم اضاف :

ـ ... في الغرفة المجاورة ... انني استمددت عزما من فولاذ لكي استمر في المعيشة هنا ... لكنها كانت تود لي البقاء حيث لا تزال ذكراها العطرة باقية ... نعم ، نعم ، نعم .. يا للمخلوقة المسكينة !.

انني بااخواني قد استرجعت في ذاكرتي باتم وضوح كل ماحدث في تلك الليلة البعيدة ، وعندما رايت دوري فيها ، بدات اشعر بميل الي الغثيان وسري الالم الى راسي ... وقد شاهد الرجل ما اعتراني ، اذ بدا وجهي ممتقعا ، شديد الامتقاع يكاد الدم ينضب منه حتى كان من السهل أن يرى هذا ... فما لبث ان قال لي برقة : مسكين مسكين يا ولدي !. لابدانك مررت بوقت مروع !. كنت ضحية من ضحايا العصر الحديث ، مثلما كانت هي المسكينة التاعسة ...

الفصـــل الخامـــس

نمت هذه الليلة نوما عميقا يا اخواني دون احلام بتاتا ، وطلع النهار صحوا باردا كالصقيع ، ونفذت الى انفي رائحة فواحة سائغة هي رائحة اعداد طعام الافطار تحت ... وقد استغرقت فترة في تذكر اين انا ، كما يحدث دائما ، لكن سرعان ما تذكرت ، وساورني احساس بالدفء والطمانينة ... لكن سطع في ذهني وانا ممدد في الفراش انه يجدر بي ان اعرف اسم هذا الانســان الطيب القلب الحامي والحاني كأم ، وهكذا قمت ابحث عن كتاب (**برتقالة بقلب** ساعة) الذي لابد ان يحمل اسمه كمؤلف ... ولما لم يكن في غرفة نومي سوى سرير وكرسي ومصباح ، فقد دلفت الى غرفته المجاورة ، وفيها شاهدت صورة زوجته فوق الحائط في اطار كبير ، فما تمالكت ان شعرت بالغثيان يلابسني بتأثير الذكرى ... لكن كان في الغرفة رفان او ثلاثة صفت عليها الكتب ، ووجدت من بينها ، كما قدرت ، نسخة من كتاب (برتقالة بقلب ساعة) وعلى ظهر الغلاف اسم المؤلف : **ف . الكسندر** ... يا الهي !.. انه اليكس آخر !.. وعندئذ اخذت اتصفح الكتاب وانا واقف بالبيجاما عاري القدمين ولكن غير شاعر بالبرد بسبب الدفء السارى في كل ما حولى ، ولم استطع أن ادرك ماهية الكتاب .. اذ بدا لي انه مكتوب باسلوب غريب ، مليئا بالآهات وما اليها ، ولكن ما ظهر لي منه ان كل الناس هذه الايام قد تحولوا الى آلات ، وانا - انت وانا وهو الخ - اشبه بنبات طبيعي مثل فاكهة ... وقد بدا للمؤلف ف . الكسندر اننا جميعا ننبت على شجرة سماها شجرة الدنيا ، في حديقة الدنيا التي انبتها الخالق ، واننا خلقنا لتحقيق مشيئته في قيام المحبة ، او شيء من هذا القبيل ... في الحق يا اخواني انني لم استرح الى هذا الكلام ، وعجبت كيف يفكر ف . الكسندر هكذا الا ان يكون متاثرا بموت زوجته ... لكنه لم يلبث ان نادى علي لكي انزل ، بصوت طبيعي مليء بالبهجة والمحبة وكل ما يتفرع علهما ، وهكذا

هبط محدثكم المتواضع الى الدور الارضي ... وتطل لي وهو يعلب بيضا مسلوقا ويخرج التوست من الفرن : انك نمت طويلا ... الساعة الآن بلغت العاشرة ... اما انا فقد استيقظت منذ ساعات . اشتغل ...

فقلت له : هل تؤلف كتابا جديدا ؟.

فأجاب : كلا ، كلا ... ليس هذا الآن ..

ولما جلسنا نتناول الافطار الشهي واقداح الشاى الكبيرة عن كثب منا اردف قائلا : كلا .. انني كنت أتكلم تليفونيا مع عدة اشخاص ..

فقلت وانا اغترف البيض بالملعقة الصغيرة دون ان اتحسب في كلامي : كنت اظن انه ليس عندك تليفون ...

فقال وقد بدا متنبها جدا مثل حيوان حذر والملعقة في يده : ولماذا لا تظن ان يكون عندى تليفون ؟.

فقلت : لا شيء ... لا شيء ... لا شيء !.

وتساءلت في نفسي يا اخواني الى اى مدى كان يتذكر المراحل الاولى من تلك الليلة البعيدة وانا واقف لدى الباب اردد الحكايةالقديمة واطلب من زوجته الاتصال تليفونيا لاستدعاء طبيب وردها بعدم وجود تليفون ... لقد رمقني بنظرة مستخبرة ، بيد انه لم يلبث ان عاد الى رقته وبهجته ومضى يأكل البيض ويقضم ، قائلا :

ــ نعم ... انني اتصلت تليفونيا بعدة أشخاص سوف يهتمون بقضيتك ... بامكانك ان تكون سلاحا فعالا قويا جدا في ضمان ان هذه الحكومة الحالية الشريرة القاسية لن تعود الي الحكم في الانتخابات الوشيكة ... ان أشد ما تباهى به الحكومة هو الكيفية التي عالجت بها الجريمة في هذه الشهور الاخيرة ..

ورمقني بعينيه عن كثب مرة اخرى من فوق بيضته الساخنة حتى تساءلت في نفسي من جديد اكان يستشف الجانب الذى لعبته حتى الان في حياته .. غير انه عاد يقول : هذه الحكومة التي تجند فتيانا اشداء قساة للعمل في الشرطة ... والتي تدعو الى تطبيق اساليب في (التكيف الاجتماعي) هي غاية في اضعاف النفوس واستنزاف الارادة !..

كل هذه الكلمات المطولة الطنانة كان يقولها يا اخواني وقد لاحت في عينيه نظرات أقرب الى الجنون ...

ثم استطرد قائلا : اننا شهدنا مثل هذا من قبل ؛ فى البلاد الاخرى ... وقبل ان نعرف ما نحن صائرون اليه سوف تحل بنا الدكتاتورية الشمولية بكامل اجهزتها !..

فقلت له وانا اقضم وابتلع : واين مكانى فى هذا كله ياسيدى ؟.

فاجاب وما زالت تلوح عليه تلك المسحة الغريبة : أنت ضحية حية لهذه الخطط الشيطانية ... لابد للناس ، لسواد الشعب ، أن يعرفوا ، وأن يروا !..

ونهض عن أفطاره وراح يمشى فى المطبخ جيئة وذهابا ، وفيما بين حوض غسل الاطباق ودولاب المؤونة ، وهو يقول بلهجة مستطيرة: هل يحبون لابنائهم ان يصيروا الى ماحدث اليك انت الان . ايتها الضحية المسكينة ؟.. الا تنوى الحكومة الآن أن تفرز ما هو جريمة وما ليس بجريمة ، وتعتصر الحياة والارادة من كل من يستصوب مناهضتها ؟..

ثم انحاز الى بعض الهدوء وان لم يعد لاستكمال بيضته ؛ واضاف قائلا : انى كتبت مقالا هذا الصباح بينما كنت أنت نائما ... وسوف ينشر بعد يوم أو نحوه ، مع صورتك الفوتوغرافية المنكودة ... وسوف توقع بامضائك هذا المقال يا ولدى المسكين ، اذ سيكون تسجيلا لما نفعله بك !..

فقلت له : وما الذى ستناله من هذا يا سيدى ؟. اقصد ، فضلا عن المبلغ الجزيل الذى ستحصل عليه عن المقال ؟.. اعنى لماذا انت غاضب وعنيف هكذا ضد هذه الحكومة ـ اذا جاز لى ان اتجاسر على هذا السؤال ؟.. فشد بيديه على حافة المائدة وهو يضغط على اسنانه التى كانت مصفرة بتأثير دخان السجائر : لابد لبعضنا أن يناضل !.. هناك تقاليد عظمى للحرية لابد من الدفاع عنها !.. انا لست مشايعا للحكومة ... وحيثما ارى عملا شائنا فاننى اسعى لازالته !.. ان ابناء الاحزاب لا يعنون شيئا فى نظرى !.. فان تقاليد الحرية هى كل شىء !.. ان سواد ابناء الشعب سوف يتغاضون عن هذا ـ اجل وا اسفاه !.. انهم سوف يبيعون الحرية لقاء حياة ادنى الى الهدوء !.. وهذا هو السبب فى انه لابد من نخسهم ، ووخزهم !.

وشفع هذا يا اخوانى بأن تناول الشوكة وضربها فى الحائط ثلاث مرات حتى انثنت ، ثم طوح بها الى الارض ... واخيرا عاد

يقول بكل رقة : كل جيدا ايها الولد المسكين ... ايهـا الضحية المنكودة للعالم الحديث !..

وبدا لى انه يكاد يفقد صوابه وهو يقول : كل !.. كل !.. كل بعضنى ايضا !.

غير انني قلت له : وما الذى سأناله من هذا ؟. هل ساشفى من الحالة التي انا عليها الآن ؟.. هل سأجد نفسى قادرا على الاستماع الى السيمفونية الرعوية لبتهوفن دون ان اغثى مرة اخرى ؟.. هل يمكننى ان احيا حياة طبيعية من جديد ؟.. ما الذى سيحدث لى يا سيدى ؟..

لقد نظر الى يا اخوانى وكأنه لم يفكر فى هذا قبل الآن ، وعلى اى حال فلم يكن هذا بلدى بال اذا قورن (بالحربة) وما يماثل هذا الكلام ، وبدت عليه علائم الاستغراب اذ قلت له هذا ، وكانني شخص انانى حين اريد شيئا لنفسى .. ثم ما لبث ان قال : آه .. كمـا قلت لك ، أنت شاهد حى يا ولدى المسكين ... كل افطارك عن آخره ، ثم تعال وانظر ما كتبته ، لانه سوف ينشر فى صحيفة (ذى وبكلى ترامبت) مذيلا باسمك ، ايها الضحية المنكودة !..

لا بأس يا اخوانى ... ان ماكتبه كان موضوعا مطولا جدا ، وباكيا جدا ... ومن قراءتي له شعرت بالاسى للانسان المسكين الذى افاض فى سرد عذاباته ومعاناته ، وكيف ان الحكومة قد استنزفت ارادته ، وكيف انه يتعين على كافة الناس الا يدعوا لمثل هذه الحكومة الفاسدة والشريرة ان تتبوأ الحكم مرة اخرى ... وطبعا قد ادركت ان ذلك الانسان المسكين المعذب لم يكن سوى محدثكم المتواضع ... وفى النهاية قلت : عظيم جدا ... لقد ابدعت الكتابة والتصـوير يا سيدى ... انت (مجدع) يا سيدى !..

فقال وكأنه لم يسمعنى من قبل : ماذا ؟..

فقلت : آه !.. هى كلمة نتداولها فيمـا نسـميه (كلام القلاسات) !.. جميع المراهقين يستعملون هذه اللغة يا سيدى !..

واخيرا ذهب الى المطبخ لغسل الاطباق ، وبقيت بالملابس الليلية المستعارة ؛ انتظر ما سوف يفعلون بى ما هم فاعلوه ، اذ لم تكن لدى خطط لنفسى ، اواه يا اخوانى !..

وفيما كان فـ . الكسندر الكبير فى المطـ م سمعنا دقا لجرس

على الباب ، فهتف وهو يخرج من المطبخ مجففا يديه : آه !. هم هؤلاء الناس !. ساذهب اليهم ...
وذهب وادخلهم ، وسمعت حديثا وقهقهة وكلاما عن الطقس الشنيع فى الردهة ، وبعدها دخلوا الى الغرفة ذات المدفاة والكتب والمقال المدبج عن تفاصيل معاناتى ، ولما وقع نظرهم على تفوهوا كلهم بالآه ... وكانوا ثلاثة ، وذكر لى ف . اليكس الكبير اسماءهم : ز . دونين الداخن المصاب بعسر التنفس الذى يسعل باستمرار وهو يعض على طرف السيجارة فى فمه مريقا رمادها على ملابسه وبداه ينفضانه بتبرم ، وهو الى هذا سمين مستدير يلبس نظارة كبيرة ذات اطار سميك ... وروبنشتين الفارع الطول والمهذب لغة وايماءات والمدبب اللحية ... واخيرا د . ب . داسيلفا الكثير الحركات والذى تفوح منه رائحة عطرة قوية ... ان ثلاثتهم رمقونى بنظراتهم طويلا وبدا عليهم الابتهاج الشديد لرؤيتى ... وقال ز . دولين : لا باس !.. لا باس !.. يا له من (اداة) رائعة يمكن ان يكونها هذا الصبى !. واذا لزم الامر ، فيمكن بالطبع ان يظهر اكثر اعتلالا مما يبدو ... اى شىء ممكن فى سبيل القضية ... لا شك انه بمكننا التفكير فى ذلك !.
انى لم استرح الى هذا الكلام يا اخوانى لما فيه من مساس بشخصى الضعيف ، وهكذا قلت : ما هذا يا حضرات ؟. ماذا تدبرون (لمحسوبكم) الصغير ؟.
وعندئذ سارع ف . الكسندر قائلا : غريب !. غريب !. ان هذه اللهجة تثيرنى !. اننا اتصلنا مع بعض من قبل !. انا متاكد من ذلك !.
وراح يتامل مقطبا ... فكان هذا نذيرا لى بان التزم الحذر فى كلامى ... وقال د . ب . داسيلفا : اجتماعات عامة بصفة اساسية ، وعرضك على انظار الجمهور سيكون عونا هائلا ... كما ان الاستعانة بالصحافة مسالة مفروغ منها ... وستكون البداية هى كيف ضيعوا حياتك !. لابد ان نلهب القلوب والمشاعر !.
قال هذا وقد كشف عن اسنان ناصعة البياض تباينت مع وجهه الاسمر ، وبدت عليه مسحة شخص اجنبى ...
قلت : لا احد يقول لى ما الذى اجنيه من كل هذا ... لقد عذبت فى السجن ، وطردت من بيتى من قبل والدى والساكن عندهما

الغدر الثقيل ؛ وضربت على ايدى رجال عجائز ، وكدت اقتل على ايدى الشرطة !.. ما الذى ساصير اليه ؟.

وهنا تدخل المسمى روبنشتين قائلا : سوف ترى يا ولد ان (الحزب) لن يكون ناكرا للجميل ... كلا !.. عند نهاية هذا كله ، سوف تعد لك مفاجاةمرضية ... وما عليك الا ان تنتظر وترى !..

فهتفت قائلا : هناك شىء واحد اطلبه !.. وهو ان اكون انسانا طبيعيا سليما معافى كما كنت فى الايام الحلوة ، مستمتعا بالمرح مع رفاق حقيقيين ليسوا مثل من يدعون انهم كذلك وما هم فى الحقيقة الا خونة غادرين ؟. فهل يستطيع اى شخص ان يعيدنى الى ما كنت عليه ؟.. هذا هو ما اريده ، وهذا هو ما اريد ان اعرفه !.

اخذ ز . دولين يسعل ، ثم قال : انت شهيد فى سبيل الحرية ... عليك دور تؤديه ، ولا تنس هذا ... وفى اثناء ذلك سوف نعنى بك ...

واخذ يمسح على يدى اليسرى كما لو كنت ابله معتوها وهو يبتسم ابتسامة سخيفة ... فهتفت قائلا : كف عن معاملتى كاننى اداة لاستخدامها فقط !. انا لست ابله يمكنكم ان تفرضوا عليه ما تريدون ايها الخبثاء !.. ان السذج هم الاغبياء ، وانا لست واحدا منهم ولن اكونه ؟. هل فهمتم ؟.

فقال ف . الكسندر متاملا : عجبت لهذه اللهجة !.. يخيل الى اننى سمعت مثلها فى مكان ما !.

لم استرح فى الحق لهذه الظاهرة من جانب ف . الكسندر ولا لهياته اذ ذاك ... ولهذا اتجهت الى الباب للصعود وارتداء ملابسى ثم الاسراع بالخروج ، بينما راح ف . الكسندر يقول وقد انفرجت اسنانه وبرقت عيناه جنونا : اكاد اصدق الآن !. لكن مثل هذه الاشياء مستحيلة !.. وحق القديسين لو انه كان هو لمزقته اربا وحطمته تحطيما !..

وهنا انبرى له د . ب . داسيلفا يربت على صدره وكانه كلب يريد تهدئته . قائلا : لقد حدث كل هذا فى الماضى ... وكان الفاعلون اناسا آخرين ... لابد ان نساعد هذه الضحية المسكينة ... هذا هو ما يجب ان نفعله الآن ، متذكرين (المستقبل) و (قضيتنا) !..

فقلت وانا عند قاعدة السلالم : ساصعد لارتداء ملابسى ؛

ثم اخرج لما يعنيني ... قصدى انني ممتن لكم جميعا ، وامامى حياتى الخاصة لكى اعيشها ...
والحق يا اخوانى اننى اردت ان اخرج من هنا باسرع ما يمكن ... غير ان ز . دولين قال : آه ، لا !.. انت عندنا يا صديقى ، وسنحتفظ بك ... وسوف ترى ان كل شىء سيكون على ما يرام ..
واقترب منى كانه يريد ان يمسك بيدى مرة اخرى ... وعندئذ فكرت ، يا اخوانى فى المقاومة والقتال ، ولكن التفكير فى العنف جعلنى اريد ان اتهاوى واغشى ، وهكذا لزمت مكانى ... ولما انثنيت ولمحت تلك النظرة الجنونية فى عينى ف . الكسندر اخذت اقول : مهما تقولوا فانا بين ايديكم ، لكن هلموا بنا نبدأ لكى ننتهى يا اخوانى !..
ذلك لان ما كنت اريده الآن هو الخروج من هذا (البيت) ، اذ بدات اشعر اننى غير مرتاح لنظرات ف . الكسندر باى حال ... فقال المدعو روبنشتين : بديع ... البس ملابسك ودعنا نبدأ ...
اسرعت الى الغرفة العليا ولبست فى ثانيتين .. ثم خرجت مع هؤلاء الثلاثة وركبنا سيارة جلست فيها بين دولين وهو يسعل عن يمينى ، وروبنشتين عن شمالى ، وتولى د . ب . داسيلفا القيادة ، واتجهت بنا السيارة الى المدينة حيث توقفنا بعد مسافة قليلة نسبيا امام احدى العمارات السكنية العمالية ، وقال ز . دولين : هنا سيكون مقرك ... انزل ..
كانت العمارة شبيهة بمثيلاتها من مساكن العمال ذات لوحات محفورة فى المدخل ترمز الى كرامة العمل ، وركبنا المصعد الى شقة علوية مؤثثة تاثيثا طيبا ، بها غرفتا نوم وغرفة ثالثة للمعيشة والعمل والطعام معا . توسطتها منضدة كانت مغطاة بالكتب والاوراق والحبر والزجاجات وما الى ذلك ... وقال د . ب . داسيلفا : هذا هو بيتك الجديد ... عندك الطعام فى دولاب المؤونة ... والبيجامات فى احد الادراج ... فاسترح ، استرح ايتها الروح المعذبة !.
فقلت وانا لا اكاد افهم : ايه ؟.
فقال روبنشتين بلهجته المهذبة : لا باس ... اننا سنتركك الآن ... فهناك عمل امامنا ... وسنعود اليك فيما بعد ... اشغل نفسك بقدر ما يمكنك ..
فقال ز . دولين بعد ان سعل مرات : هناك مسألة هامة ...

انك رابت ما الذى حرك الذكريات فى نفس صديقك ف . الكسندو المعذبة ... فهل ، بمحض الصدفة ـ ؟... بعبارة اخرى ، هل انت ـ أ.. اظن انك فهمت قصدى ... اننا لن ندع المسألة تتطور الى اكثر من هذا !..

فقلت : انني كفرت !.. الله يعلم انني كفرت عما فعلت !.. لقد كفرت ليس فقط عن نفسى بل ايضا اولئك الانذال الذين كانوا يقولون انهم اصحابى !..

واشتد بى الانفعال حتى شعرت بغثيان يسير ؛ فقلت : ساتمدد قليلا ... انني مررت باوقات رهيبة ، رهيبة !.

فقال د . ب . داسيلفا : فعلا ، هو كما تقول ..

وهكذا تركونى يا اخوانى ... وانصرفوا لشأنهم ، الذى فهمت انه يتصل بالمسائل السياسية وما اليها ... فاستلقيت فى الفراش وحيدا وسرى الهدوء من حولى ... لقد تمددت مكانى بعد ان القيت حذائى وفككت ربطة عنقى وانا فى اتم الحيرة ولا ادرى اية حياة يمكن ان احياها الآن ... وراحت كل انواع الصور تتوارد على ذهنى لمختلف الاشخاص الذين التقيت بهم فى المدرسة ، وفى السجن ؛ ولشتى الاحداث التى مرت بى ، وكيف انه لم يكن ثمة شخص واحد يمكن الثقة به والركون اليه فى هذا العالم الواسع ... وفى النهاية غالبنى النوم يا اخوانى ..

عندما استيقظت سمعت صوت موسيقى تتسرب من خلال الحائط عالية ، وكانت هى التى جذبتنى من نومى ... كانت سمفونية اعرفها تمام المعرفة ولكنى لم اسمعها منذ سنوات عديدة ؛ وهى السمفونية رقم ٣ للموسيقار الدنماركى (اوتوسكا دلينج) ، وهى معزوفة رائعة وعنيفة خصوصا فى المقطع الاول ، وهو ما سرى الآن الى سمعى ... ولقد اخذت استمع اليها مدى ثوان باهتمام وبهجة ، لكن سرعان ما اعترتنى بوادر الالم والغثيان ، حتى رحت اتوجع من اعماقى .. ثم اذا بى انا الذى طالما احببت الموسيقى وشغفت بها ازحف خارج الفراش وادق الحائط صارخا : اوقفوها !. اوقفوها !. بيد انها استمرت ، وبدا كأنها ازدادت علوا ... وهكذا مضيت ادق الحائط حتى احمرت عقد اصابعى وتسلخ جلدى وانا لا اكف عن الصياح ، غير ان الموسيقى لم تتوقف ... ثم بدا لى ان اهرب منها ؛ فاندفعت من غرفة النوم الى باب الشقة ، غير اننى وجدته موصدا

من الخارج ولا سبيل الي الخروج منها ... وطوال هذا كله كانت الموسيقى تزداد دويا حتى لكانها تعذيب مستمر دائب يا اخواني !. وهكذا غرست اصابعي الصغيرة عميقا في اذني ، بيد ان قرع الطبول ما فتىء يدوي في سمعي ... فرحت اقول وقد غلبني البكاء : رحماك يا اله السماوات !.. ماذا اعمل ؟. اغثني يارب !.

ولبثت اهيم في ارجاء الشقة في كرب من الالم والغثيان وانا اصرخ حتى تكاد احشائي تتمزق وقلبي ينفطر ... ثم لاحت مني التفاتة الى الكتب المكومة فوق المنضدة في غرفة الجلوس ، فرايت فيها ما يتعين علي ان افعله وما كنت اريد فعله الى ان اعترض سبيلي عجائز المكتبة العامة ثم ديم وبيليبوى في زي رجال الشرطة ... وذلك ان انهي حياتي وانسفها نسفا من هذه الدنيا الشريرة القاسية !. كان ما رايته هو كلمة (الموت) مطبوعة على غلاف احدى النشرات ، وان كان العنوان هو (الموت للحكومة) !.. وكاني بالقدر اراد ان ييسر مهمتي ، اذ لمحت كتيبا آخر كان على غلافه رسم نافذة مفتوحة وتحتها هذه العبارة : (افتحوا النافذة للهواء المجدد ، للافكار الجديدة ، لاسلوب آخر للحياة) ... وهكذا عرفت ان في هذا ايماءة لي بأن اختم حياتي بالقفز من النافذة ... ربما كانت لحظة الم واحدة ؛ وبعدها نومة ابدية ، ابدية ، ابدية !.

كانت الموسيقى لا تزال تنبعث مدوية ... وكانت نافذة غرفة النوم مفتوحة ... فاقتربت منها ورايت بنظرة مسقطا لا باس به الى حيث السيارات والاتوبيسات والمارة من تحتي ... وعندئذ هتفت بأعلى صوت للدنيا كلها : الوداع !. الوداع !. ادعو الله ان يغفر لي القضاء على حياتي بيدى !..

ثم ارتقيت الى حافة النافذة وصوت الموسيقى يتباعد عن شمالي ، فاغمضت عيني ، وشعرت بالهدوء البارد يلذع وجهي ، ثم قفزت ...

الفصـــــل الســـــادس

قفزت باالخوانى ، وهويت على الرصيف الصلد ، غير أننى لم اقض نحبى !.. هذا حق ، والا لما كنت بين ايديكم الان اسرد قصتى !..

يبدو ان القفزة لم تكن من ارتفاع كبير يؤدى الى ازهاق الروح .. لكننى اصبت فى ظهرى وشعرت فيه وفى رسغى وساقى بالم شديد قبلما غبت عن الوعى باالخوانى ، مع لمحة خاطفة لوجوه اناس يطلون على بدهشة واستغراب !.. وفى تلك اللحظات الخاطفة بين الحياة والموت تجلى لى انه لا احد فى هذه الدنيا البشعة باسرها كان مواليا لى ، وان تلك الموسيقى التى سرت الى سمعى من خلال الحائط انما كانت مدبرة من جانب اولئك الذين كان يظن أن يكونوا رفاقى الجدد ، وان شيئا كهذا الذى حدث لى كانوا يريدونه ان يحدث طبقا لانانيتهم الشنيعة وسياساتهم التى يتباهون بها !.. كل هذا تجلى لى فى فترة واحد من المليون من الدقيقة قبلما غبت عن الدنيا وعن السماء وعن الوجوه التى راحت تحملق فى مشدوهة !..

اما اين كنت عندما عدت الى الحياة بعد فجوة مديدة سوداء سوداء من الغيبوبة ربما كانت مثل مليون سنة ، فذلك فى المستشفى ولا شك ؛ فهو ناصع البياض بالغ النظافة تشيع فيه رائحة المطهرات النفاذة .. وقد عدت ببطء الى الوعى الذى دريت فيه من انا واننى مشدود فى الاربطة والضمادات واننى لا أستطيع ان اشعر باى الم او اى شىء آخر فى جسدى بتاتا .. كان راسى كله ملفوفا بالضمادات، والصقت قطع من الاشرطة حول وجهى ، وكانت يداى فى الضمادات، وشدت عصوات صغيرة الى اصابعى وكأنما كانت ازهارا يراد ان تنمو مستقيمة !.. وكانت قدماى ممدودتين ايضا وتحف بهمـــا الضمادات واقفاص صغيرة من الســـلك ، وفى يدى اليمنى قرب الكتف ، كان سائل احمر يسقط قطرات من قدر زجاجيـة مقلوبة راسا على عقب !.. لكننى لم اكن اســـتطيع ان أشعر باى شىء باالخوانى !.. وكان ثمة ممرضة جالسة بجانب فراشى تقرا فى كتاب

بدا مطموس الطباعة ، وكان لك ان تقدر انه قصة ، بسبب كثرة الاقواس بين سطوره ، وكانت تتنفس بعسر . ولهث وهي تقرأ ، فلابد انها قصة غرامية عنيفة !.. وكانت هذه المرضة بادية الملاحة ذات ثغر احمر واهداب طويلة فوق عينيها ، وكان يبدو لك من تحت ردائها المتيبس نهدان بديعان .. وهكذا قلت لها : ياأختي الصغيرة .. هلا جئت وقاسمت اخاك المسكين مضجعه ؟ » .. غير أن كلماتي لم تخرج من فمي بتاتا ، وكان فمي قد تصلب وانطبق .. وشعرت بلمس لساني ان بعض اسناني لم تعد موجودة .. بيد ان الممرضة ما لبثت ان وثبت قائمة والقت كتابها على الارض قائلة : آه !.. هل عدت الى وعيك ؟..

حاولت ان ارد ، بيد ان الكلمات لم تزد مخارج احرف .. فاسرعت خارجة وتركتني وحدي ، ورايت الان انني في غرفة خاصة بي ، لا في عنبر من تلك العنابر الطويلة التي رايت مثلها وانا طفل صغير مصاب بالدفتريا ..

وبدا كانني لا اقوى على تمالك الوعي طويلا ، اذ يبدو انني نمت على الاثر .. ولكنني بعد دقيقتين كنت متاكدا ان الممرضة عادت وصحبت معها اشخاصا في معاطف بيضاء وانهم راحوا ينظرون مقطبين ومهمهمين الى محدثكم المتواضع .. وكان معهم وانا اؤكد هذا واعظ السجن العتيد الذي ذهب يقول ورائحة الويسكي تفوح منه : أواه ياولدي !.. اواه ياولدي ! لكنني لم اقبل ان استمر معهم !.. لم استطع ان اساهم معهم اولئك اللاعبين في فعل ما هم فاعلوه لغيرك من المسجونين التعساء !.. وهكذا انسحبت من بينهم وانتقلت للوعظ في مكان آخر افضح فيه نواياهم ، أواه ياولدي المحبوب !..

فيما بعد استيقظت مرة اخرى .. فمن تحسبوني انني شاهدت سوى اولئك الثلاثة الذين قفزت من شقتهم الى الشارع ؟.. اعني و . ب داسيلفا ، وروبنشتين ، و ز . دولين .. وكان واحد منهم يقول : ايها الصديق الصغير .. الناس على نار من الغضب .. انك قد قضيت على فرص اولئك الاوغاد المتفاخرين في اعادة انتخابهم !.. انهم ذاهبون راحلون الى الابد والى الابد !.. لقد خدمت (الحرية) خدمة جليلة !..

فحاولت أن اقول : لو أنني كنت مت لكان ذلك افضل لتحقيق اغراضكم السياسية اللعينة ، ايها المنافقون الغادرون !..

لكن كل ماخرج من فمي كان مجرد حروف مبتورة .. ثم لمحت احد اولئك الثلاثة ممسكا بقصاصات جرائد ، وكل ما استطعت رؤيته هو صورة شنيعة لي وانا مخضب بالدماء فوق محفة منقولة ؛ وعن كثب منها ما يشبه ومضات كاميرات المصورين .. واستطعت بعين واحدة ان اقرا عناوين بدت مهتزة في يد الممسك بالقصاصات ، مثل : (صبي ضحية خطة للاصلاح الجنائي) و (الحكومة هي القاتل) — ثم لمحت صورة لشخص آخر كتب تحتها بالخط الغليظ (اخرج !.. اخرج !.. اخرج !..) . وكانت صورة وزير الداخلية !..

ولم تلبث الممرضة ان قالت : يجب الا تسببوا له الانفعال على هذه الصورة !.. يجب الا تفعلوا له شيئا بسبب تعكيره !.. والان لابد ان تخرجوا !..

حاولت ان اقول بدوري : اخرجوا !.. اخرجوا !.. اخرجوا !.. لكن لم تصدر مني سوى مخارج حروف مرة اخرى .. ومهما يكن فقد خرج اولئك السياسيون الثلاثة .. اما انا فقد عدت الى عالم الظلمات من جديد ، تتخلله اشياء كالاحلام .. منها بالخوالي مابدا لي من ان جسدي قد افرغ مما هو اقرب الى مياه قذرة ثم ملىء مرة اخرى بمياه نظيفة .. ثم تراءى لي كانني ركبت سيارة اقتنصتها عنوة من صاحبها واخذت اقودها بنفسي عبر الدنيا ذهابا وايابا والناس في طريقي يتراكضون مذعورين صارخين وليس بي الم ولا غثيان .. ورؤى اخرى لفتيات حسان كانت لي معهن مطارحات غرامية والناس من حولي يصفقون مهللين .. ثم استيقظت مرة اخرى ، فكان القادمون هما ابي وامي جاءا لرؤية ابنهما الطريح وامي تبكي بكاء مرا .. لقد اصبحت الان اقدر على الكلام ، ورحت اقول : حسن !.. حسن !.. حسن !.. ما الذي يجعلكم تظنون انكم محل ترحاب ؟..

فقال ابي خجلان مخزيا : رأيناك في الجرائد يا ابني .. قالت الجرائد انهم اساءوا اليك كثيرا !.. وقالت ان الحكومة دفعتك لمحاولة التخلص من حياتك !.. وقالت ان الذنب ذنبنا ايضا على نحو ما يا ابني !..

ذلك وما فتئت امي مستغرقة في البكاء والنحيب .. فقلت : وكيف حال ابنكم الجديد جو ؟.. لعله بخير وعافية وسعادة ؟!

فلم تعد امي ان قالت منتحبة : اواه بالعكس !.. بالعكس !..

وقال ابى : حدث شيء غريب ياابنى .. انه وقع فى ورطة مع الشرطة ، وقد قبضوا عليه ..
فقلت : احقا ؟!.. احقا ؟!.. يحدث هذا لمثل ذلك الشخص الطيب المحبوب ؟!.. انا مندهش بصراحة !..
فقال ابى : ان الشرطه ضبطوه مع فتاة لدى الناصية ، وعندما نهروه قال لهم ان له حقوقه كاى فرد من الناس ، فما كان منهم الا ان انقضوا عليه واعتقلوه !..
فقلت : فظيع !.. فظيع !.. واين الفتى المسكين الان ؟..
فقالت امى بين العبرات والزفرات : ذهب من حيث اتى !.. اواه !.. اواه !..
وقال ابى : نعم ... عاد الى بلدته لكي يتداوى بعد الذى اصابه ، خصوصا بعد ان اعطوا عمله هنا لشخص آخر ..
فقلت : وهكذا الان انتم راغبون فى عودتى اليكم من جديد لكى تعود الامور الى مجراها الطبيعى كما كانت من قبل !..
فقال ابى : نعم ياابنى .. هذا رجاء منا !..
فقلت : سافكر فى الامر .. سافكر فى الامر بعناية ..
فكان مزيد من البكاء والنحيب من جانب امى .. فقلت لها : آه .. كفى ، والا فعلت شيئا يجعلك تصرخين بحق !.. ساقفل فمك بالقوة !..
والواقع ياأخوانى اننى شعرت بتحسن ، وكاننى لكى اتحسن كان لابد أن يحدث مايسوء !..
وقال ابى : ماهكذا يجب ان تخاطب أمك ياابنى !.. مهمـــا يكن فهى التى جاءت بك الى هذه الدنيا !..
فقلت : نعم .. ويالها من دنيا سعيدة !..
ثم اغمضت عينى بشدة فى شيء من الالم ، وقلت اخيرا : اذهبا الان !.. سوف افكر فى العودة اليكما .. لكن لابد من أن يختلف الموقف تماما !..
فقال ابى : نعم ياابنى .. اى شيء تريده ..
فقلت : لابد أن تحزما امركما فيمن يكون رب البيت !..
فراحت امى تبكى قائلة : اواه !..
وقال ابى : حسن جدا يا ابنى .. سوف تكون الامور كما تحب .. فقط استرد صحتك !..
وبعد انصرافهما تمددت فى الفراش واخلدت الى التفكير فى امور

شنى .. وتعاقبت فى ذهنى صور واشياء كثيرة .. وعندما عادت المرضة الحسناء واخذت ترتب الملاءات فى فراشى قلت لها : كم لبثت هنا ؟..
فقالت : حوالى اسبوع ..
ـ وما الذى كانوا يفعلونه بى ؟..
فردت قائلة : لا باس .. انك كنت مهشما ومجروحا ونزفت منك دماء كثيرة .. فاضطروا ان يعالجوا لك كل هذا ، اليس كذلك ؟
فقلت لها : لكن ، هل فعل احد اى شىء براسى ؟.. ما اقصده هو : هل عبثوا بمخى على اية صورة من الصور ؟..
فقالت : مهما يكن مما فعلوه ، فانه كان لمصلحتك ..
ولكن بعد عدة ايام زارنى اثنان من الاطباء الشـــبان تعلو الابتسامة وجهيهما ، وكان معهما ماعرفت انه كتاب مصور .. وقال لى احدهما : نريد منك ان تلقى نظرة على هذه الصور وان تقول لنا ما رايك فيها .. واضح ؟..
فقلت : ماذا وراءكما ؟.. واى مكر تخفونه فى جعبتكما ؟..
فابتسما فى شىء من الحيرة لهذا الكلام ، ثم جلسا على جانبى الفراش وفتحا الكتاب .. فى الصفحة الاولى كانت صورة عش طيور مليئا بالبيض .. فقال احد الطبيبين : نعم ؟..
فقلت : عش طيور ، ملىء بالبيض .. هو لطيف جدا ..
فقال الطبيب الاخر : وماذا تحب ان تفعل بشانه ؟..
فقلت : آه .. احطمه .. آخذ العش كله واطوحه على حائط او صخرة أو اى شىء ، ثم اتفرج على الحطام ..
فقال الاثنان معا : جميل .. جميل ..
ثم قلبا الصفحة ، فبدت صورة طاووس نشر ذيله الكبير بكل الالوان متباهيا تياها .. فقال احد الطبيبين : نعم ؟..
فقلت : اود ان انزع كل هذا الريش فى الذيل واسمع صراخه الجنونى ، نظير هذا التفاخر والتباهى ..
فقال الطبيبان معا : جميل .. جميل .. جميل !..
واستمرا يقلبان بقية الصحائف .. فرايت صور فتيات جميلات، وقلت اننى اود ان اطارحهن الهوى مع مايلزم من اعمال العنف .. وكان ثمة صور اخرى لاشخاص يركلون فى وجوههم بالاحذية ودماؤهم تسيل مدرارا ، وقلت اننى اود ان اكون فى مثل هذه الصور (على الطبيعة) .. فقالا هذا جميل ، جميل ، جميل !..

فقلت : مامعنى هذا كله ؟..

فقال أحد الطبيبين : حالة (هيبنو بيديا عميقة) ، أو شيء من هذا الكلام الغامض !..

ثم اضافا : يبدو انك شفيت ..

فقلت : شفيت ؟.. انا مقيد في السرير هكذا ، وتقولون انني شفيت ؟! .. كلام مزوق لا اكثر ، هذا ردي عليكم !..

فقال الاخر : انتظر .. لن يطول الوقت بعد الان ..

وهكذا جعلت انتظر باخواني .. وقد تحسنت حالتي كثيرا وانا آكل البيض واقضم (التوست) واشرب اقداحا كبيرة من الشاي واللبن .. الى ان جاء يوم ابلغوني فيه انه سيحضر عندي زائر كبير المقام ..

ـ من هو ؟..

قلت هذا بينما كانوا يسوون الفراش ويمشطون شعري الغزير نيابة عني بعد ان رفعت الضمادات عن راسي ونما الشعر من جديد ..

فقالوا : سوف ترى .. سوف ترى ..

وقد رايت فعلا .. ففي الساعة الثانية والنصف من بعد الظهر اقبل المصورون ومندوبو الصحف مشرعين مفكراتهم وأقلامهم الى آخر هذه الظواهر .. ولو استطاعوا باخواني أن ينفخوا في الابواق لفعلوا اجلالا لصاحب المقام الرفيع القادم لرؤية محدثكم المتواضع !..

ثم جاء فعلا .. وطبعا لم يكن سوى وزير الداخلية الافخم ، شرف في أوج أناقته متشدقا بلهجته السامية المنمقة ، تبرق من حوله كاميرا التصوير خصوصا حين مد يده الكريمة الى يصافحني !..

فقلت : حسن !.. حسن !.. حسن !.. ماهي الحكاية ايها الرفيق الكريم ؟..

ولكن واحدا من القادمين انتهرني بصوت خشن : الزم الادب والاحترام ياولد عندما تخاطب الوزير !..

فقلت مزمجرا مثل كلب : طظ فيكم كلكم !..

فسارع وزير الداخلية يقول : لا باس .. لا باس .. انه يكلمني كصديق ، أليس هذا يابني ؟..

فقلت : انا صديق كلّ انسان ، الا اعدائي !..

فقال الوزير ومندوبو الصحف منهمكين في الكتابة والتدوين : ومن هم اعداؤك ؟.. قلّ لنا هذا ياولدي ..

فقلت : ان كل الذين يسيئون الى هم اعدائى ..

فقال وزير الداخلية وهو يجلس قرب فراشى : لا باس .. اننى والحكومة التى انا عضو فيها نريد منك ان تعدنا كاصدقاء .. نعم اصدقاء .. اننا قومناك ، صح ؟.. وانت تنال افضل علاج .. ولم نرد لك ابدا اى ضرر .. لكن هناك البعض ممن فعلوا هـذا ويفعلونه .. واظن انك تعرف من هم هؤلاء ..

فقلت : ان كل الذين يسيئون الى هم اعدائى ..

فقال الوزير : نعم ، نعم ، نعم .. هناك افراد معينون ارادوا ان يستخدموك ـ نعم ـ يستخدموك لاغراض سياسية .. وكان يسرهم ـ نعم ـ يسرهم ان تلقى حتفك ، فانهم ظنوا انه يمكنهم بهذا ان يلقوا اللوم كله على الحكومة .. واظن انك تعرف من يكون هؤلاء الافراد ..

فقلت : اننى لم استرح اليهم ..

فقال الوزير : هناك رجل يدعى ف . الكسندر ، محرر مطبوعات هدامة ، ذهب يملأ الدنيا صراخا مطالبا بدمك .. انه قد جن جنونا رغبة منه فى غرس مدية فى شخصك .. لكنك الان فى امان منه .. لقد ابعدناه عنك ..

فقلت : كان المظنون انه يكن لى الصداقة .. كان يرعانى رعاية الام للابن ..

فعاجلنى الوزير قائلا : لقد اكتشف انك اسات اليه .. او على الاقل ساوره الاعتقاد بانك كنت المسىء .. لقد نبتت فى ذهنه فكرة انك كنت المسئول عن وفاة شخص قريب له وعزيز عليه ..

فقلت : ان ماتعنيه هو ان احدا ابلغه بهذا ..

فقال الوزير : كانت عنده هذه الفكرة .. وقد اصبح خطرا عليك .. فابعدناه لحمايته شخصيا ، ولحمايتك انت ايضا ..

فقلت : طيبة وانسانية .. منتهى الطيبة من جانبكم ..

فقال الوزير : عندما تغادر هذا المكان ، لن تبقى امامك اية متاعب ولا اكدار .. اننا سندبر لك كل شىء .. عمل طيب ، ومرتب طيب .. لانك تساعدنا ..

فقلت : هل افعل هذا حقا ؟..

ـ اننا دائما نساعد اصدقاءنا .. اليس كذلك ؟..

ثم امسك الوزير بيدى ، وعندها صاح احدهم (ابتسم !) فابتسمت دون تفكير ، وسرعان ما لمعت كاميرات التصوير تاخذ

صورتى وصورة الوزير ونحن على اتم الود والصفاء .. وقال ذلك الرجل الخطير : جميل ، جميل ياولدى !.. والان ، انظر ، هذه هدية لك !..

ان ماجاءوا به الان يااخوانى كان صندوقا كبيرا لامعا ، فعرفت بوضوح ما هو .. كان جهاز (استيريو) .. وقد وضعوه بجانب السرير وفتحوه ، وتولى شخص وضع (الفيشة) فى (بريزة) الحائط وقال آخر يضع نظارة على انفه ، وكان يحمل فى يديه اغلفة جميلة لامعة مليئة بالاسطوانات : اى موسيقى تريد ؟.. موتسارت ؟.. بتهوفن ؟.. شوريتبرج ؟.. كارل اورف ؟..

فقلت : السيمفونية رقم ٩ .. السيمفونية المجيدة ..

وادرت السيمفونية الرائعة يااخوانى .. واخذ كل واحد ينسحب فى هدوء وتلطف فيما تمددت فى مكانى مغمض العينين استمع الى اعذب الالحان .. وقال الوزير وهو يربت على كتفى : بديع ، بديع ياولدى !..

ثم خرج على الاثر ، ولم يبق سوى شخص واحد قال لى : وقع هنا من فضلك ..

ففتحت عينى لكى اوقع دون أن ادرى ما الذى اوقع عليه ، وما كان يهمنى يااخوانى أن ادرى .. وفى النهاية بقيت وحدى مع سمفونية بتهوفن الخالدة ..

آه !.. كانت هى الروعة والجلال والجمال معا !.. وفى مراها فى وجدانى بدا لى وكأننى أركض واركض فوق ساقين خفيفتين خفيتين ، أشق وجه الدنيا كلها الصارخة بمدينتى الحادة البنارة .. ثم كان ختامها بالحركة الواتية ثم الحركة الغنائية البديعة العذبة .. فشعرت أننى قد شفيت حقا وصدقا ..

الفصل السابع

ماذا سيكون اذن ، ياترى ؟..

هاندا ، محدثكم المتواضع ، مع رفاقي الثلاثة : لين ، وريك ، وبوللي .. لقد سمي بوللي بهذا الاسم (الثور) بسبب عنقه الضخم الغليظ وصوته الذي يشبه خوار الثور حقا ..

كنا جلوسا في مشرب اللبن (كوروفا) نتشاور فيما نفعله هذه الامسية الشتوية القارسة البرد الحالكة الظلام وان كانت خلوا من المطر .. وكل ماحولنا كان اناسا يشربون اللبن المقوى بالاخلاط الملهبة التي تطير العقل وتطوح بالشاربين في اجواز الفضاء .. اما تأثير هذا الشراب عندنا نحن الفتيان فكان يلهب حواسنا ويستفزنا للقيام بأعمال العنف ، ولكنني حدثتكم عن هذا بااخواني فيما سلف من قبل ..

وكنا الان نلبس قمة (الموضة) في هذه الايام ، وهي البنطلون الواسع الفضفاض وسترة الجلد السوداء اللامعة فوق قميص مفتوح الرقبة مع منديل كبير مشدود الى الصدر .. وكان من مقتضيات (الموضة) ايضا في هذه الفترة هو استعمال المطواة الحادة على الراس ، وهكذا كان اكثر الراس شبه اصلع ، ولا يبقى الشعر الا على الجانبين .. اما الاقدام فقد بقيت على حالها ، مدسوسة في الحذاء الثقيل لركل الوجوه ركلا ..!

وكنت انا اكبر هذه الزمرة سنا ، وكانوا جميعا ينظرون الى كزعيم لهم .. غير أن الفكرة كانت تراوحني احيانا بان بوللي ربما يفكر في أن يتولى هو الزعامة ، وذلك بسبب ضخامته وهدير صوته عندما يكون مشتبكا في المعمعة .. ولكن كافة الافكار والخطط كانت تنبع من محدثم المتواضع يااخواني ، وكذلك لما اتسقت لي من شهرة بعد تلك المقالات والصور الفوتوغرافية التي نشرت عني في الجرائد.. يضاف الى هذا انني كنت اتقلد احسن عمل دون كل الفريق ، في (شركة الاسطوانات الموسيقية الوطنية) بمرتب كان يجعل جيبي مملوءا بالنقود في نهاية الاسبوع ، الى جانب مجموعة من الاسطوانات المجانية انوز بها من الشركة ..

فى هــذا المساء كان فى مشرب كوروفا جمع طيب من افراد الجنسين كبارا وصغارا جلسوا يتسامرون ويحتسون الشراب بين عزف (الاستيريو) لاغانى (البوب) الشائعة .. وكانت تجلس الى المقصف مجموعة نسائية فى زى (النادسات) العصرى ، وهو الشعر الطويل المشعث المصبوغ باللون الابيض ، مع النهود الصناعية البارزة بقدر متر (!) ، و (الجونلة) المحبوكة شديدة الضيق والقصيرة ومن تحتها اطراف (الدانتللا) بادية .. وكان بوللى لا يفتأ يكرر لهن هذه الكلمات : (بالامكان ان ننتقل الى جانبكن نحن الثلاثة ، اما لين فهو غير مهتم !.. اتركن لين وحده مع اطيافه الحوريات !..) .. فكان لين يرد عليه بقوله : (تخريف ، تخريف !.. اين مبدا الكل مع الواحد والواحد مع الكل ، ياولد !؟ ..) .. وفجأة الفيتنى اشعر بالتعب الشديد والنشاط المتجدد فى آن واحد .. فقلت لهم :

ـ الى الخارج !.. الى الخارج !.. الى الخارج !..

فقال ريك الذى له وجه كالضفدعة : الى اين ؟..

فقلت : لكى نرى ماذا يجرى فى الدنيا الواسعة فى الخارج ..

بيد اننى كنت اشعر على نحو ما ياخوانى بالضجر الشديد وقلة الحيلة ، وكان هذا الاحساس يلازمنى اكثر الوقت فى هذه الايام .. وهكذا انثنيت الى الشخص القريب من مجلسى على الاريكة الوثيرة الممتدة باستدارة المشرب مستغرقا فى هذيانه ، فصوبت اليه عدة لكمات فوق بطنه ، غير انه لم يشعر بها ياخوانى ، ومضى يهذى بابيات من الشعر الغنائى لا معنى لها !..

سرنا فى طريق (مارجانيتا بوليفار) دون ان نصادف فى مسيرنا شرطة من قوة الدورية .. وهكذا ما ان التقينا برجل آت الى ناحيتنا خارجا لتوه من كشك بيع الجرائد حتى قلت لبوللى :

ـ لا باس يابوللى ياولدى .. تقدم اذا كانت لديك الرغبة ..

لقد كنت هذه الايام اميل الى اصدار الاوامر واقف بمعزل لرؤية هذه الاوامر تنفذ .. وهكذا تقدم بوللى الى الرجل واصطدم به ، بينما اوقعه الاثنان الاخران (بمقص) وانهالا عليه رفسا وهو ممدد على الارض ، ثم تركاه يزحف مبتعدا الى حيث يقيم وهو ينتحب .. وقال بوللى :

ـ ما رايك يااليكس فى كاس من اى نوع لدفع البرد عنا ؟..

ذلك لاننا كنا وقتها غير بعيدين عن (بار دوق نيويورك) ..

فاوما الاخران بنعم نعم ، ولكن ثلاثتهم تطلعوا الى ليروا ان كنت اوافق ، فاومات ايضا ايجابا ، ومضينا الى المشرب ..

وفى الداخل وجدنا اولئك النسوة العجائز اللاتى تتذكرونهن منذ بداية هذه القصة ، وما ان وقعت انظارهن علينا حتى بدانـا بالاسطوانة المعروفة : (مساء الخير يافتيان !.. بارك الله فيكم !.. أنتم أحسن الفتيان فى الدنيا !..) .. وقد انتظرن ان نرد عليهن بعبارة (ماذا تطلبن يابنات ؟) .. فاستدعى بوللى (الجرسون) الذى جاء يمسح يديه فى (المريلة) الزنخة ، وقال بوللى وهو يخرج النقود من جيبه ويفرغها على المائدة فى رنين :

ـ نقودكم على المائدة يارفاق .. ويسكى لنا ، ولسيداتنا ايضا !..

وعندئذ قلت :

ـ آه !.. الى الجحيم !.. دعهن يشترين المشروب لانفسهن!..

ولست أدرى ما الذى دهانى ، غير اننى شعرت فى الفترة الاخيرة باننى اقرب الى البخل والتقتير .. ودارت بخاطرى رغبة فى الاحتفاظ بكل نقودى لنفسى وادخارها كلهـا لسبب ما .. وقال بوللى :

ـ ماذا جرى يابطل ؟.. ماذا دها اليكس المتبد ؟..

فقلت : آه !.. الى جهنم !.. لست اعرف .. لست اعرف .. ان ما اعرفه هو اننى لا أحب ان ابعثر نقودى التى كسبتها بشق النفس .. هذا هو ما بى ..

فقال ريك : تقول كسبتها ؟.. كسبتها ؟.. لا لزوم لكى تتعب فى الكسب ، كما تعرف ايها الزميل العزيز .. النقود ناخذها اخذا !..

وشفع هذا بابتسامة كشفت عن اختفاء سن او اثنتين من فمه ..

فقلت : آه !.. لابد لى من التفكير ..

ولكن بعد ان لمحت اولئك العجائز اقرب الى التلهف لطلب شراب مجانى ، هززت كتفى واخرجت نقودى من جيب بنطلونى وكانت معدنا وورقا ، فنشرتها على المائدة .. فقال (الجرسون) :

ـ ويسكى للجميع !..

لكن لسبب ما قلت : لا ياولد .. اطلب لى انا كاس بيرة ..

فقال لين : انا لا استحب هذا !..

وهم ان يضع يده على راسي مداعبا ، كانني اصبت بحمى ، غير انني زمجرت في وجهه لكي يكف ... فقال :

ـ لا بأس !.. لا باس ياصاحبي !.. كما تحب ..

لكن بوللي كان ينظر فاغر الفم الى شيء خرج من جيبي مع النقود التي وضعتها على المائدة ، وقال :

ـ شيء جميل !.. وكنا لا نعرف ابدا !..

فقلت مزمجرا وانا اختطف ما رآه : اعطني هذه !..

كانت ياأخواني صورة فوغرافية قصصتها من جريدة ، وكانت لطفل رضيع ضاحك واللبن يتساقط من فمه ، شاخصا بوجهه الضحوك لكل انسان ، وكان عاريا تماما وطيات لحمه بادية لفرط سمنته .. وقد نشبت بيننا شبه مشادة لمحاولتهم انتزاع الصورة مني ، وهكذا زمجرت في وجوههم مرة اخرى واختطفت الصورة ومزقتها كل ممزق وتركتها تتناثر على الارض تناثر حبيبات الثلج.. ثم جيء بالويسكي على الاثر ، وقالت العجائز : « في صحتكم يافتيان !.. بارك الله فيكم ، ياأحسن فتيان في الوجود !.. هذا هو أنتم !.. » ـ الى امثال هذا الكلام .. ثم قالت احداهن وهي اكثرهن تجاعيد وقد ذهبت الاسنان من فمها الفاغر : « لا تمزق النقود يابني !.. ان كنت لاتريدها فامنحها لمن يحتاج اليها !.. » .. وكانت في هذا القول جريئة وصريحة .. ولكن ربك رد عليها قائلا :

ـ لم تكن هذه نقودا ياجدتي .. كانت صورة لطفل صغير ..

فرحت اقول لهم :

ـ انني بدات اتضايق منكم .. الاطفال هم انتم .. تهزلون وتتغامزون وكل ما تقدرون عليه هو الاعتداء بالضرب على الناس بجبن حين لا يقدرون على رد العدوان بمثله !..

فقال بوللي : لا باس .. كنا نظن حتى الان انك الملك والملم !.. انك لست على مايرام .. هذه هي المشكلة يازميلي العزيز !..

وحانت مني التفاتة الى كأس البيرة التي جيء بها الى على المائدة ، فشعرت بانني على وشك القيء ، وهكذا قمت وسكبتها على الارض ، حتى قالت احدى النساء : « لا تبدد ما لا تريده ! » ..

ولكنني وجهت كلامي الى الرفاق الثلاثة قائلا :

ـ اسمعوا يارفاق .. انصتوا .. ان مزاجي معكر هذه الليلة .. ولست اعرف لماذا ولا كيف ، ولكن هذا هو الحال .. اذهبوا

انتم الثلاثة فى طريقكم هذه الليلة ، بدونى .. وغدا سنلتقى فى نفس الزمان ونفس المكان ، على امل ان اتحسن وقتذاك ..
فقال بوللى : آه !.. انا آسف لهذا !..
لكن كان بوسعك ان ترى ذلك البريق فى عينيه ، اذ انه سيتزعم المجموعة هذه الليلة .. هى القوة والسلطان ، يريدهما كل انسان !..
فقال بوللى : يمكننا ان نؤجل الى الغد مشروعنا لهذه الليلة ـ اعنى الغارة على ذلك المحل فى شارع جاجارين .. الغنيمة هناك مغرية وجزيلة ايها الرفاق ، لن يقدم عليها !..
فقلت : لا .. لا تاجيل لشىء .. فقط افعلوا ماتريدون بانفسكم وبطريقتكم .. والان انا خارج !..
وقمت من مقعدى .. فقال ريك : الى اين اذن ؟..
فقلت : هذا ما لا اعرفه .. اريد ان اكون وحدى وافكر فى احوالى !..
بدت الدهشة على وجوه النسوة العجائز وقد راينني اخرج على هذه الصورة وانا متبرم ساخط ولست الفتى المتوثب الضحوك الذى تذكرونه ياإخوانى !.. ولكننى قلت :
ـ آه !.. الى جهنم !.. الى جهنم !..
وانطلقت وحدى الى الشارع ....
كان الظلام سائدا والريح قارسة البرد ، ولم يكن ثمة سوى قلة من الناس فى الطريق .. ولكن دوريات الشرطة بالسيارات كانت لا تكف عن الطواف وبداخلها افراد قساة اشداء ، وحول النواصى كنت ترى اثنين من رجال الشرطة الشبان يضربون الارض باقدامهم لمقاومة البرد اللاذع وانفاسهم تنعقد ابخرة فى هواء الشتاء .. وفى ظنى ياإخوانى أن كثيرا من اعمال العنف واقتحام المحال للسلب والنهب قد تلاشى الان ، بعد ان بدأ رجال الشرطة يتعاملون بالشدة والقسوة مع من يعتقلونهم ، على الرغم من أن الاشتباكات بين اشقياء (النادسات) والشرطة كانت تتحول الى معارك طاحنة اسلحتها المدى والمطاوى والعصى ، وحتى الاسلحة النارية ..
لكن ما اعترانى هذه الايام هو اننى لم اكد ابالى بشىء .. فكانما سرت الى نفسى طراوة لم افهم لها سببا ولا علة .. ولم استطع ان اعرف ماذا اريد وابتغى .. وحتى الموسيقى التى كنت مشغوفا بسماعها فى (وكرى) بالبيت لم اعد استطيبها ياإخوانى .. كنت استمع الان الى الاغانى الرومانسية الهادئة الشجية ، مجرد كلمات

وبيانو ، مختلفة تماما عن موسيقى الاوركسترا التي كنت أستمع اليها وانا ممدد فى فراشي منتشيا سابحا فى الفضاء !.. هناك شيء بدا يحدث لى فى داخلي ، حتى رحت اتساءل ان كان مرضا او هو شيء فعلوه بى فى تلك الفترة الماضية ، فقلبوا الموازين فى دماغي ، ولعلهم يوشكون ان يفضوا بي الى الهوس والاختلال !..

على هذه الصورة من التفكير باخواني رحت امشي فى المدينة مطرق الراس ويداى فى جيوبى حتى ادركني التعب الشديد وشعرت فى نفس الوقت بحاجة ملحة الى قدح كبير من الشاى واللبن .. وقد افضى بى التفكير فى الشاى الى تخيل صورة فجائية لنفسى جالسا إمام مدفأة فى مقعد وثير احتسى هذا الشاى ، وانما كان المضحك والمستغرب انني تخيلت نفسى وقد استحلت الى شخصية محترمة فى نحو السبعين من العمر وقد خط المشيب شعر صاحبها !.. هكذا تخيلت نفسى رجلا كهلا جالسا بجانب المدفاة ، لكن هذه الصورة لم تلبث أن تلاشت ، وان تلبث فى نفسى التفكير فى غرابتها !..

ووصلت الى واحد من تلك المقاهى التى تقدم القهوة والشاى ، واستطعت ان اتبين من خلال نافذتها الطويلة اناسا متبلدين عاديين لهم وجوه صابرة لا تعبر عن شيء ولا يبادر اصحابها أحدا باذى ، وكلهم جلوس يتسامرون فى هدوء ويحتسون الشاى والقهوة بما لا يضر شيئا .. فدخلت واتجهت الى (الكاونتر) واشتريت قدحا من الشاى الحار وبه قدر كبير من اللبن ، ثم جلست الى احدى الموائد لكى أشربه .. وكان يجلس الى هذه المائدة الكبيرة شاب وفتاة يشربان ويدخنان سجائر ذات (فلتر) وهما يتجاذبان اطراف الحديث ويتبادلان الابتسام هادئين وادعين ، بيد أننى لم الق اليهما بالا ورحت احتسى وانا فيما يشبه الحلم والعجب مما اعتراني وغيرني ومما قد يحدث لى .. لكننى رايت أن تلك الفتاة الجالسة مع الشاب الى المائدة كانت حسناء بمعنى الكلمة ولكنها ابعد ما يكون عن صورة الفتاة المبتذلة الرخيصة التى تثير الغرائز الجامحة .. كانت متناسقة القوام مليحة الوجه باسمة الثغر رخيمة الصوت .. وما لبث جليسها الشاب الذى كان وجهه مائلا عنى فى الناحية المقابلة ان انثنى لينظر الى الساعة الكبيرة المعلقة على الحائط ، وسرعان ما عرفته ، وسرعان ماعرفنى .. كان بيتر ، احد الرفاق الثلاثة من عهد الايام السالفة عندما كنا اربعة : جورجى ، وديم ، وبيتر ، وأنا .. وقد بدا بيتر الان اكبر سنا وان لم يجاوز التاسعة عشرة ، وكان له شارب

خفيف ، وكان مرتديا بدلة عادية وقبعة فوق رأسه ..
قلت له : حسن ، حسن ، حسن ياصاحبي !.. منذ وقت طويل لم نرك !..
فقال : اليكس الصغير !.. اليس كذلك ؟..
فقلت : لا سواه !.. مضت مدة طويلة طويلة طويلة منذ تلك الايام الحلوة الماضية !.. والان فان جورجي تحت التراب كما اخبروني ، وديم شرطي وحشي ، وهاانذا وانت !.. ماهى اخبارك ايها الزميل القديم ؟..
فقالت له فتاته متضاحكة : ان كلامه عجيب ، اليس كذلك ؟..
فقال لها : هو صديق قديم .. اسمه اليكس ..
والتفت الى قائلا : اسمح لى ان اقدم لك زوجتى ..
انفرج فمي عن آخره ، وقلت : زوجة ؟.. زوجة .. زوجة ؟.. آه ، كلا !.. هذا لايمكن !.. انت اصغر كثيرا من ان تتزوج ، ياصاحبي !.. مستحيل !.. مستحيل !..
فضحكت الفتاة التى قال انها زوجته وقالت له : هل تعودتما ان تتكلما هكذا ايضا ؟..
فقال بيتر باسما : حسن .. ان سنى تقارب العشرين ، وهى سن تكفى للقيد .. وقد تم ذلك منذ شهرين .. اما انت فكنت صغيرا جدا ، ومقداما !..
فقلت ومازلت فى دهشتى : لا بأس .. هذا شيء لا يمكن ابتلاعه بسهولة !.. بيتر متزوج !؟.. حسن !.. حسن !.. حسن ..
فقال بيتر : لنا الان شقة صغيرة ... وانا انال مرتبا صغيرا فى شركة للتامين البحرى ، لكن الاحوال سوف تتحسن ، هذا مؤكد .. وجورجينا هنا ..
فقلت له وما زلت فاغر الفم : ماهذا الاسم ؟..
فأجاب بين ضحك زوجته : جورجينا زوجتى تعمل ايضا .. على الالة الكاتبة .. ونحن نتعاون لتدبير امورنا ..
لم استطع ياإخوانى ان ارفع بصرى عنه حقيقة !.. هكذا كبر بسرعة ، وتمشى صوته مع تقدمه فى السن !.. بينما مضى يقول :
— يجب أن تحضر لرؤيتنا فى وقت ما .. اما انت فانك مازلت تبدو اقرب الى صغر السن ، على الرغم من التجارب الرهيبة التى مررت بها .. نعم ، نعم ، نعم .. اننا قرانا كل ماكتب عنها .. لكنك مازلت مع ذلك صغير السن ..

فقلت : ثمانية عشر عاما .. او ازيد قليلا ..

فقال بيتر : ثمانية عشر عاما ؟.. هل كبرت الى هذا الحد ؟.. لا باس .. الان لابد لنا من الانصراف ..

ورمق جورجينا هذه بنظرة محبة وضغط باحدى يديه على يدها وبادلته نظرته بمثلها ياأخواني !..

وقال بيتر وهو ينثني نحوي : نعم .. نحن ذاهبان الى حفلة صغيرة عند جريجز ..

فقلت : جريجز ؟! ..

فقال بيتر : آه .. طبعا انت لايمكن ان تعرف جريجز .. انه ظهر بعدك — في فترة غيابك .. هو يقيم حفلات صغيرة ، معظمها تقوم على ألعاب الكلمات وبعض الشراب الخفيف .. لكنها لطيفة جدا ، ومبهجة جدا .. ثم انها غير ضارة ، اذا فهمت قصدي ..

فقلت : مفهوم .. غير ضارة .. مفهوم .. مفهوم تماما ..

وانصرف الاثنان الى حفلهما الصغير عند جريجز هذا ، وبقيت وحدي مع الشاي الذي بدأ يبرد الان ، متفكرا متعجبا ..

ربما كان هذا هو الواقع : اعني انني كبرت بالنسبة الى تلك الحياة التي كنت اعيشها والاسلوب الذي كنت انتهجه ياأخواني .. لقد كنت الان في الثامنة عشرة ، او جاوزتها بقليل .. ان الثامنة عشرة لم تكن سنا صغيرة .. ففي الثامنة عشرة كتب (فولف — جانج اماديوس) سيمفونيات وكونشرتات واوبرات وموشحات وغيرها كثير من تلك الموسيقى السماوية .. ثم هناك (فيلكس م .) برائعته (افتتاحية حلم منتصف ليلة صيف) .. وهناك غيرهما كثيرون .. ثم هناك ذلك الشاعر الفرنسي الذي دبج اروع شعره وهو بعد في الخامسة عشرة .. واسمه ارثر على ما أذكر .. آه ياأخواني !.. ان سن الثامنة عشرة لم تعد تلك السن الصغيرة .. لكن ما الذي يتعين على ان افعله ؟..

لقد راحت تتراءى لي بعد خروجي من مقهى الشاي والقهوة الى الظلام الشتوي القارس رؤى كالتي تتعاقب في رسوم (الكارتون) المصورة في الصحف .. فها هوذا محدثكم المتواضع اليكس عائدا الى بيته بعد العمل ليجد عشاء ساخنا طيبا ، وها هي ذي نتاته ترحب بعودته وتمنحه مودة الزوجة الحانية !.. لكنني لم استطع أن اتبينها ياأخواني .. لم استطع ان افكر من ستكون ياترى .. غير انني تملكتني تلك الفكرة القوية المفاجئة بانني اذا دلفت الى

الغرفة المجاورة لهذه الغرفة التي يتقد فيها لهب المدفأة والعشاء الساخن معد فيها على المائدة ، فانني واجد فيها من اريد حقا !.. ثم تلك الصورة الفوتوغرافية للطفل الرضيع المقصوصة من الجريدة .. هناك ولاشك سيكون فى غرفة اخرى ذلك المهد الصغير الذى يرقد فيه الطفل الضحوك هانئا وادعا .. طفلى ، وابنى !..

لم اتمالك ان صحوت من تاملاتى شاعرا بفراغ سحيق فى داخلى، مندهشا مما اعترانى .. لقد لمست ما هو حادث لى ياإخوانى .. اننى كبرت حقا !..

اجل !.. هذه هى الحقيقة .. لابد ان يذهب الشباب ويولى.. انما الشباب لا يعدو أن يكون مثل حيوان .. لا .. انه مثل تلك اللعب التى تراها تباع فى الشوارع ، تمثل اشخاصا صنعوا من الصفيح وزودوا بزنبرك ومفتاح خارجى تملؤه بيدك ، فينطلق فى خط مستقيم ويصطدم بالاشياء وهو لايملك لنفسه ونفا ولا حيلة له فيما يفعل !.. ان صغر السن هو اقرب شبها بتلك الالات الصغيرة!..

ابنى !.. ابنى !.. عندما يكون لى ابن فاننى سأشرح له كل هذا حينما يكبر الى الحد الذى يجعله يفهم .. غير اننى اعرف انه لن يفهم ، او لن يريد ان يفهم بتاتا ، ويقبل على فعل كل الاشياء التى فعلتها .. نعم .. وربما حتى على قتل عجوز مسكينة ترعى القطط ، وقد لا استطيع وقفه عند حده .. وربما لا يستطيع ايضا ان يوقف ابنه هو عند حده ياإخوانى !.. وهكذا تمضى الامور على هذه الوتيرة الى نهاية الدنيا ، دورانا ودورانا لاينقطع ، وكأنما هو القدر الغلاب يدير برتقالة دورانا مستمرا دائبا ، دون ان يكون لها حول ولا قوة فى يديه الهائلتين !

لكن قبل هذا كله ياإخوانى ، لابد من البحث عن تلك الفتاة التى تكون اما لهذا الابن .. لابد ان ابدأ هذه المهمة من غدى .. لكى تكون بمثابة فصل جديد استهل به ما اريد ..

وهذا هو ماسيكون ياإخوانى وانا اقترب من نهاية هذه القصة .. لقد كنتم فى كل مكان مع صديقكم الصغير اليكس ، تعانون معه ، وقد شهدتم بعض نماذج الشخوص الملتوية التى كانت حربا على صديقكم اليكس العتيد .. وكل ذلك لاننى كنت حدثا غريرا .. اما الان وانا اختتم هذه القصة ياإخوانى ، فاننى لم اعد صغيرا بعد ، ولن اكونه قط ، فان اليكس قد انتقل الى مرحلة الكبر ..

انني مقبل الان ياأخواني على عهد جديد مستقلا بكياني ، الى حيث لا يمكنكم صحبتي بعد .. وغدا سيكون مثل الزهور المتفتحة ، والثمار اليانعة في التربة الخصبة ، والانجم اللامعة ، والقمر المتبدد الساري في عليائه ، وفيه يضطلع صديقكم البكس بالتماس شريكة لحياته ، في دنيا غير دنيا المعاناة الرهيبة التي استهدف لها وامتحن بها .. وهكذا اودعكم ياأخواني وداعا قوامه الشكر والامتنان ، راجيا منكم حسن الذكر والدعاء بالتوفيق لصاحبكم البكس صديقكم القديم .

تمت ..

هــــذه الــروايــة

فــى : اشهر رواية فى الأدب الانجليزى المعاصر .
وهــو : أحد أهم كتاب الرواية . ليس فى انجلترا بل فى جميع انحاء العالم ، امتزجت ثقافته بالحضارة الاسلامية والغربية والرؤية الثاقبة للواقع الراهن وعالم الغد ..

لذا جاءت روايته «البرتقالة الآلية» معبرة عن سيادة روح العنف فى العالم المعاصر . واعتبرت نموذجا مجسدا لما يدور فى هذا العالم .

جرائم تهتز لها الابدان . يرتكبها اليكس ضد الابرياء من المواطنين . وجرائم أخرى مشابهة ترتكبها السلطات ضد اليكس عندما اجريت له عملية مسح مخ ..

وعندما اخرجت السينما العالمية هذه الرواية فى فيلم .. عام ١٩٧٢ منعته دول عديدة لما يتضمنه من مشاهد عنف وجنس تقشعر لها الاحاسيس

« البرتقالـة الآليـة »
رواية مجنونة .. لكاتب عاقل جدا ..
وهى أكثر الروايات مبيعا فى العالم



REWAYAT ALHILAL
No.477 SEPTEMBER 1988